

جماليات المكان في القصة القرآنية

إعداد

إيمان محمود الشاويش

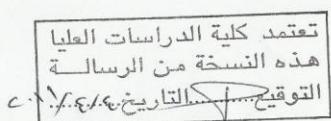
المشرف

الأستاذ الدكتور شكري عزيز الماضي

قدمت هذه الرسالة استكمالاً لمتطلبات الحصول على درجة الماجستير في
اللغة العربية وآدابها

كلية الدراسات العليا
جامعة الأردنية

٢٠١١، نيسان



قرار لجنة المناقشة

نوقشت هذه الرسالة/الأطروحة (جماليات المكان في القصة القرآنية) وأجيزت بتاريخ ٢٠١١/٣/٢٣

التوقيع

أعضاء لجنة المناقشة

الأستاذ الدكتور شكري الماضي أستاذ الأدب والنقد (مشرفاً)

الأستاذ الدكتور إبراهيم السعافين أستاذ الأدب والنقد (عضو)

الدكتور سمير بدوان قطامي أستاذ الأدب والنقد (عضو)

الأستاذ الدكتور مصطفى عليان أستاذ الأدب في الجامعة الهاشمية (عضو)

تعتمد كلية الدراسات العليا
هذه النسخة من الرسالة
التاريخ
.....

إِلَهِي

هذا جهدُ أنتَ تضعه بين يديك
 راجية من جلالك لأن تتقبله عنها ولأن
 تبارك لها فيه.

شكر وتقدير

أتوجه بالشكر والتقدير إلى أستاذى الفاضل الأستاذ الدكتور شكري الماضى؛ لسعة صدره، ولما بذله من أجلى، وما قدمه لي من نصح وعونه فى سبيل إنجاز هذا العمل، كما أتقدم بالشكر الجزيل لأعضاء هيئة المناقشة وهم:

الأستاذ الدكتور إبراهيم السعافين

الدكتور سمير بدوان قطامي

الأستاذ الدكتور مصطفى عليان

فهرس المحتويات

الصفحة	الموضوع
ب	قرار لجنة المناقشة
ج	الإهداء
د	شكر وتقدير
ه	فهرس المحتويات
ح	الملخص باللغة العربية
١	المقدمة
٥	الفصل الأول: القصة في القرآن الكريم
٦	- حيز القصة القرآنية وأهميتها نسبة لآيات القرآن الكريم
١٤	- آراء الدارسين حول المكان في القصة القرآنية
٢٣	- المكان الطبيعي والمكان الفني
٢٦	- أهمية المكان في العمل الفني
٢٩	الفصل الثاني :الأمكنة في القصة القرآنية:دورها ،ودلالاتها
٣٧	- السماء
٣٨	- الأرض
٥٢	- الجنة
٦٠	- البحر - السفينة
٧٠	- أماكن التجمعات البشرية: القرية-المدينة
٨٩	- الجبل
٩٣	- الوادي
٩٥	- النهر-عين الماء

٩٨	-النادي.....
٩٩	-العرش.....
١٠١	-التابوت.....
١٠٣	-المهد.....
١٠٣	بناء الجحيم.....
١٠٤	-الأخدود.....
١٠٥	-المحراب.....
١٠٩	-البيت الحرام.....
١١٠	-الجب.....
١١١	-الكهف.....
١١٥	-الصرح.....
١١٨	-السجن.....
١٢٤	-البيت.....
١٢٩	الفصل الثالث: علاقة المكان بسائر عناصر القصة.....
١٣٣	أولاً: العلاقة بين المكان والأحداث:.....
١٣٤	-المكان يظهر مفارقة في الأحداث.....
١٣٥	-المكان يعبر عن قسوة الحدث وشدته.....
١٣٧	-المكان وسيلة لخدمة الحدث.....
١٣٨	-الحدث أكسب المكان إعجازاً وفرادة.....
١٤٠	-قدرة الحدث على تغيير صورة المكان ووظيفته.....
١٤١	-صمود المكان أمام الحدث.....
١٤٣	-المكان يكسب الحدث عظما.....
١٤٥	-الحدث يكسب المكان قداسة.....
١٤٦	-مساهمة الحدث في تغيير صورة المكان.....

١٤٨	ثانياً: العلاقة بين المكان والشخصيات.....
١٥٠	-المكان موضع اختبار وابتلاء للشخصية.....
١٥٦	-المكان مساند/غير مساند للشخصية.....
١٥٩	-أماكن السكن وعلاقتها بالشخصية.....
١٦١	-المكان فتنة للشخصية.....
١٦٣	-المكان عقوبة(سجن)للشخصية.....
١٧٢	-المكان محل مفاجآت ومعجزات للشخصية.....
١٧٤	-المكان مأوى للشخصية.....
١٧٨	ثالثاً: علاقة المكان بالزمان.....
١٧٩	-تدمير المكان في زمان معين.....
١٨٢	-حريم المكان في زمان معين.....
١٨٣	-اتحاد الزمان والمكان في خدمة الحدث أو سيطرة أحدهما على الآخر.....
١٨٧	-الزمان سبب في ظهور المكان.....
١٨٩	-الزمان يزيد من قسوة المكان.....
١٩٢	-تغير ملامح المكان مع مرور الزمان.....
١٩٢	-الزمان عامل بقاء أو خروج من المكان.....
١٩٥	الخاتمة.....
١٩٨	المصادر والمراجع.....
٢٠١	الملخص باللغة الإنجليزية.....

جماليات المكان في القصة القرآنية

إعداد

إيمان محمود عبد الحميد الشاويش

المشرف

الأستاذ الدكتور شكري ماضي

ملخص

يقدم هذا البحث دراسة حول عنصر المكان في القصة القرآنية، إذ لم تفرد دراسة سابقة خاصة بهذا الموضوع، وتحاول هذه الدراسة أن تبين أهمية المكان ودوره في القصة القرآنية، لا سيما بعض الدراسين للفضة القرآنية همّشوا دور المكان فيها، وقالوا بعدم اهتمام القصة القرآنية بتحديد عنصر المكان فيها، وهذا المشروع محاولة لبيان كيفية ظهور عنصر المكان في القصة القرآنية، والدور الذي اضطاعت به، وذلك بالإجابة عن التساؤلات الآتية؛

١- هل المكان في القصة القرآنية هامشي وليس له دور في تشكيل القصة القرآنية؟ أم كان له دور في تشكيل وتحريك أحداث القصة؟

٢- كيف وظف القرآن الكريم المكان في قصصه؟ هل وظف لخدمة الغرض الديني؟ هل ارتبط الغرض الديني بالجانب الجمالي الفني؟

٣- هل تفاعل عنصر المكان في القصة القرآنية مع سائر عناصر القصة؟

٤- هل تعدد دلالات المكان في القصة القرآنية؟

وسيتبين ذلك بدراسة المكان في القصة القرآنية، دراسة شاملة، ببيان الأماكن في القصة القرآنية، ودلالاتها، ودورها، وعلاقتها بغيرها من عناصر القصة، للكشف عن مدى توظيف

المكان فنياً وجمالياً في القصة القرآنية .

وقد قسمت هذه الدراسة إلى مقدمة وثلاثة فصول وخاتمة، ب بينت المقدمة أهمية الموضوع وسبب اختياره ، والدراسات السابقة ، والأسئلة التي تحاول الإجابة عنها ، وتتناول الفصل الأول الحديث عن أهمية القصة القرآنية من حيث الحيز والحجم ، وأهمية المكان في القصة ، وأهم آراء دارسي القصة القرآنية حوله ، أمّا الفصل الثاني فتحدث عن الأمكنة في القصة القرآنية ودلالاتها في القصة والرؤى التي أسهمت في حملها ، وتتناول الفصل الثالث علاقة المكان مع سائر عناصر القصة وتفاعله معها وتأثيره أو تأثيره فيها وأثر ذلك في تحقيق الانسجام والجمال في القصة القرآنية .

وتضمنت خاتمة البحث أهم النتائج التي توصل إليها ؛ وهي أنَّ المكان في القصة القرآنية يزيد من جمالية القصة فنياً ، ويخدم رؤيتها ، ويسيهم في حمل دلالات متنوعة فيها ، ولم يكن دوره هامشياً فيها بل إنَّ طبيعة القصة القرآنية في توزيعها إلى مشاهد على سور القرآن الكريم كان له أكبر الأثر في خصوص المكان لهذه الطبيعة فليس من الضروري أن يظهر المكان في كل مشهد من مشاهد القصة ، ولكن باجتماع المشاهد كاملة نجد أنَّ القصة لا تخلو من مكان فيها خدم أحداثها وتفاعل مع شخصيتها وساحتها في حمل رؤيتها.

المقدمة

الحمد لله والصلوة والسلام على الرحمة المهداة سيدنا محمد بن عبد الله وعلى آله وصحبه أجمعين . أمّا بعد ، فهذه دراسة تناولت فيها الباحثة عنصراً أساسياً من عناصر القصة القرآنية ألا وهو المكان . وقد حملت الدراسة عنوان " جماليات المكان في القصة القرآنية "، وتتناول هذه الدراسة الحديث عن أهمية القصة بوصفها أداة خطاب إلهي للعالمين ، وتوظيفها لعناصر القصة لخدمة هذا الخطاب ، مع تسلیط الضوء على عنصر المكان وتوضیح رأی دراسی القصة فيه ، وبيان أهمية هذا العنصر في القصة عامة وفي القصة القرآنية خاصة .

والمكان عنصر تكوفي مهم ، يرتبط بالعناصر الفنية الأخرى ، فلا أحداث دون مكان يحتويها ، ولا شخصيات دون مكان تظهر فيه وتفاعل معه . لذا فدراسة هذا العنصر تكشف عن تفاعل العناصر القصصية فيما بينها بما يحقق الانسجام في بناء القصة وبيان دور هذا الانسجام والجمال الفني في تحقيق الغرض الديني ، فالقرآن " يجعل الجمال الفني أداة مقصودة للتأثير الوجداني ، فيخاطب حاسة الوجدان الدينية ، بلغة الجمال الفني " ^(١) لذا تسعى هذه الدراسة إلى الإجابة عن الأسئلة الآتية :

- ١- هل تعددت دلالات المكان في القصة القرآنية؟
- ٢- هل المكان في القصة القرآنية هامشي وليس له دور في تشكيل القصة القرآنية؟ أم كان له دور في تشكيل القصة وتحريك أحداثها؟
- ٣- كيف وظف القرآن الكريم المكان في قصصه؟ هل وظف لخدمة الغرض الديني؟ هل ارتبط الغرض الديني بالجانب الجمالي الفني؟
- ٤- هل تفاعل عنصر المكان في القصة القرآنية مع سائر عناصر القصة؟

^(١) سيد قطب/التصوير الفني في القرآن الكريم/ص ٤١

وأمّا عن سبب اختيار هذا الموضوع للدراسة فيعود إلى رغبة الباحثة أولاً في الإبحار في عالم النص القرآني ومحاولة تأمل إعجازه وروعة بيانه التي أخذت بعقول فصحاء العرب ،وما كان عجزهم عن محاكاته إلا إدراكا منهم لروعته وجماله الذي لا يستطيع أن يأتي بمثله مخلوق.

وأمّا عن اختيار عنصر المكان في القصة القرآنية فعائد إلى ملاحظة الباحثة أنَّ الدراسات التي تناولت القصة القرآنية من ناحية جمالية فنية قليلة إذ إنَّ معظم الدراسات ركزت على الجانب التربوي والأخلاقي أو على سرد أحداث القصة وذكر الروايات التي تدور حولها.لذا تكمن أهمية هذه الدراسة بتخصيصها عنصر المكان في القصة القرآنية بالبحث، إذ لم تفرد دراسة سابقة خاصة بهذا الموضوع (جماليات المكان في القصة القرآنية) ، و يمكن دراسة عنصر المكان من أكثر من زاوية، فمن جانب يمكن دراسة دوره ودلالاته في القصة ، ومن جانب آخر يمكن دراسة هذا العنصر مرتبطاً بغيره من عناصر القصة .

وأمّا عن الدراسات السابقة فلم تعثر الباحثة- في حدود اطلاعها- على دراسة مختصة بالمكان في القصة القرآنية ،وحتى الذين درسوا القصة القرآنية من ناحية فنية تحليلية لم يتوقفوا عند المكان وذكروه بإشارة عابرة وقالوا بأنَّ المكان في القصة القرآنية لا يكاد يكون له دور أو ذكر إلا إذا ارتبط مباشرة بحدث هام، ومن هذه الدراسات دراسة عبد الكريم الخطيب (القصص القرآني في منطوقه ومفهومه) ، ودراسة التهامي نقرة (سيكولوجية القصة في القرآن الكريم) ، وأما الذين توقفوا عند المكان في صفحات قليلة فقد كان توقفهم عنده في قصة ذاتها ومن أهم هذه الدراسات :

١ - دراسة أحمد عطا وهو كتاب بعنوان (البناء الفني في القصة القرآنية ، سورة يوسف نموذجا) فقد ذكر أنَّ المكان عنصر ثانوي كان يبهم في القصة القرآنية باستثناء الأحداث التي كان لها ارتباط مباشر بالحدث كالسجن،والجب .

٢ - دراسة سليمية مدللاف بعنوان (تحليل الخطاب القصصي في القرآن الكريم،سورة القصص نموذجا) وهي رسالة ماجستير من جامعة الجزائر سنة ١٩٩٧ ، اعتمدت الدراسة المنهج البنوي لدراسة قصة موسى -عليه السلام- في سورة القصص وقد توقفت عند المكان وتوصلت إلى أنَّه يحمل دلالات جمالية ودينية في هذه السورة.

٣ - دراسة سليمان الطراونة وهو كتاب بعنوان (دراسة نصية أدبية في القصة القرآنية) إذ تحدث عن الزمان والمكان في القصة القرآنية وأشار إلى أنَّ المكان في القصة القرآنية غالباً غير محدد ويأتي عارضاً ولا اتصال بينه وبين الحدث ويستثنى قصة يوسف ومريم وقصة موسى - عليه السلام - في سورة القصص.

٤ - ويمكن أن تعد أطروحة الدكتوراة التي تحمل عنوان (جماليات المكان في القرآن الكريم) المقدمة من الطالبة عزة الحلبي من جامعة دمشق عام (٢٠٠٠) م من أهم الدراسات السابقة ، فقد تناولت هذه الدراسة الحديث عن جميع الأماكن التي ورد ذكرها في القرآن الكريم من أرض وسماء ونجوم وأبراج وبحار ، من حيث وصف قدرة الله في الخلق والإبداع ، وتوظيف الله لها وسيلة للدعوة إليه والتعرف على عظمته ، وقد قسمتها إلى أماكن طبيعية وصناعية ودينية وغيبية ، ولم تخصص باباً أو فصلاً للمكان في القصة للدراسة بل جاء حديثها عنه عارضاً تفترضه عليها طبيعة دراستها ، ومتفرقاً في عدد قليل من الصفحات مشيرة إلى نتيجة هامة وهي أنَّ ظهور المكان في القصة أو الحدث ظهور مركزي له دلالات وإيحاءات وقد ارتبطت أحداث قرآنية بأماكن معينة ، وكانت تلك الأماكن هي التي عمقت الحديث أو القصة كاملة وبها تلخصت الغايات كاملة .

ولم أجد إجابة شافية متكاملة في الدراسات السابقة عن عنصر المكان في القصة القرآنية من حيث أهميته ودوره في بناء القصة ودوره في تجسيد رؤيتها وعلاقته بسائر عناصرها . لذا يسعى البحث الحالي (جماليات المكان في القصة القرآنية) إلى دراسة المكان في القصة القرآنية دراسة شاملة إذ سيرصد ويصنف جميع الأماكن القصصية ويبين أهميتها ودلالاتها ودورها في بناء القصة وعلاقتها مع سائر عناصر القصة .

وقد أفت من كل الدراسات السابقة التي أشرت إليها ، كما أفت من دراسات آخر مهمة ، في مقدمتها كتب تفسير القرآن الكريم كتفسير الظلال لسيد قطب وتقسيم الكشاف للزمخشري وتقسيم الشعراوي ، ثمَّ الدراسات التي تحدثت عن المكان ككتاب جماليات المكان لغاستون باشلار ، ودراسة صلاح صالح قضايا المكان الروائي ، ودراسة عزة الحلبي المكان في القرآن الكريم وغيرها من الدراسات .

وقد اتبعت الباحثة في دراستها الخطوات المنهجية الآتية:

- قراءة النصوص القرآنية كاملة ورصد ظاهرة المكان في قصصها .
- محاولة استخلاص رؤية القصة في علاقتها بالمكان .
- تحديد الأماكن التي ارتبطت بالقصة القرآنية.
- بيان علاقة المكان مع سائر عناصر القصة.
- بيان أبعاد المكان ودلالته ودوره ووظيفته الجزئية ودوره في بيان الرؤية الكلية .
- تفسير وتعليق الظواهر السابقة وبيان تفردها .

وكل هذه الخطوات تفرض الإلزام من المنهج الفني الجمالي ،الذي فرضته طبيعة الظاهرة المدروسة وأسئلتها ،ويسعى هذا المنهج لإبراز مواطن الجمال في النص والكشف عن التاليف والانسجام بين عناصر النص ،ليصبح النص أكثر حضورا في النفس وأكثر اندماجا في الحس.

وقد قسمت هذه الدراسة إلى مقدمة وثلاثة فصول وخاتمة ،أما الفصل الأول(القصة في القرآن الكريم) فتناول الحديث عن أهمية القصة القرآنية من حيث حجمها وتفردها في بنائها وأسلوبها،كما تناول الفصل الأول أهم الآراء حول عنصر المكان في القصة القرآنية ،وأهمية هذا العنصر ،والفرق بين المكان الطبيعي والفني،وأما الفصل الثاني(الأمكنة في القصة القرآنية) فقد تم فيه تقديم الأماكن في القصة القرآنية من حيث دورها في القصة ودلائلها وطريقة عرض القرآن الكريم لها، ثم الفصل الثالث(علاقة المكان بسائر عناصر القصة) الذي درس المكان بتفصيل أكثر من حيث علاقته مع سائر عناصر القصة من زمان وشخوص وأحداث ،وأما الخاتمة فقد تضمنت أهم النتائج التي توصل إليها البحث .

وبعد،فأرجو أن أكون قد وفقت في هذه الدراسة ، وأن تكون هذه الدراسة بذرة انطلاق نحو أفق أوسع في دراسة النص القرآني الكريم .

سائلة المولى أن يجعله علما نافعا متقبلا
الباحثة

الفصل الأول

القصة في القرآن الكريم

حيّز القصّة القراءية وأهميّتها نسبيّة لآيات القرآن الكريم

تنوع أسلوب الخطاب في القرآن الكريم ،فاستخدم فيه التصوير الفني ،والقصّة ،والأسلوب الوعظي المباشر من أمر ونهي ،وترغيب وترهيب وغيرها من الأساليب التي هدفت إلى التبليغ الديني ،وذلك بالتأثير في المتلقّي .إنَّ التنوّع بأسلوب الخطاب يتناسب مع تنوّع نفسية المتلقّين ،وتعدد مستوياتهم الفكرية والعقلية، فالمخاطبون ليسوا سواء في التلقّي ،فما يؤثّر في شخص قد لا يؤثّر في آخر ؛ولأنَّ القرآن الكريم كتاب دعوة عالمي فـإِنَّه لابدَّ من مراعاة الفروق التي وضعها الله عزَّ وجلَّ بين البشر .

والمتأمّل في النص القرائي يجد أنَّ القصّة (بوصفها أسلوب خطاب) قد نالت حظاً واسعاً منه ، وتميزت القصّة القراءية ليس بحجمها فقط بل بهيمنتها على معظم سور القرآن الكريم ، فأغلب قصص القرآن الكريم جاءت بمشاهد متقرقة وموزعة في سور القرآن الكريم من أوله إلى آخره فلا تكاد سورة تخلو من قصة أو مشهد قصصي .والجدول الآتي يبيّن السور التي جاءت فيها آيات القصص على النحو الآتي:

القصة	مواقع ورودها	عدد الآيات
آدم	البقرة (٣٠-٣٨)	٩
موسى	البقرة (٤٩-٩٣)	٢٥
إبراهيم	البقرة (١٢٤-١٢٩)	٦
الملا من بنى إسرائيل	البقرة (٢٤٦-٢٥٢)	٧
إبراهيم	البقرة (٢٥٨-٢٦٠)	٣
الذي مر على قرية	البقرة (٢٥٩)	١
مريم + زكريا	آل عمران (٣٣-٤٨)	١٥
عيسى	آل عمران (٤٩-٥٥)	٧
موسى	المائدة (٢٠-٢٦)	٧
ابني آدم	المائدة (٢٧-٣١)	٥
عيسى	المائدة (١٠-١١٨)	١٩
إبراهيم	الأنعام (٧٤-٨٤)	١١
آدم	الاعراف (١١-٢٧)	١٧
نوح	الاعراف (٥٩-٦٤)	٦
هود	الاعراف (٦٥-٧٢)	٨
صالح	الاعراف (٧٣-٧٩)	٧
لوط	الاعراف (٨٠-٨٤)	٥
شعيب	الاعراف (٨٥-٩٣)	٩
موسى	الاعراف (١٠٣-١٥٥)	١٥
نوح	(١٧١-١٦٠)	
موسى	يونس (٧٥-٧٤)	٤
موسى	يونس (٧٥-٩٣)	١٩
يونس	يونس (٩٨)	١
نوح	هود (٤٩-٢٥)	٢٥

١١	هود(٦٠-٥٠)	هود
٨	هود(٦٨-٦١)	صالح
٨	هود(٧٦-٦٩)	إبراهيم
٧	هود(٨٣-٧٧)	لوط
١٢	هود(٩٥-٨٤)	شعيب
٥	هود(١٠٠-٩٦)	موسى
١٠٢	يوسف(١٠٢-١)	يوسف
٤	ابراهيم(٨-٥)	موسى
٧	ابراهيم(٤١-٣٥)	إبراهيم
١٨	الحجر(٤٥-٢٨)	آدم
١٠	الحجر(٦٠-٥١)	إبراهيم
١٩	الحجر(٧٩-٦١)	لوط
٦	الحجر(٨٥-٨٠)	صالح
٤	الاسراء(١٠٤-١٠١)	موسى
١٩	الكهف(٢٧-٩)	أصحاب الكهف
١٣	الكهف(٤٤-٣٢)	صاحب الجنتين
١	الكهف(٥٠)	آدم
٢٣	الكهف(٨٢-٦٠)	موسى
١٦	الكهف(٩٨-٨٣)	ذو القرنين
١١	مريم(١١-١)	زكريا
١٤	مريم(٢٩-١٦)	مريم
٦	مريم(٣٥-٣٠)	عيسى
١٠	مريم(٥٠-٤١)	إبراهيم
١٣	مريم(٥٣-٥١)	موسى
٢	مريم(٥٥-٥٤)	إسماعيل
٢	مريم(٥٧-٥٦)	إدريس

٩١	طه(٩٩-٩)	موسى
٨	طه(١٢٣-١١٥)	آدم
٢٢	الأنبياء(٧٣-٥١)	إبراهيم
٤	الأنبياء(٧٧-٧٤)	لوط
٥	الأنبياء(٨٢-٧٨)	داود+سليمان
٢	الأنبياء(٨٤-٨٣)	أيوب
٢	الأنبياء(٨٨-٨٧)	يونس
٢	الأنبياء(٩٠-٨٩)	زكريا
١	الأنبياء(٩١)	مريم
٨	المؤمنون(٣٠-٢٣)	نوح
١٢	المؤمنون(٤٢-٣١)	هود
٥	المؤمنون(٤٩-٤٥)	موسى
٢	الفرقان (٣٦-٣٥)	موسى
١	الفرقان(٣٧)	نوح
١	الفرقان(٤٠)	لوط
٥٩	الشعراء(٦٨-١٠)	موسى
٢١	الشعراء(٨٩-٦٩)	إبراهيم
١٨	الشعراء(١٢٢-١٠٥)	نوح
١٨	الشعراء(١٤٠-١٢٣)	هود
١٩	الشعراء(١٥٩-١٤١)	صالح
١٦	الشعراء(١٧٥-١٦٠)	لوط
١٦	الشعراء(١٩١-١٧٦)	شعيب
٨	النمل(١٤-٧)	موسى
٣٠	النمل(٤٤-١٥)	سليمان
٩	النمل(٥٣-٤٥)	صالح
٧	النمل(٥٩-٥٣)	لوط

٤٤	القصص(٤٦-٣)	موسى
٨	القصص(٨٣-٧٦)	قارون
٢	العنكبوت(١٥-١٤)	نوح
١٢	العنكبوت(٢٧-١٦)	إبراهيم
٨	العنكبوت(٣٥-٢٨)	لوط
٢	العنكبوت(٣٧-٣٦)	شعيب
٢	سبأ(١١-١٠)	داود
٣	سبأ(١٤-١٢)	سليمان
٧	سبأ(٢١-١٥)	سبأ
١٧	پس(٢٩-١٣)	موسى
٨	الصفات(٨٢-٧٥)	نوح
٣١	الصفات(١١٣-٨٣)	إبراهيم
٩	الصفات(١٢٢-١١٤)	موسى
١٠	الصفات(١٣٢-١٢٣)	إلياس
٦	الصفات(١٣٨-١٣٣)	لوط
١٠	الصفات(١٤٨-١٣٩)	يونس
١٠	ص(٢٦-١٧)	داود
١١	ص(٤٠-٣٠)	سليمان
٥	ص(٤٤-٤١)	أيوب
١٥	ص(٨٥-٧١)	آدم
٢٤	غافر(٤٦-٢٣)	موسى
٢	فصلت(١٦-١٥)	هود
٢	فصلت(١٨-١٧)	صالح
٣	الزخرف(٢٨-٢٦)	إبراهيم
١١	الزخرف(٥٦-٤٦)	موسى
٢٠	الدخان(٣٧-١٨)	موسى

٨	الاحقاف (٢٨-٢١)	هود
١١	الذاريات (٣٤-٢٤)	ابراهيم
١٣	الذاريات (٣٧-٣٥)	لوط
٣	الذاريات (٤٠-٣٨)	موسى
٢	الذاريات (٤٢-٤١)	هود
٣	الذاريات (٤٥-٤٣)	صالح
١	الذاريات (٤٦)	نوح
٩	القمر (١٧-٩)	نوح
٥	القمر (٢٢-١٨)	هود
١٠	القمر (٣٢-٢٣)	صالح
٨	القمر (٤٠-٣٣)	لوط
٢	القمر (٤٢-٤١)	موسى
١	الصف (٥)	موسى
١	الصف (٦)	عيسى
١	التحريم (١١)	موسى
١٦	القلم (٣٢-١٧)	أصحاب الجنة
١	الحاقة (٥)	صالح
٣	الحاقة (٨-٦)	هود
٢	الحاقة (١٠-٩)	موسى
٢٨	نوح (٢٨-١)	نوح
١١	البروج (١١-١)	أصحاب الأخدود
٣	الفجر (٨-٦)	هود
١	الفجر (٩)	صالح
٤	الفجر (١٣-١٠)	موسى
١٣٩٨		مجموع الآيات

عدد آيات القرآن الكريم ٦٢٣٦

عدد آيات القصة القرآنية ١٣٩٨

نسبة آيات القصة القرآنية = $\frac{٦٢٣٦}{١٣٩٨} \times ٢٢\% = ٦٢٣٦ / ١٣٩٨$ قرابة الربع، وهي نسبة تبيّن أهمية القصة ودورها في كتاب الله - عزّ وجلّ.

بَيْنَ لَنَا الْجُدُولُ السَّابِقُ نَسْبَةُ آيَاتِ الْقَصَّةِ الْقَرآنِيَّةِ وَهِيَ قَرَابَةُ الرَّبِيعِ ، وَهَذَا الْحِيزُ الْكَبِيرُ مِنْ حَجمِ الْقَصَّةِ مَقَارِنَةً بِحَجمِ الْقَرآنِ الْكَرِيمِ حَرِيَ أَنْ يَدْفَعَنَا لِلتَّوْقِفِ عَنْهَا وَإِعْطَائِهَا مَزِيدًا مِنَ الْدِرَاسَةِ وَالْتَّحْلِيلِ ، وَقَدْ عَدَ سَيِّدُ قَطْبِ رَحْمَةِ اللهِ - التَّصْوِيرُ الْفَتِيُّ أَدَاءُ الْقَرآنِ الْمُفْضِلَةُ ، وَعَدَ الْقَصَّةُ جَزءًا مِنْ هَذَا التَّصْوِيرِ لَكُنَّهُ تَصْوِيرٌ حَيٌّ بِمَشَاهِدِ مُتَحَركَةٍ . وَبِهَذَا يُمْكِنُ القُولُ إِنَّ الْقَصَّةَ هِيَ مِنْ أَهْمَّ أَدْوَاتِ الْقَرآنِ الْمُفْضِلَةِ فِي تَوْجِيهِ الْخُطَابِ ، وَهَذَا يَجْعَلُ الْمَرءَ يَتْسَاءَلُ لِمَاذَا تَبِينُ الْقَصَّةُ فِي خُطَابِ اللهِ - عَزَّ وَجَلَّ - لَنَا؟ وَكَيْفَ قَدَّمَ الْقَرآنُ الْكَرِيمُ أَدَاءَ الْخُطَابِ تَلَكَ؟

لماذا القصة؟

القصة أسلوب جاذب مشوق ، فيه قدرة على التخيّل تخيل المشاهد ذهنياً وبالتالي الاندماج ، وهذا الاندماج يجعل المتلقّي يتأثر وتحرك مشاعره ، ويتألق الخطاب الإلهي الموجود في القصة بأسلوب غير مباشر . فحين نعيش مع القصة القرآنية نعيش حقاً مع أحداثها وشخصياتها فنكون جزءاً منهم دون أن نشعر ، فنحب الخير ونتلهف لينتصر ، ونكره الشر ونبصر عاقبته الوخيمة .. ترسل القصة القرآنية خطاباً لمتلقّيها للإيمان والوحданية ، دون أن تأمره مباشرة بذلك ، فهي تجعله يعيش في سياق القصة ثم تنزعه منها بعد انتهاءها ، تاركة له القرار بالاختيار ، فأبطال القصة قد أخذوا فرصتهم ، والآن تأتي فرصتك أنت لاختار.

إنَّ الْقَصَّةَ دُعْوَةٌ لِلتَّأْمِلِ وَإِعْمَالِ الْعُقْلِ لِذَلِكَ قَدْ تَسْتَهِلُ أَوْ تَخْتَمُ بِتَلَكَ الدُّعْوَةِ . وَهَذَا مَا يَجْعَلُ النَّصَّ الْقَرآنِيَّ مُفْتَوحاً لِلتَّأْمِلِ ، وَإِنْ اشْتَرَكَتْ أَغْلُبُ الْقَصَصِ بِخُطَابِ ثَابِتٍ هُوَ خُطَابُ التَّوْحِيدِ إِلَّا أَنَّ كُلَّ قَصَّةٍ كَانَ لَهَا طَابِعُهَا الْخَاصُّ وَرَوْيَتِهَا الْمُتَفَرِّدةُ .

إنّ القصة القرآنية هي جزء من كلام الله المعجز ،ذلك الإعجاز البصري الذي رضخت أمامه فصاحة العرب ،ولهذا لم تكن القصة القرآنية كغيرها من القصص ؛ لأنها تحمل بين طياتها إعجازاً بسيطًا ،إعجازاً في لفظها ونظمها وطريقة عرضها .

لقد قدّم لنا القرآن الكريم أحسن القصص وهذا الحسن يظهر في تفردّها وتميّزها عن غيرها من القصص ،فبناء القصة القرآنية وطريقة تقديمها متفردّ فهي في أغلبها مشاهد من القصة موزعة على عدد من السور ،يحمل كل مشهد حادثة أو مجموعة من حوادث القصة تنسجم مع سياق السورة التي وردت فيها . وهذا ما أشار إليه بعض الدارسين ،وقد خصّت الباحثة بثينة ملکاوي دراسة خاصة في هذا الموضوع تحت عنوان (القصة القرآنية ومتانتها للسياق القرآني) (وهي رسالة ماجستير توصلت فيها الباحثة إلى النتائج الآتية: "تمتاز القصة القرآنية بتعدد ورودها في عدة سور ، لكنها ترد في كل مرة بنظم وأسلوب مختلفين ،فتذكر القصة في كل سورة ما يتلاءم مع موضوعها ،وينسجم مع سياق الآيات التي ذكرت فيها ، وكل قصّة لها موضوعها الخاص المتناسق مع موضوع سوريتها ، وهي جزء متّم لبناء السورة ،ولهذا اختلفت الحالات التي تعرض منها في كلّ موضوع ،مع المشاركة في بعض المقدّمات والتعقيبات بقدر الاشتراك في الأهداف . فهناك عناصر في القصة تذكر في كلّ مرة ترد فيها ،تشكل في مجموعة جسم القصة .

وفي كلّ مرة ترد فيها القصة في السور المختلفة يعبر عنها بالفاظ مختلفة وقد يكون الاختلاف بتغيير لفظة أو زيادة حرف أو نقصانه ،أو تقديم أو تأخير ... الخ، وهذا التقى في التعبير عن أحداث القصة لزيادة معنى أو حدث جديد قد لا يذكر في الحالات الأخرى ،يتلاءم والسياق الذي ذكرت فيه ،وفيه من البلاغة ما يدل على رفعة شأن المتكلّم .^(١)

إنّ التفرد في بناء القصة القرآنية وعرضها لا بدّ من أنه ينسحب على عناصرها ،وكان اختياري لعنصر المكان في هذه الدراسة ليكون هو محور البحث للأسباب التي ذكرتها في المقدمة ،وسأعرض أهم ما قيل عن المكان في القصة القرآنية عند بعض الباحثين لمناقشة هذه الآراء ومحاولة التوصل لما يؤيد أو ينفي هذه الآراء من خلال هذه الدراسة.

^(١) (بثينة ملکاوي، القصة القرآنية ومتانتها للسياق القرآني، ص ١٥٥)

آراء الدارسين حول المكان في القصة القرآنية

لم تقل عناصر القصة القرآنية حظاً واسعاً من الدراسة، على الرغم من الدراسات الكثيرة التي تناولت القصة القرآنية، خاصة عنصر المكان، الذي نظر إليه على أنه لم يُحفل به في القصة القرآنية، وسأورد أهم الدراسات التي أشارت إلى المكان، مبينة آراء دارسيها على الرغم من أنَّ هذه الآراء لم تنتج بناءً على دراسة مختصة بالمكان بل كان الحديث عنها عارضاً ومن هذه الدراسات:

١ - "سيكولوجية القصة في القرآن"، للتهامي نفرة ، وقد جاء في هذه الدراسة التي هي بالأصل دراسة دكتوارية من جامعة الجزائر: "ومن سمات القصص القرآني أنَّ العناصر المألوفة للقصة من أحداث وأشخاص وحوار وارتباط مكاني وترتيب زماني وعقدة...لا نجد لها مجتمعة في القصة القرآنية ، ولا موزعة توزيعاً يجعل لكل منها دوراً يختلَّ بانعدامه توازن القصة ، لأنَّ المقاصد التي يوحى بها السياق هي التي توجَّه أسلوب العرض ، وتحكم في ترتيب الأحداث ، وتسلط الأضواء على العنصر المراد إبرازه ... أمَّا المكان والزمان – وإن كانا عنصرين هامين في القصة الكلاسيكية – فإنَّهما صورة من الواقع ، وتشخيصها للأحداث وفي جو البيئة التي جرت فيها ، وكل ما يتصل بهذه البيئة من ظروف وعادات لها تأثيرها في أخلاق الأشخاص وتصرفاتهم – فإنَّ القصة القرآنية لا يعنيها ذكر المكان إلا ما جعلت منه جملة الأحداث الهامة مسرحاً لها ، كمصدر في قصة يوسف مع امرأة العزيز ومع فرعون الملك ، وفي غياب السجن ، وعلى عرش الحكم."^(١)

وفي موضع آخر يقول عن المكان في القصة:

"وأمَّا الحدث فكثيراً ما يعرض مجرداً عن ذكر الزمان والمكان اللذين وقع فيهما ، ولكن قد يكون لهما أو لأحدهما مجال في سير الحادثة ، فيتعلق الغرض بذكره ... "ويذكر مثلاً واحداً على ذلك وهو الوادي في قصة موسى - عليه السلام - ، فقد ذُكر لأنَّ له شأنًا كبيراً.^(٢)

^(١) التهامي نفرة، سيكولوجية القصة في القرآن الكريم، ص ٩٧

^(٢) المرجع نفسه، ص ٣٤٨

وتوافق الباحثة القول في أن المكان في معظم قصص القرآن الكريم غير محدد جغرافيا ،ولكنها لا تتفق مع الرأي القائل بأن القصة القرآنية لا تلتفت للمكان ، وأن لا دور له في أحداث القصة إلا في ما ندر ؛ لأنه ينبغي التفريق بين تحديد المكان الجغرافي أو التاريخي وبين المكان بوصفه عنصرا فنيا في بناء القصة يرتبط مع العناصر الأخرى، وهذا ما تسعى لتقديمه هذه الدراسة.

٢ - "دراسة نصية أدبية في القصة القرآنية" ،سليمان الطراونة وجاء فيها: "...فهذه دراسة منذ بدايتها تقرر أن القصة القرآنية لون مختلف من أساليب القص ، فهي ليست ضربا من الأقصوصة ، أو القصة القصيرة ، أو الحكاية بالمعنى المتعارف عليه بين النقاد ورجال الأدب ، فهي لا تحمل في كلياتها كل العناصر الفنية التي يدأب لفيف من النقاد المحدثين على اشتراطها في القصة الفنية الحديثة ، وهذا التقرير لا ينقص من قدر القصة القرآنية شيئا ، ولكنه يؤكّد مكانها بلا لبس أو موارة أو تبرير ، القصة القرآنية أغنى النصوص عنه ... وهذا لا يعني أن القصة القرآنية إذا نظر إلى نسيجها الداخلي خلو من العناصر الفنية ، وبعض القصص القرآنية إن لم تتفق في جملتها مع ما تواضع عليه جل النقاد ، فإنّ أجزاءها تملك من الشرائط الفنية ما يبرر استعمال نهج أدبية الأدب في تحليلها...." أما عن المكان فيرى : "المكان هو بيئة الحدث المادية في أي قصة ، لكنه في قصص القرآن يغفل أحيانا كثيرة ، إذ هو أقل أهمية حتى من الزمان ، فالقصص القرآني لا يعيّن المكان غالبا ، ولا يذكره ، إلا إذا كان له دور خاص يؤثّر في تبلور الحدث أو مضمونه ، فآدم وحواء كانوا في الجنة لكن أين ؟ ثم هبطا منها لكن إلى أين ؟"^(١)

لا شك أن طبيعة القصة القرآنية تختلف عن القصة الأدبية ؛ لأنها كلام الله المعجز في بيانه وفي نظمه ، ولكن لماذا ينظر إليها من الزاوية ذاتها التي تقاس بها القصة الأدبية البشرية؟ إن بناء القصة القرآنية ينبغي أن يؤخذ في عين الاعتبار عند دراستها فيجب دراسة أجزاء القصة كاملة لتحليل عناصرها، ثم ألا يكفي مثلا في قصة آدم - عليه السلام ذكر- الجنة مكانا للحدث يؤثّر فيه ويحمل فكرة القصة؟

^(١) سليمان الطراونة، دراسة نصية أدبية في القصة القرآنية، ص ٢٠

ويتابع سليمان الطراونة حديثه عن المكان في موضع آخر فيقول : " فالمكان في القصة القرآنية غالبا غير محدد ، ويأتي عارضا ، ولا التأم متصل بينه وبين أحداث القصة إلا في قصة يوسف ، وقصة موسى في سورة القصص ، وأيضا قصة مريم ، فالتعريم هو الغالب في مكان القصة القرآنية ، وعدم التحديد مقصود ، لأنّ القصة القرآنية لم يقصد منها التاريخ وإنما العزة أولا وأخيرا إفالزمان والمكان كلاهما غير محدد في القصة القرآنية مما يشرع الباب على مصراعيه لقراءات متعددة ، ويشرع شبكة النص لكثير من التحليلات والتركيبيات المتتساوية غير المتدايرة " ^(١)

والحكم السابق ينبغي أن يصدر عن دراسة مستفيضة لكل القصص القرآني بكل الأماكن التي ذكرت فيها ، ولا يكفي استثناء قصة يوسف ، وموسى في سورة القصص ، وقصة مريم ، فإن استثنى قصتي موسى ويوسف لتحديد المكان الجغرافي فيما ، فلماذا استثنى قصة مريم مع أنها لم تحدد تحديدا جغرافيا؟

٣- "البناء الفني في القصة القرآنية/ قصة يوسف نموذجا" ، لأحمد عطا حسن ، ويرى أن المكان يقسم في القصة من حيث المدلول إلى قسمين ^(٢) :

أ - المكان بالمعنى العام ، ويقصد به ؛ البيئة التي تغلف الأحداث .

ب - المكان بالمعنى الخاص ، ويقصد به : حيز وقوع الحدث . " أمّا المكان بالمعنى الخاص ، فيأتي بالمرتبة الثانية من حيث الأهمية بعد عنصر الزمان ، وقد يستغنى عنه في القصة القرآنية أحيانا ... أمّا المكان بالمعنى العام ، فقد أولته القصة القرآنية اهتماما بالغا باعتباره أهم وسائل توصيل الهدف من القصة القرآنية . "

وقد تعامل النص القرآني مع المكان بطرقتين ؛ الأولى: ذكر المكان إذا كان هناك ضرورة ولا غنى عنه لذكره ، وذلك لارتباط الحدث بناحية تاريخية فيذكر لضرورة التوثيق لهذا الحدث . وأمّا الطريقة الثانية فهي إغفال المكان وعدم ذكره . " والحق إن إبهام كثير من الأماكن في القصة القرآنية وعدم تحديدها جغرافيا يزيد من قيمتها ، ويوسع من دائرة دلالتها ؛ وذلك لأنّ عدم ذكر الأسماء يوحى

^(١) المرجع السابق، ص ٢٦٨

^(٢) أحمد عطا حسن، البناء الفني في القصة القرآنية، ص ١٦٩

بعنوان ذلك الحدث، وكون دلالته خالدة ثابتة ليس لها أي ارتباط بالظرف المكاني أو الزماني الذي وقع فيه." ويشهد على ذلك بقصة أصحاب الكهف التي خلت من أي إشارة إلى مكان وقوعها.

ويبدو أنّ هناك شيئاً من التناقض في كلام الباحث، فما المكان الفني الذي يقصده الباحث الذي أولته القصة القرآنية- على حد قوله- اهتماماً باللغة؟ هل نحاكم المكان في القصة فنياً أم تاريخياً وجغرافياً؟

ويتابع الباحث : "... وقد تكون الأحداث صالحة أن تحدث في أي زمان وأي مكان ... وهذا يكون إبهام المكان مفيدا ؛ فلو كان الحدث متعلقا مثلا بقيمة الإيمان بالله في بيئة ظالمة كافرة فهو حدث يصلح أن ينطبق على أي مكان وفي أي زمان ، وهذا يكون رفع الإبهام عن المكان وتحديده غير مفيد ولا قيمة له ، ويكون إبهام المكان أولى ، ويكون مقصودا وموظفا لخدمة قضايا القصة القرآنية .. أمّا عندما يكون تحديد المكان هاما في صياغة الحدث وتحديد دلالته ، نجد القرآن الكريم حريصا على عدم إيهامه ، وفي قصة يوسف .. نجد هذا النوع من التحديد وعدم الإيهام ، سواء كان المكان عاما مثل(مصر) أو خاصا مثل: القصر ، أو حجرة المراودة ." (١)

هناك تناقض آخر فقد ذكر أن القصة القرآنية قد أولت ذكر المكان بمعنى العام (أي البيئة) اهتماماً كبيراً، ثم يعود ويقول إنَّ أغلب أماكن القصص القرآني لم تحدد جغرافياً لتظلَّ القصة صالحة لأي مكان وزمان، فإلى أي الرأيين نحتمِّ؟ كما أنَّ المتتبع لقصص القرآن الكريم يجد أنَّ المكان بمعنى الخاص -على حد تسميته- قد غلب في القصص القرآني، كالقصر والكهف والبحر والصرح والسفينة والمحراب والجبل.... الخ

٤- "الحوار ورسم الشخصية في القصص القرآني"، لعبد المرضى زكريا ، وأشار إلى أنَّ القصة القرآنية لم تقتصر على الحديث والشخصية والحوار - وإن كانت هي الأبرز إذ لا تكاد تخلو قصة منها - بل اشتملت على العناصر الأخرى كالزمان والمكان والصراع لكنها جاءت موزعة وفقاً لأغراض القصة القرآنية في كل موقف تذكر فيه باستثناء قصة يوسف عليه السلام - التي اجتمعت فيها كل عناصر القصة في بناء واحد .ويرى الباحث أنَّ للزمان والمكان أثرهما الواضح في سير الأحداث في

١٧١ (') المرجع السايبق، ص

القصة القرآنية ، و يلاحظ أنّ ذكر العنصر المكاني في القصة القرآنية كان يتم إذا استدعاه الموقف واقتضاه الحال، "إذا تعلق الغرض من ذكره في القصة ذكر وإذا لم يكن في القصة ما يستدعي ذكره لم يذكر". فالمكان في القصص القرآني يذكر في أغلب الأحيان بلا حدود ولا قيود ، وقد يذكر في القليل من قصص القرآن تحديد لاسم المكان كمصر ومدين، ويكون لذلك مغزاه العميق .^(١)

ويرد عبد المرضي زكريا على محمد أحمد خلف الله الذي يشير إلى إهمال القرآن لعنصر المكان والمكان لأنّه ليس كتاب تاريخ فيقول: "يتضح للباحث أنّ القرآن الكريم في قصصه لم يهمل مقومات التاريخ كما قال الدكتور خلف الله ، ولكن القرآن في قصصه قد يذكر الزمان والمكان إذا استدعا الموقف واقتضى الحال ذلك وفقاً للهدف المتواتي من القصة القرآنية ، ورأيت كذلك أن ذكر المكان في القصة القرآنية له مغزاه العميق و أثره الواضح في النفس البشرية ".^(٢)

٥- "القصص القرآني منطوقه ومفهومه" ،لعبد الكريم الخطيب، حيث جاء في هذه الدراسة أنّ المكان أشبه بالوعاء للأحداث إلا أنّه يجيء في منزلة بعيدة عن الزمان من حيث القدرة على التأثير في الأحداث ، "ذلك أنّ الزمان يؤثّر في الحدث تأثيراً مباشراً ، سواء أظهر الزمن ظهور عيان على مسرح الحدث الذي ترويه القصة ، أم لم يجر له ذكر فيه .. فإنه دائماً منظور إليه في كلّ تطور ، وفي كلّ انتقال بالحدث من حال إلى حال .. لأنّ أيّاً من ذلك لا يتم إلا في زمن.. أما المكان فليس له هذا الأثر البعيد في صنع الحدث ، وفي تطوره، فقد يعيش الحدث ويتتطور ، وبينما في مكان لا يتتحول عنه ، وقد لا يكون في استصحاب المكان في رواية الأحداث أيّ أثر إلا إذا كان بهذا المكان طبيعة خاصة يتأثر بها الحدث ، ولا يقع له هذا التأثير في مكان آخر ..^(٣)

والقرآن الكريم ينظر إلى المكان في قصصه على هذا الاعتبار أو قريب منه .. فهو لا يلتفت إلى المكان ، ولا يجري له ذكر.. إلا إذا كان للمكان وضع خاص يؤثّر في سير الحدث ، أو يبرز ملامحه ، أو يقيم شواهد العبرة والعطّة منه -ويضرب مثلاً على ذلك بحادثة الإسراء والمعراج التي كان ذكر الأماكن وهي المسجد الحرام والمسجد الأقصى له الدور الأساسي في بيان هذه المعجزة-أما إذا لم يكن

^(١) عبد المرضي زكريا، الحوار ورسم الشخصية في القرآن الكريم، ص ١٢٧

^(٢) المرجع نفسه، ص ١٣٢

^(٣) عبد الكريم الخطيب، القصص القرآني منطوقه ومفهومه، ص ٩١

هذه الخاصية التي تجعل له وضعًا متردداً بين الأمكنة بحيث تهبّ منه على الحدث أنسام معطرة أو أنفاس محترقة ، فإنَّ القرآن لا يلتقتُ إليه ولا يجعل له ذكراً . ويضرب مثلاً على ذلك بقصة أصحاب الكهف فيقول: "ففي قصبة أصحاب الكهف مثلاً .. لم يذكر القرآن الكريم شيئاً عن المكان الذي جرت أحداث القصبة على مسرحه فلم يشر إلى البلد أو الإقليم الذي ينتمي إليه هؤلاء الفتية الذين أتوا إلى الكهف... وهكذا نرى المكان يشارك في تحديد أبعاد الأحداث مشاركة تعين على تسمية الحدث وفي تحريكه ، ولكن في تناقض وتباطؤ" . ويتابع حديثه عن المكان : "هذا، ويلاحظ أنَّ المكان الذي نعنيه في القصص القرآني - مكان مجرد - ولا حدود أو قيود .. وذلك في الأعم الأغلب من الأمكنة التي ذكرها القرآن في قصصه" .^(١)

ويمكن مناقشة ما تفضل به الدكتور عبد الكريم الخطيب على النحو الآتي:

أولاً: كون المكان بصفة عامة في منزلة بعيدة عن الزمان من حيث القدرة على التأثير في الأحداث أمر جدلٍ خلافيٍ بين الدارسين أنفسهم ، فهناك من قدم الزمان وهناك من سأقدم بعض هذه الآراء التي دارت حول هذين العنصرين.

إنَّ اقتران المكان بالزمان هو اقتران تاريخيٍ ففيه بصمات الفعل الإنساني ، وهو فعل الحضارة التي يصوغها العلم والفن ، فكل زمان مكانه ، وكل مكان زمانه ، يحضر المكان في وقت مخصوص ، ويحضر الزمان في مكان مخصوص ، فلا استقلال لأحدٍهما عن الآخر ، ولا معنى لوجود زمان دون مكان ولا لمكان دون زمان ، ولا معنى لهما دون الإنسان دون الوعي الفكري .^(٢)

وبهذا المفهوم يتحدد الزمان والمكان الفنيان عن غيرهما فيما مرتبطان بالإنسان الذي يتحرك ويدور ويفعل وهو في الوقت نفسه عنده الرؤى والأفكار التي تتجسد في مكان وزمان ما.

إن علاقات المكان والزمان تتداخل بصورة جدلية لا تنتهي من التأثير والتاثير ، فهما وجهان لعمله واحدة ، وجه الكون الذي يكتمل بهما ، فالمكان يؤثر في الزمان ويفرض عليه حضوره فيه ، وأثر الزمان في المكان واضح على مر العصور ، فقد يدمر الزمان المكان ، وقد يؤدي إلى تغييرات جذرية

^(١) المرجع السابق، ص ٩٤
^(٢) محمد أبو زريق / المكان في الفن / ص ١٤ - ص ١٥

فيه^(١). وقد تناولت هذا الجانب أثناء حديثي عن علاقة الزمان بالمكان في القصة القرآنية وكيف يؤثر كل منها بالآخر.

إنّ شدة ارتباط المكان بالزمان جعل دارسي المكان يعدون الزمان بعدها رابعاً له، فالجمال الفني يعبر عن نسبية الزمان والمكان في علاقة جدلية، إنّ كل عمل فني مكاني لا يحقق الزمن يكون عملاً ناقصاً، لأنّه لا يوجد الإحساس بالمكان دون قرينة زمانية^(٢).

والمكان إنما هو تعبير عن سطوة الزمان وتطوره، فأهم أداة للتعبير عن الزمان هي المكان^(٣)؛ لأن المكان حاوٍ للزمن مستوعب له فالمكان في الفن زمن تجمد، أمّا الوقت فمكان يسلي باستمرار^(٤) وهو الصورة التي تجعل الدارس يمعن النظر في المكان وصورته بمرور الزمن عليه، ثمّ يمعن في الزمان ويرى الأماكن التي تتنقل بينها عبر تحركه المستمر الذي لا يتوقف .

و"ربما كان تقسيم الفنون إلى زمرة مكانية وأخرى زمانية ضرباً من ضروب العسف الدرسي، والافتراء على الواقع عبر إخضاعه إلى الانضواء تحت ما تفرضه التصورات المسبقة فالفنون جميعاً تحتوي مقادير متباعدة من المكان والزمان، وإن اختفت الكمّية المكونة لكل من العنصرين، فاللوحة في فن الرسم على سبيل المثال، تكاد تكون تجسيداً مثالياً لفن المكاني باعتبارها إنشاء في المساحة، ووجوداً متحيزاً في المكان، يستحيل تصورها خارج المساحة المؤطرة تأثيراً حسياً يتخد شكلاً هندسياً ... فيها قدر من الزمنية، تاريخ رسم اللوحة، الفترة التي تمثلها اللوحة^(٥)" وهذا القول يوحد بين العنصرين ويرفض فصلهما إذ لا قيمة لأحدهما دون الآخر فالبناء الفني يزداد

^(١) فاطمة البعول/ المكان في شعر حيدر محمود / ص ٨

^(٢) المرجع نفسه / ص ٩٣ - ١٣٧

^(٣) غسان عبد الخالق/ الزمن، المكان، النص/ ص ١١١

^(٤) محمد أبو زريق/ المكان في الفن / ص ١٧

^(٥) صلاح صالح/ قضايا المكان الروائي / ص ١٩

جمالاً باتصال عناصره لا بانفصالها وإن تفرد كلّ عنصر بملامح خاصة به تزيد من قيمته في ذلك البناء.

فالمكان إحالة في الزمان يمتد به ومعه، منذ بدء الخلق إلى نهايته، وبكل الأماكن والفضاءات لا يوجد الزمان إلا في صورتها^(١).

وفي القص يرى البعض أن الزمان هو المحور الأساسي الذي لا يوجد القص دونه، فلو انتفت الزمانية لانتفى القص، ولما استطعنا أن نستخرج قصة من النص^(٢) لكنّ الزمان لا يدرك إلا عن طريق تحوله في المكان، لذلك يستخدم المكان لقياس الزمان في الحياة المعيشة^(٣).

إنّ الزمان والمكان في أي عمل فني مترابطان ، لكن الصورة التي يظهر عليها هذا الترابط قد تختلف من عمل لآخر، كما أن هذه العلاقة قد تزيد في بعض الأعمال وقد تخبو في أعمال أخرى، وقد يهيمن أحدهما على الآخر، فيكون هو المحور الأساس الذي يرتكز عليه العمل الفني.

وكلاهما – أي الزمان والمكان، له دور في تنظيم أحداث العمل القصصي، فعقد الموضوع تعتقد وتحل في "المكان"، ويمكن القول إنّ الأهمية الأساسية في صياغة الموضوع تعود "للأماكن"، حيث يمكن "للأماكن" أن يندرج الواحد فيها في الآخر وأن تتشابك وتتبادل وتنت熹 وتنتعاش وتنتعاقب أو حتى يمكن أن توجد في علاقات أعقد^(٤).

ويمكن أن نكشف عن هذه العلاقات بدراسة عنصر المكان في القصة القرآنية وأثره في الزمان أو العكس ، وأثر ذلك في العبرة التي تحملها القصة القرآنية.

إنّ معنى الفضاء يصعب فصله عن معنى الزمان، لأنهما معاً يشكلان حوضاً دلائياً، ومن ثم، فإن كل اختراق للحقل المعنى لن يتم إلا بالمرور عبر فهم وتحليل الفضاء والزمان في تداخلهما الجوهرى

(١) محمد أبو زريق / المكان في الفن / ص ١٥

(٢) صبري حافظ / فصول / مج ٢ / ع ١٩٨٤ / ص ٦٧ – الحادثة والتجمسي المكاني.

(٣) عبد الرحيم الكردي / السرد في الرواية / ص ١٩٨

(٤) باختين، أشكال الزمان والمكان، ص ٢٢٩ – ص ٢٣٢

العميق من حيث إنهم المركز المستقطب لكل العناصر السردية والحكائية في الخطاب الروائي^(١) فهما – الزمان والمكان – لا يقيمان تجادلها كطرفين متضادين بل يقيمان علاقة التحام متبادل.^(٢)

و"المكان والزمان هما مكونا الفضاء الذي تشكل فيه الوجود كله، ولقد بدأت الحياة بإيجاد مكان تتشكل في زمن^(٣) ، قال تعالى : ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سَتَةِ أَيَّامٍ ثُمَّ أَسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي الْأَيَّلَ الْتَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَيْثُ شَاءَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ إِلَّا لَهُ الْحَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾^(٤) (الأعراف: ٥) إن العلاقة بين المكان والزمان، علاقة توحيدية، ويستدل بكل منهما على الآخر، فليس هناك مفهوم للزمن دون الحدث وليس هناك مفهوم للحدث دون المكان، ولا يمكن تصور زمان دون الإحساس بما يجري فيه، ولا يمكن تصور مكان دون إدراك الأحداث، وبالتالي ليس هناك مفهوم للزمان دون المكان فكلاهما مستلزم لوجود الآخر^(٤) . وهذا ما تحاول الباحثة كشفه من خلال دراسة عنصر المكان مجتمعاً ومنفصلاً عن العناصر الأخرى ومن بينها الزمان.

ثانياً: كون المكان لا يؤثر في الحدث تأثيراً بعيداً لأن كثيراً من الأحداث تتم في مكان واحد لا تتحول عنه ، فهذا لا ينقص من دور المكان في صنع الحدث بل هذا في حد ذاته يحمل دلالات يكشف عنها التعمق في دراسة الحدث نموه وتطوره في مكان دون سواه، وهذا ما حاولت تقديمها في الفصل الأول فاختيار مكان ما لتجري فيه أحداث معينة له دلالة وأثر ودور في تجسيد رؤية القصة .

ثالثاً- كون القرآن لا يلتفت إلى المكان في قصصه إلا إذا كان له دور في سير الحدث وإقامة العبرة والعظة كحادثة الإسراء والمعراج،رأي بحاجة إلى التمعن فيه أكثر، فالقرآن لا يصرّح بأثر المكان في الشخصية والحدث بل يترك للمتلقي - غالباً- المجال لإعمال العقل والتمعن ، فلم يذكر القرآن لماذا

(١) حسن نجمي/ شعرية القصاء / ص ٨٠

(٢) صلاح صالح/ قضايا المكان الروائي/ ص ٧٣

(٣) عبد الحميد المحاذين/ جدلية المكان والزمان والإنسان/ ص ١٩٥

(٤) المرجع نفسه / ص ١٣٥

السفينة والمحراب والسجن والجب والنادي والمدينة والقرية والأرض والصرح والعرش والبيت
.... الخ بل ترك لنا لذة الكشف وتنزق الجمال واستنتاج الرؤية .

رابعا-المثال الذي ذكره في عدم تحديد الإقليم الذي عاش فيه أصحاب الكهف ،قد لا يصلح للتمثيل الفني على المكان ،فالمكان الذي خدم الحدث فنيا هو الكهف وقد ذكر، أمّا عدم التحديد الجغرافي فهو لا يؤثّر في بناء العمل الفني إلا إذا كان ذكره له دلالة مخصوصة في بناء القصة كمدينة سبا التي ارتبطت بالجمال وكان الحدث الذي جرى مغيّرا لصورة تلك المدينة الجميلة.

وما سبق يقودنا إلى محاولة الإجابة عن السؤال الآتي:
ما الفرق بين المكان الطبيعي والمكان الفني حتى ندرس الأماكن في القصة القرآنية فنيا؟

* المكان الطبيعي والمكان الفني

إن المكان عنصر لازم لتشكيل النص القصصي الفني، لكنه يظل مكاناً مجرداً ساكناً لا أهمية له إلا بتشابكه في علاقات مع سائر عناصر العمل الفني، فكل قصة لا بد لها من أحداث وهذه الأحداث تحتاج إلى زمان ومكان تتجسد فيه وتنطلق منه ولا يتم ذلك كلها إلا بوجود شخصيات تنمو معها الأحداث فيتشكل معها المكان^(١).

إذن فالمكان الفني عنصر فعال في النص الفني وهو مؤثر ومتأثر بباقي العناصر فيه، ولا يمكن وجودها منعزلة عنه.

^(١) خالد حسين / المكان في الرواية الجديدة/ ص ٤٧

والفرق كبير بين الأمكانة الواقعية أو الطبيعية والأمكانة الفنية، فالمكان الطبيعي هو تجربة معيشة، أما المكان في النص الفني فهو طبيعة خاصة، لأنه ينتقل من مادة خام، ساكنة، إلى مادة متفاعلة، ومن عالم نحيا ونعيش فيه بهدوء، ودعة، إلى وعي جمالي بهذه الأشياء التي حولنا وإلى اكتشاف دورها ودلالتها ووظائفها، عبر اللغة والألوان والصور^(١).

إن المكان في النص الفني يتشكل عن طريق الكلمات وهو يكتسب دلالات مختلفة عبر ممارسات الإنسان عليه^(٢) "لذا فإن العلامات الجغرافية والطبوغرافية في النص الفني، ليست بذى أهمية كبيرة؛ لأن وظيفتها تتحصر في تحديد المكان فحسب، وإنما الأمر المهم بخصوص المكان هو تعريضه لآليات الانزياح والانكسار (Refraction) وتلك استراتيجية التناص في تقدير المكان الواقعي/ الثقافي ، وامتصاصه، وإنتاجه بصورة مغایرة، حتى تتحقق الوظيفة الشعرية/ الجمالية (poetic function) التي بها يظهر المكان في خطاب النص بنكهة خاصة، ومتمنية كنتاج مركب لتشابك الأبعاد البنوية، الدلالية، الرمزية، والإيديولوجية، فضلاً عن البعد الجغرافي الذي يعمل على تنظيم خيال القارئ وترتيب معطيات تصوره"^(٣)

فالمكان الفني هو المكان الذي له دور في أحداث القصة وأثرفي شخصياتها سواء أكان مكاناً جغرافياً(مصر ، مدين...) أم طبيعياً(بحر، سماء، جبل...) أم صناعياً(بيت، صرح، محراب، عرش،....).

وحضور المكان في حياة الإنسان لا يتوقف على المادي الحسي، بل يتغلغل عميقاً فيه حافراً أحاديد عميقة فيه ليصير جزءاً منها، وذلك لأن المكان هو بمثابة الواقع الذي يحتضن الوجود الإنساني، ويمكن أن يضم الكثير من التصورات والشحنات الجمالية فالمكان قابل لملء المسافة الكبيرة القائمة بين أصغر مساحة يتصورها الإنسان وأقصى ما يمكن أن يكون عليه الكون الممتد^(٤).

^(١) المرجع السابق / ص ٥٨

^(٢) مها حسن / المكان في الرواية الفلسطينية / ص ٥٨

^(٣) خالد حسين / المكان في الرواية الجديدة / ص ٥٩

^(٤) فادي سقا/ جماليات المكان في روايات هاني الراهب/ ص ٢٥

ويمكن أن نقول إن المكان الفني "منفصل عن المكان الطبيعي أكثر مما هو متصل معه، واتصاله مقتصر على علاقة الإحالة التخييلية التي يقتضي منها بطرق شتى محققاً تموضعه الخاص في اللوحة أو التمثال أو الرواية. قد يحضر إلى الذهن العلاقة بين المكان الطبيعي والمكان الفني المحاكي له أو المنبثق عنه وفق أساليب متعددة...."^(١) لكن يظل المكان الفني هو المكان القائم على الانتقاء والخيال وهو معتمد على اللغة والتجارب والموافق ليتشكل مكاناً فنياً مفعماً بالجمال^(٢).

إن المكان الفني مرتبط بالدرجة الأولى بحركة الإنسان و فعله، فهو يحمل المواقف والعواطف والانفعالات الإنسانية وليس مجرد بناء أجوف يحتوي جدراناً وغرفأً وسقفاً.

وجود المكان معزولاً عن عناصر النص الفني يجعله واضح الجمود والثبات. وبدخوله وانضمامه لعناصر العمل الفني يصبح مهماً وفاعلاً وحايلاً لدلالة فكرية ونفسية وجمالية لم تكن عنده من قبل.

"إن الفعل اليومي لحياة الكائن مثلاً، وهو يمارس حضوره، داخل البيت أو الدائرة أو الشارع، لا يكون ذا معنى أي "فعلاً حسيًا إلا من خلال تعاقب وتردد الأمكنة في بنية كلية شاملة؛ لأن الوعي بالمكان لا يتم إلا من خلال تحويل الصورة المادية الحسية إلى صورة حسية باللغة ... فجمالية المكان تكمن بالتفاعل بينه وبين الرؤيا والكون"^(٣).

وبهذا الفهم يرتبط المكان الفني باللغة. فهو كائن صامت يتحدث من خلالها، فاللغة هي الوسيط الذي تنقل المكان من سباته إلى الكينونة والوجود الفني^(٤).

ومما سبق نخلص إلى أن المكان بشكله وبنائه (بيت، سجن، بحر،...) هو المكان الذي نراه محايضاً في الوجود مع ما حوله، لكن إذا أصبح هذا المكان جزءاً من العمل الفني أو النص اللغوي الفني يوصف أدق، فإنه سيأخذ دوراً مغایراً فقد يصبح المكان أحد الأبطال في العمل الفني كأي من شخصياته وقد يحمل دوراً ثانياً وفق رؤية خالق العمل الإبداعي، فالمكان خارج العمل الفني هو

^(١) صلاح صالح/ قضايا المكان الروائي/ ص ١٨

^(٢) فاطمة البعول/ المكان في شعر حيدر محمود/ ص ٩ _ ص ١٠

^(٣) ياسين النصير / اشكالية المكان / ص ٣٩٥

^(٤) خالد حسين/ المكان في الرواية / ص ٥٩

المكان الذي نراه، ونسمع عنه، ونعيش فيه، والمكان داخل العمل الفني هو ذات المكان لكننا نراه الآن بن فعل ويتقاعد، يؤثر ويتأثر، يحمل فكراً غير محيد.

فنحن لا ننظر إلى المكان في العمل الفني معزولاً عن السياقات الأخرى فيه، نحن نراه مرتبطة بالشخصيات والزمان واللغة والفنون والأسلوب فنتذوق جماله الفني. ولكن ما أهمية المكان في العمل الفني؟

أهمية المكان في العمل الفني

حاول كثير من الدارسين الكشف عن أهمية المكان ودوره في العمل الفني، وقد تعددت الآراء حول المكان وأهميته.

"إن المكان هو الواقع المادي الذي نعايشه، ونتعامل معه أكثر من غيره من عناصر الطبيعة المادية من حولنا، فهو الرحم الذي احتوى الإنسان والحضن الذي رعاه،...، إنه مساحة البوح التي يلجأ إليها الإنسان عند الخوف والحزن فيحتويه... ويؤويه وهو بوابته الأولى على العالم فانتقاله من مكان إلى آخر عبر رحلة الحياة إنما ينتقل من حال إلى أخرى ومن واقع اجتماعي واقتصادي وحتى نفسي وفكري إلى آخر، فالمكان كائن فيما قبل أن نكون فيه"^(١). فالمكان له حضوره الحي عند الإنسان قبل ولوجه في عالم الفن، يرتبط به منذ وجوده وبعد وفاته.

والمكان ليس طارئاً في حياة الكائن الإنساني، إنه الفسحة/ الحيز الذي يحتضن عمليات التفاعل بين "الأننا والعالم، ومن خلاله نتكلم وعبره نرى العالم ونحكم على الآخر" إنه الشيفرة (code) التي تحصن بها في مواجهة الآخر، ومن هنا يفترض تفكيكها وتأويلها، لكي يحقق التواصل مع الآخر ويتواصل _ هو _ في الوقت ذاته معنا، لأننا (الآخر) بالنسبة إليه. دون معرفة بأسرار المكان وفلسفته التي تتشكل بفعل الكينونة والتاريخ والثقافة يصعب التواصل، بل يقع المرء في كثير من

^(١) كرم طباجة/ جماليات المكان في القصة العربية/ ص ١٣

الفجوات والانقطاعات الدلالية والإدراكية، نتيجة الجهل بفلسفة المكان...^(١) فالمكان له دلالاته الخاصة، وتتنوع هذه الدلالات في العلاقات التي تربطنا مع المكان، ويكتسب المكان حضوراً قوياً بتفاعله مع ما حوله، وبتفاعل الإنسان مع محيطه من خلال المكان، و الفلسفة التي قد يحملها المكان بين طياته .

وهذه المكانة التي يحتلها المكان من الإنسان جعلته منشغلًا فيه في واقعه وخياله وفي علمه وفنه، وفي أدبه وإبداعه، لذا فالإنسان يتعامل مع المكان ضمن اتجاهين اتجاه يراه ويلمسه ويعاشه ماديًّا وحسيًّا، واتجاه آخر ذهني فني مكتسب من الاتجاه الأول ولكن ضمن معطيات جديدة.

إنَّ للمكان دوراً في تشكيل الخطاب في العمل الفني ، وهو مهم للقارئ لأنَّه يشكل مفتاحاً للولوج داخل أعمق العمل الفني ومعرفة أبعاده ، كما يمكن للمكان أن يكشف عن الشخصيات وحالتها النفسية.
(٢)

وقد حاولت ربط الأماكن في القصة القرآنية برواية القصة والخطاب الذي تحمله، ولماذا اختير هذا المكان دون سواه؟ وهل كان المكان في القصة القرآنية ذا دلالات؟ وكيف عبر المكان عن شخصه؟ وهل كشف المكان عن حالتها النفسية أو أثر فيها؟

لقد عبر بعض الدارسين عن المكان بكونه عنصراً متعدد الدلالات ، ويتوقف فهم هذه الدلالات على عمق قراءة النص ، فليس من الضروري أن يصرّح المؤلف بها ، والمكان جزء من الرواية التي يريد منشئ النص تحويلها فيه ، وبهذا يتحول المكان من وظيفته الحياتية إلى وظيفة جديدة جمالية أو فكرية أو عاطفية .^(٣)

ويمكن ، أن نجد هذا في قصص القرآن الكريم فهو لا يصرّح عن سبب اختيار المكان ، فلماذا اختار السفينه وسيلة نجاة في قصة نوح - عليه السلام -؟ ولماذا اختار العرش في قصة سليمان عليه السلام؟ ولماذا اختار السجن في قصة يوسف عليه السلام؟... الخ

^(١) نبيه القاسم / الفن الروائي / ص ٤٨

^(٢) فادي السقا، جماليات المكان في روايات هاني الراهب، ص ٣٣-٣٨

^(٣) منصور الدليمي، المكان في النص المسرحي ، ص ٦٢-٦٣

فالمكان "يسم الأشخاص والأحداث الروائية بالعمق.. إن المكان الروائي يصبح نوعا من القدر ،إنه يمسك بشخصياته وأحداثه ،ولا يدع لها إلا هامشا محدودا لحرية الحركة"^(١)

فهل يمكن أن نسحب ذلك على المكان في القصة القرآنية؟ إن الارتباط بين المكان والشخصيات حاصل في القصة القرآنية وكلاهما يؤثر بالأخر ويتأثر به ،فالصرح في قصة سليمان - عليه السلام - استطاع أن يحول الشخصية جذريا من الكفر إلى الإيمان ، وبطن الحوت أثر وجود يونس - عليه السلام- فيه يجعل الشخصية تعيد ترتيب حساب أفعالها وقراراتها ،والمحراب في قصة زكريا - عليه السلام- كان شعاع الأمل الذي أحيا فيه عظمة اليقين على الله في تحقيق المعجزات ،ولكن المكان في القصة القرآنية لم يسيطر بالمطلق على حرية حركة الشخصية ،فهناك مشاهد لم تقيّد الشخصيات بأماكن تتحرك فيها ،بل ينظر للمكان في حضوره بمجمل مشاهد القصة ودوره فيها.

"إن المكان في حالات كثيرة ،ليس حيزا جغرافيا فقط ، فهو أيضا البشر ،والبشر في زمن معين" ،إن التأثير الذي يحدثه المكان في الشخصية القصصية بما تقوله الشخصية وما يصدر عنها من أفكار ونزعات ومواقف نفسية وفكرية تقولها تجاه المكان ،فالعلاقة بينهما علاقة تبادلية ،فلا توجد صورة واحدة للمكان يمكن أن يراها الجميع ،فالمكان ينمو في الشخصية والشخصية تنمو مع المكان^(٢).

فالمكان في القصة القرآنية لا يبرز بصفته مجرد حيز جرت فيه أحداث القصة ،فليست هذا ما يشغل الخطاب في القصة القرآنية ،بل يقدم المكان بطريقة تناسب فكرة القصة ،وخدم الحدث ،فالجنة في قصة آدم تحمل أبعادا ودلالات تخدم القصة وفكرتها بحيث لا يمكن استبداله بمكان آخر ،والكهف في قصة الفتية خدم الحدث والشخصية وحمل رؤية القصة بجمالية قد لا يوفرها مكان آخر...الخ،وسأحاول أن أوضح هذه الفكرة بتعقب أكثر في الفصلين الآتيين وذلك ببيان الأماكن التي ظهرت في القصة وعلاقتها برؤية القصة والأحداث والشخصيات.

(١) غالب هلسا،المكان في الرواية العربية،ص ١٢

(٢) آمنة الريبيع ،البنية السردية للقصة القصيرة،ص ٤٠-٥٢

الفصل الثاني

الأمكنة في القصة القرآنية:

دورها، ودلالاتها

مقدمة الفصل الثاني

يتناول هذا الفصل الحديث عن الأماكن التي تضمنها قصص القرآن الكريم ، فانتقلنا مع هذه الأماكن بين السماء والأرض والجبل والبحر والنهر والوادي والكهف والبيت والسجن والقرية... الخ ، وكانت طريقة تناول هذه الأماكن بالوقوف عندها في المواطن التي وردت فيها قصص القرآن الكريم، ومحاولة بيان الدور الذي قامت به، والصورة التي ظهرت عليها في قصص القرآن الكريم، ولم أصنفها إلى أنماط، أي في مجموعات مخصوصة كاماكن طبيعية وصناعية، أو أماكن مفتوحة ومغلقة أو أليفة ومعادية كما فعل بعض الدارسين للمكان في الأدب، بل تحدث عن كل مكان نمطا مستقلا ظهر في القصة القرآنية وكان جزءا منها ومن عناصرها دون التقيد بتسميته كمكان طبيعي أو مغلق... بل نظر إلى المكان من كل تلك الزوايا دون فصلها عن دورها في أحداث القصة.

وقد استدعي اشتراك بعض الأماكن في دور ما في القصة القرآنية إلى الحديث عنها مترابطة كالبحر والسفينة مثلاً.

إنّ القصة القرآنية حافلة بالأماكن المحملة بدلالات وأفكار تسهم في بناء القصة ورؤيتها وخدمة سياقها. وقد قدم القرآن الكريم قصصه وأماكنها وسائل عناصرها بأسلوبه اللغوي المعجز الذي يقطر الجمال من حروفه وصوره وأصواته، فنجد بعض الأماكن ذاتها قدمت بأكثر من أسلوب وبأكثر من لفظ وفق السياق الذي ترد فيه، مستأنسين بكون القصة ذاتها كان ترد بأكثر من سورة مع اختلاف جزئيات المشهد الذي تتحدث عنه في كل سورة.

وبدراسة المكان تتضح بعض أبعاده كالبعد النفسي وهو ارتباط الشخصيات بمشاعر حول المكان ، والبعد الجمالي بتتألف هذا العنصر مع غيره من العناصر ، والبعد الاجتماعي وهو البعد الذي يتبدى في العلاقات الاجتماعية الرابطة بين الشخصيات وقيمهم وتقاليدهم وطبائعهم ومستوى معيشتهم وما يعترضهم من مشكلات وقضايا، وبعد سياسي وهو علاقة الشخصية في المكان مع السلطة .^(١)

(١) محمد السيد/بناء فضاء المكان في القصة العربية القصيرة/ص ٢٠

* السماء

ظهرت السماء في كثير من قصص القرآن الكريم لتشارك في صنع الأحداث ،لكن كيف كان ظهورها وكيف شاركت في تجسيد أو إبراز رؤية القصة؟

لقد اقتنى ذكر السماء في القرآن الكريم مع ذكر الأرض، لقد كانتا رتقا واحدا ثم فتقا ﴿أَوْلَمْ يَرَ

الَّذِينَ كَفَرُواْنَ أَسْمَوْتَ وَالْأَرْضَ كَانَا رَتْقًا فَفَنَقْتَهُمَا﴾ (الأنبياء: ٣٠) فهناك أمور مشتركة بين السماء والأرض من حيث الخلق والبنية ،كما أنَّ الجمع بين السماء والأرض بدلالة وإشارة إلى الكون كله، الذي يختصر في هذين المكانين العظيمين^(١).

كما أنَّ السماء اشتراكت مع الأرض في قصص القرآن في بعض الأحداث كالاشتراك وفق أمر الله - عزوجل- في إهلاك القوم الكافرين.. فهذه السماء في قصة نوح - عليه السلام- تتهم لإهلاك القوم الكافرين، فقصة نوح - عليه السلام - تقدم نموذجا لجزاء المستكبرين الذين رفضوا اتباع نوح لأن الصعفاء والفقراء قد اتباعوه ﴿كَذَّبَتْ بِلَهُمْ قَوْمٌ فُوجٌ فَكَذَّبُواْ عَبْدَنَا فَأَلْوَأْجَنْهُنَّ وَأَذْجَرَ ① فَعَارَبَهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ

فَانْتَصَرَ ⑩ فَفَنَحْتَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ إِلَّا مَوْتَنِيَرِ ⑪ وَفَجَرْنَا الْأَرْضَ عَيْنُوْنَا فَالنَّقَّالَمَاءُ عَلَيْهِ أَمْرٌ قَدْ فُرِرَ ⑫ وَحَلَّتْهُ عَلَى ذَاتِ الْوَجْهِ

وَمُدْسِرٌ ⑬ تَبَغِي يَأْعِيْنَا جَزَّلَهُ لَنَّ كَانَ كَفَرَ ⑭ وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا إِيَّاهُ فَهَلْ مِنْ مُذَكَّرٍ ⑮ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ⑯ وَلَقَدْ يَسْرَنَا

الْثَّرْمَانَ لِلَّذِكِّرِ فَهَلْ مِنْ مُذَكَّرٍ ⑰ (القمر: ١٧: ٩) . صورة جميلة للسماء (أبواب السماء) وكأنَّ السماء مكان

مغلق في الأصل كبيت أو قصر ثم فتحت فجأة أبوابه الكثيرة !

ثم تستجيب لأمر الله في إيقاف مائتها بعد أن تم إهلاك الكافرين ، جاء ذلك في مشهد آخر قال

تعالى ﴿وَقَيلَ يَأْرُضُ أَبْلَعِي مَاءً لَكَ وَكَسْمَاءً أَفْلَعِي وَغَصَّ الْمَاءُ وَفُضِّيَ الْأَمْرُ وَأَسْتَوْتُ عَلَى الْجُودِيِّ وَقَيلَ بَعْدًا لِلْقَوْوِيِّ الظَّالِمِينَ

﴿ (هود: ٤) ،لقد خاطب الله - عزوجل- السماء وأمرها بأن تقلع عن سكب مائتها، إنَّه لتعبير بلغ

بأن يخاطب المكان بخطاب العاقل الذي يعي ! وكيف لا تعني السماء أمر ربها وكل ما في الكون

منصاع لأمره -عز وجل-.لقد كانت السماء هي اليد التي تقضي على الكفر فتقديم أو تحجم وفق ما تؤمر به.

وفي قصة لوط -عليه السلام-التي تقدم جزاء كل من يخالف الفطرة السليمة ويجاهر بالفواحش، تسقط السماء عذابها على القوم الفاسقين ،لكنه هذه المرة ليس مطرا بل حجارة على غير المأثور كما غيروا المأثور في إثباتهم الرجال دون النساء ﴿وَلَمَّا آتَنَا جَاهَاتَ رُسُلَّنَا أُطْوَّسَتْ بِهِنْمَهُمْ أَضَافَ بِهِمْ ذَرَّاعَوْفَالُّوْلَأَتَخَفَّ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مَنْجُوكَ وَأَمْلَكَ إِلَّا أَمْرَاتَكَ كَانَتْ مِنْ الْفَاسِقِينَ﴾^(٢٣)

﴿إِنَّا مُنْزَلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجَارًا﴾^(٢٤) (٢٥) (العنكبوت ٣٥: ٣٣)

وفي قصة شعيب -عليه السلام- تقدم جزاء كل من يغش الناس ويسلبهم حقوقهم فيأتي تحدي قوم شعيب له بأن ينزل عليهم عذابا من السماء تبجحا وعنادا ﴿فَالْأَنْوَارُ إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ﴾^(٢٦) وَمَا أَنْتَ إِلَّا

﴿بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِنَّنَا نَظُنُّكَ لِمَنِ الْكَذَّابِينَ﴾^(٢٧) فَأَسْقَطَ عَلَيْنَا كَسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الْصَّادِقِينَ﴾^(٢٨)

(الشعراء ١٨٥: ١٨٧)

وهذا الرجز مرة ثانية ينزل على الفاسقين من بنى إسرائيل بعد تبديلهم لأوامر الله - عزوجل-.
قصة موسى -عليه السلام- تظهر مدى المعاناة التي عاشها موسى -عليه السلام- مع بنى إسرائيل الذين يقابلون إحسان الله إليهم بالإساءة له ﴿وَإِذْ قُلْنَا أَدْخُلُوكُمْ هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُّوكُمْ مِّنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَأَدْخُلُوكُمْ﴾^(٢٩)

^(٢٩) حجارة من سجيل... جعل الله مكانها بحيرة خبيثة منتهية/ابن كثير/ج ٣-ص ٣٩٨

الْبَابُ سُجَّدًا وَقُلُوْجَهُ تَفِرَّكُمْ خَطَيْكُمْ وَسَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ بَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُدُونَ ﴿٥٩﴾ (البقرة: ٥٨-٥٩)

وهكذا ظهرت السماء مشتركة مرة مع الأرض في إهلاك الكافرين، ومنفردة مرة في إنزال العذاب بهم.

ومن المشاهد التي ظهرت فيها السماء في القصص القرآني المشاهد التي برز فيها الحديث عن قدرة الله - عزوجل- وخلق العظيم في الكون والدعوة إلى الإيمان به.

فهذا نوح - عليه السلام- كغيره من الأنبياء يذكر قومه بع神性 الله في خلق السماء وما أبدع فيها من شمس وقمر لنفع الناس، وكل ذلك أملأ في تحريك قلوبهم للإذعان بنعم خالقهم عليهم . قال تعالى:

﴿مَا لَكُلَّا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٢﴾ وَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ أَلَرْتَرْوَ كَيْفَ حَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طَبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ ثُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾﴾ (نوح: ١٢-١٦)

ويذكر إبراهيم - عليه السلام- قومه بأن الله القادر لا يعجزه شيء ولا أحد في الأرض ولا في السماء ﴿وَمَا أَنْشَرْتُ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ (العنكبوت: ٢٢)

ويذكرهم بأن الله ربهم رب السماء والأرض الرب الفاطر القوي العظيم ﴿وَلَقَدْ أَئْتَنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلَ وَكُنَّابِهِ عَلَيْمِنَ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْشَرْتُ لَهَا عَدِيكُنَّ ﴿٥٥﴾ قَالُوا وَجَدْنَا إِبَّانَاهَا عَيْدِينَ ﴿٥٦﴾ قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَسْتُمْ وَإِبَّانَوْكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٥٧﴾ قَالُوا أَحِبْنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ الْمُدَعِّينَ ﴿٥٨﴾ قَالَ بَلْ رَبِّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُمْ وَأَنَا عَلَى ذَلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٥٩﴾﴾ (الأنبياء: ٥٦-٥٩)

لقد كان للسماء دور كبير ومهم في قصة إبراهيم - عليه السلام- في إبراهيم - عليه السلام- صاحب الحجة والمنطق وظف السماء ليستدل على وجود الله - عزوجل- ولريحاج قومه عقليا في ذلك

قال تعالى ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَيْمَهُ مَاذَرَ أَتَتَجَدُ أَصْنَامًا مَا لِهُ إِلَّا أَنْكَ وَقْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾^{٧٥} وَكَذَلِكَ نُرِيَ
إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَيَكُونُ مِنَ الْمُؤْقِنِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ أَيْلُ رَءَاءَ كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ
قَالَ لَا أُحِبُّ الْأَفْلَيْنَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَأَ القَمَرَ بَارِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهِدِ فِي رَبِّ لَا كُونَ مِنَ الْقَوْمِ
الْمُضَالِّينَ ﴿٧٨﴾ فَلَمَّا رَأَ الشَّمْسَ بَارِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَقُومُ إِلَيْهِ مَمَّا تُشَرِّكُونَ ﴿٧٩﴾ إِلَيْ
وَجَهْتُ وَجَهْتَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشَرِّكِينَ ﴿٨٠﴾ (الأنعام: ٧٤ : ٧٩)

لقد أرى الله - عزوجل- ملكته في السماوات وفي الأرض لإبراهيم - عليه السلام- ليكون من المؤمنين .. لقد جن الليل على إبراهيم وما الليل إلا ستار يرخي سدوله على السماء لظهور ما فيها من زينة وكواكب ﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ أَيْلُ رَءَاءَ كَوْكَبًا ﴾ لعل هذا الكوكب عظيم الخلفة يكون إليها .. لكنه يغيب

... ويأفل ... وكيف للإله أن يغيب ﴿ قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْأَفْلَيْنَ ﴾ إنها الفطرة السليمة التي تنفي النقص عن الإله .. ثم يبزغ القمر وينشر نوره في الظلام لكنه نور مؤقت فهو أيضا يأفل..
﴿ فَلَمَّا رَأَ القَمَرَ بَارِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهِدِ فِي رَبِّ لَا كُونَ مِنَ الْقَوْمِ الْمُضَالِّينَ ﴾ .

ثم يغيب الليل لتأتي شمس النهار تنير السماء.. كبيرة.. عظيمة هي.. لكن الليل كان قبل ساعات وسيعود بعد ساعات لكيها آفلة لا محالة... وكيف للإله أن يأفل! ﴿ فَلَمَّا رَأَ الشَّمْسَ بَارِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَقُومُ إِلَيْهِ مَمَّا تُشَرِّكُونَ ﴾ وهذا العقل الرشيد جعله يتصل من كل شريك بالله فالسماء وما فيها من كواكب ونجوم وشمس وقمر ما هي إلا مخلوقات الله - عزوجل- الذي لا يغيب ﴿ إِلَيْ وَجَهْتُ وَجَهْتَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشَرِّكِينَ ﴾ لقدم قد ابراهيم - عليه السلام- ذكر السماوات على الأرض؛ لأنها الشاهد الآن في المحاجة كما قدمها - عزوجل- في بداية حديثه عن ملكته - عزوجل- (وَكَذَلِكَ نُرِيَ إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ) .

أما موسى -عليه السلام- فواجهه فرعون بشجاعة وبيّن له من رب العالمين رب السماوات والأرض ما بينهما أيضا ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُ مُؤْمِنَ^١

(الشعراء: ٢٣ : ٢٤)^٢

وارتبط ذكر السماء بذكر علم الله - عزوجل- بالغيب قال تعالى على لسان نبيه إبراهيم ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ

تَعْلَمُ مَا تَخْفِي وَمَا تُعْلِمُ وَمَا يَخْفِي عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ ﴿٢٨﴾ (إبراهيم: ٣٨).

وجاء على لسان الهدى في استئثاره لعبادة قوم سبا للشمس دون الله ﴿أَلَا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي

يُحْيِي الْخَبَةَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تَخْفِي وَمَا تُعْلِمُونَ﴾ ﴿٥٥﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ

(النمل: ٢٥ : ٢٦)

و"السماء هي المكان الذي تتطلع إليه النفوس للحصول على الخير الوفير، ولتحقيق المنشود، والحلم بعيد؛ لأنها مظنة المعجزات بالنسبة للإنسان، ومستقرها، وهي المكان الذي يتدارس فيه أمور الخلق، وإليها يشير الإنسان إلى الله تعالى، كذلك يتوقع منها الأمور الخارقة عن الاستطاعة البشرية، وهذا ما وضحه مطلب لبني إسرائيل قدموه لعيسى -عليه السلام- فقالوا كما ذكر القرآن ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ

رَبُّكَ أَنْ يُنْزِلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ﴾ (المائدة: ١١٢)، فما كان من عيسى -عليه السلام- إلا أن

بادرهم بقوله: ﴿قَالَ أَتَقْوَى اللَّهُ إِنْ كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ (المائدة: ١١٢)، إلا أنهم أصرروا على طلبهم

للخارقة وسوغوا ذلك، كما نقل عنهم القرآن الكريم^(١) ﴿قَالُوا تُرِيدُ أَنْ تَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطَمِّنَ قُلُوبًا وَتَعْلَمَ أَنَّ

قَدْ صَدَقْنَا وَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّهِيدِينَ﴾ (المائدة: ١١٣)، فما كان من عيسى -عليه السلام- إلا أن

استجاب لطلبهم ودعا الله - عزوجل- بأن ينزل مائدة معجزة من السماء ﴿قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رِبَّنَا

أَنِّي أَعُولَى مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لَاَوْلَانَا وَمَا إِخْرَانَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِيقِينَ ﴾١١٤﴾ قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُتَّكِلٌ عَلَيْكُمْ

عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرُ بَعْدَ مِنْكُمْ فَإِنَّمَا أَعْذِبُهُمْ عَذَابًا لَا أَعْذِبُهُمْ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ ﴾

(المائدة: ١١٤ : ١١٥)

إن التعبير عن إنزال المائدة من السماء إشارة إلى كونها هبة رفيعة ،آتية من مكان مرتفع ،لذا يجب أن تقابل بالشكر^(١)

إن السماء مصدر للخير والعطاء ليس على سبيل إنزال معجزة كالمائدة وحسب بل هي منبع الغيث الذي يحيي الأرض.

قال هود -عليه السلام- واعدا قومه بالمطر الوفير إن هم استغفروا ربهم ﴿وَيَنْقُومُوا سَتَغْفِرُوا
رَبُّكُمْ ثُمَّ تُؤْمِنُوا إِلَيْهِ يُرْسِلُ الْأَسْمَاءَ عَلَيْكُمْ مَذْرَارًا وَيَرِدُّ كُمْ فُوَافَةً إِلَيْهِ فُوقَكُمْ وَلَا تَنْتَهُ أَجْرِيْمِنِيْكَ ﴾٥٥﴿ قَالُوا يَا هُودُ
مَا جِئْنَا بِيَتِّنَةٍ وَمَا نَخْنُ بِتَارِيْخِ الْهَمَنَّا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا مَعْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِيْكَ ﴾ (هود: ٥٢ - ٥٣).

وكذلك فعل نوح -عليه السلام- ﴿فَقُلْتُ أَسْتَغْفِرُ رَبِّكُمْ إِنَّهُ كَاتَ غَفَارًا ﴾٥٦﴿ يُرْسِلُ الْأَسْمَاءَ عَلَيْكُمْ مَذْرَارًا
وَيَمْدُدُكُمْ بِأَمْوَالٍ وَيَنْبَيِّنُ وَيَجْعَلُ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلُ لَكُمْ أَنْهَارًا ﴾ (نوح: ١٠ - ١٢).

وهذا موسى -عليه السلام- يذكر فرعون بفضل الله - عزوجل- بإنزال ماء السماء وإخراجه لأزواج من نبات شتى ﴿قَالَ فَمَا بِالْقُرُونِ الْأُولَى ﴾٥٧﴿ قَالَ عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّ فِي كِتَابٍ لَا يَضُلُّ رَبِّ وَلَا يَنْسَى ﴾

الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا شُبُّلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَقَّ (٥٣) (طه١٥٣:٥٣).

وليس السماء رمزا للرزق والخير وحسب بل هي رمز للعلو والشموخ والتحدي، ففرعون يستكبر ويطلب من هامان أن يبني له صرحاً استهزاء بموسى لعله يصل إلى إلهه في نواحي السماء.

قال تعالى: ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنٌ يَنْهَا مِنْ أَبْنِ لِي صَرْحًا لَعَلَّيْ أَبْلُغُ الْأَسْبَابِ ﴾ (٣٦) أسباب السماءات فأطلع إلينا الله موسى

وَإِنِّي لَأَظْنُهُ كَذِبًا وَكَذِبًا ذَلِكَ زُبْنٌ لِفِرْعَوْنَ سُوءٌ عَمَلٍهُ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي

تَبَابٍ ﴿غافر: ٣٦﴾ (٣٦ : ٣٦)

وهكذا ظهرت السماء في القصة القرآنية لتنزل العذاب على الكافرين ، ولتنزل الرزق والغيث ، ولتكون دليلاً محاجة على قدرة الله الخالق ، ولتكون محلاً للمعجزات

والقرآن الكريم في حديثه عن المكان ينوع في تقديمه له، ولعل من أجمل صور التقديم أن يلبس المكان صفة الإنسان العاقل وقد ورد ذلك في غير موضع من القرآن الكريم . قال تعالى بعد إهلاك فرعون وجنده ﴿فَمَا بَكَّتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ ﴾ (٢٩) (الدخان: ٢٩) لقد استعظم فرعون وجنده أنفسهم لدرجة اعتقدوا فيها أنهم لو ماتوا لبكت عليهم السماء والأرض ، وما كانوا هذا الحد وإنما ذكره الله - عز وجل - على سبيل التهكم بهم. ^(١)

* الأرض

المكان الذي احتوى الإنسان واحتواه الإنسان، المكان الذي جرت عليه معظم أحداث القصص وتحركت فوقه جُل الشخصيات وأدارت يد الزمن عجلتها فيه. الأرض قصة الخلق الأول وقصة الخلق الأخير من آدم -عليه السلام- إلى فناء هذه الحياة الأرض، هي المسرح الذي تقدم فيه الحياة عروضها المختلفة.

في حديثي عن هذا المكان سأتوقف عنده في كل قصة ورد ذكره فيها وسأحاول أن أتبين الدور الذي لعبه هذا المكان في القصة والرؤية التي ساهم في تجسيدها ،والدلالة التي ينطوي عليها.

جاءت الأرض في قصة آدم -عليه السلام- لتكون المكان الذي سيجري فيه استخلاف الإنسان، ليحمل الأمانة التي كلفه الله بها قال تعالى ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ (البقرة: ٣٠) فجاء رد الملائكة وفق ما علمهم الله به ﴿قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيُسْفِكُ الْدِمَاءَ وَنَخْنُ نُسَيْبُهُمْ وَنُنَقْدِسُ لَكَ﴾ (البقرة: ٣٠) لقد استتركت الملائكة فعل الإنسان في الأرض من إفساد وتخريب وسفك دماء، لكن الله - عزوجل- فوق كل علم علمه لخلقه فجاء رده - عزوجل- ﴿قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة: ٣٠) لقد خفيت على الملائكة حكمة المشيئة العليا ،"في بناء هذه الأرض وعمارتها، وفي تنمية الحياة وتنميتها، وفي تحقيق إرادة الخالق وناموس الوجود في تطويرها وترقيتها وتعديلها ،على يد خليفة الله في أرضه . هذا الذي قد يفسد أحيانا ،وقد يسفك الدماء أحيانا ،ليتم من وراء هذا الشر الجزئي الظاهر خير أكبر وأشمل . خير النمو الدائم . خير الحركة الهدامة البناءية . خير المحاولة التي لا تكف ،والتعلمع الذي لا يقف، والتغيير و التطوير في هذا الملك الكبير. عندئذ جاءهم القرار من العليم بكل شيء ،والخبير بمصائر الأمور :"(قال إني أعلم ما لا تعلمون")^(١)

لكن الله - عزوجل- قر لآدم قبل الاستخلاف في الأرض أن يمر في اختبار صغير، أن يسكن الجنة قبل الأرض، أن يعرف الجنة قبل الأرض فكان هبوط آدم إلى الأرض هبوطا تأدبيا - إن جاز التعبير - قال تعالى ﴿ وَقُلْنَا يَكَادُمْ أَشْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكَلَّا مِنْهَا رَعْدًا حَيْثُ شَتَّمَا وَلَا نَفَرَا يَهْذِي الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾^{٢٥} ﴿ فَأَرَلَهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا أَهْبِطُوا بَعْضَكُمْ لِيَعْصِي عَدُوًّا وَلَكُنْ فِي الْأَرْضِ مُسْئِرٌ وَمَنْتَعٌ إِلَى حِينٍ ﴾^{٢٦} ﴿ فَنَلَقَهُ آدُمُ مِنْ زَيْدٍ كَمَنْتِي فَنَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ النَّوَابُ الْأَرْحَمُ ﴾^{٢٧} ﴿ فُلْنَا أَهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِنَّمَا يَأْتِيَنَّكُمْ بِنَقْيَ هُدَىٰ فَمَنْ تَبَعَ هُدَىٰ فَلَا حَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾^{٢٨} . (البقرة ٣٥ : ٣٨)

هبط آدم من الجنة إلى الأرض والهبوط فيه دلالة الانخفاض، فالنزول من الجنة إلى الأرض ليس انخفاضا ماديا فقط بل هو انخفاض معنوي أيضا، انخفاض من الأعلى إلى الأدنى من الرخاء إلى الشقاء ﴿ فَلَا يُغْرِيَنَّهُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشَقَّقَ ﴾^{٢٩} (طه: ١١٧) ، لكن رحمة الله واسعة فجعل الأرض مكانا فيه استقرار ومتاع حتى حين .

وفي ذلك يقول سيد قطب رحمة الله "علني ألمح أن هذه التجربة - أي تجربة الابتلاء في الجنة قبل النزول إلى الأرض - كانت تربية لهذا الخليفة وإعدادا. كانت إيقاظا للقوى المذخورة في كيانه. كانت تدريبا له على تلقي الغواية، وتدوّق العاقبة، وتجرع الندامة، ومعرفة العدو، والالتجاء بعد ذلك إلى الملاذ الأمين ."

إن قصة الشجرة المحرمة، ووسوسة الشيطان باللذة، ونسيان العهد بالمعصية، والصحوة من بعد السكر، والندم وطلب المغفرة ... إنها تجربة البشرية المتتجدد المكررة! لقد اقتضت رحمة الله بهذا المخلوق أن يهبط إلى مقر خلائقه، مزودا بهذه التجربة التي سيتعرض لها طويلا، استعدادا للمعركة الدائبة وموعظة وتحذيرا .^(١) إن فالمدة التي قضتها آدم في الجنة كانت تطبيقا عمليا لمنهج العبودية ، "حتى إذا ما خرج إلى مهمته لم يخرج بمبدأ نظري ، بل خرج بمنهج عملي تعرض فيه

لأ فعل ولا تفعل والحلال والحرام ، وإغواء الشيطان والمعصية ثم بعد ذلك يتعلم كيف يتوب ويستغفر
ويعود إلى الله . " (١)

وجاءت الأرض في قصة نوح - عليه السلام - عنصرا فاعلا ومساندا في إهلاك القوم الكافرين
قال تعالى ﴿ كَذَّبُوكُلَّهُمْ قَوْمٌ فُوجٌ مُكَذِّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَأَزْدَجُرٌ ⑩ فَدَعَاهُمْ أَنَّهُ مَغْلُوبٌ فَأَنْصَرَهُ ⑪ فَفَنَّحَنَا أَبْرَبَ الْسَّمَاءَ إِلَيْهِمْ ⑫ وَفَجَرْنَا الْأَرْضَ عَيْوَنَا فَالْقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْرٌ ⑬﴾ (القمر ٩ : ١٢).

لقد تحولت الأرض إلى عيون ماء متفجرة من باطنها حتى التقى الماء على هذه الأرض
فاستحالت بحراً طاغياً لا نجاها منه ، ثم إنَّ هذه الأرض وبأمر الله بعد إهلاك القوم الكافرين بلعت
ماءها وكأنها كائن يبلع لا يشرب بلطف لكثرة الماء الذي على ظهرها ، وهي بهذا ساهمت في إهلاك
الكافرين وفي نجاة المؤمنين الباقيين ... ﴿ وَقَيْلَ يَأْرُضُ الْبَلْعَى مَاءَكُوَّنَ سَمَاءَ أَقْلَى وَغَيْضَنَ الْمَاءَ وَقُضَى أَلْأَمْرُ ⑭ وَأَسْتَوَتْ عَلَى الْبَعْدُوَيِّ وَقَيْلَ بَعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ⑮﴾ (هود: ٤) . وغضاض الماء في بطونها تاركاً للحياة أن تعود
مجراها على سطح الأرض التي لم تبقى كافراً يدور على سطحها ، كما دعا نوح - عليه السلام - ربه
بعد تكذيب قومه له وإنعائهم في الضلال والكفر والعناد ﴿ وَقَالَ فُوجٌ رَبٌّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَارًا ⑯ إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضْلُّو عَبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَارًا ⑰﴾ (نوح ٢٦ : ٢٧) .

و الأرض كانت سبيلاً للتذكير والاعتبار بقدرة الله - عزوجل - التي خلقها وبسطها لينعم
الخلق ، وأنبت منها ما ينفع الخلق جميعهم وأولهم الإنسان الذي لم يتعظ ولم يعتبر بهذه النعمة التي
وهبها الله له ، فجده وكذب رسالته ، قال نوح - عليه السلام - في معرض دعوته لقومه: ﴿ أَتَرْتَزُوا كَيْفَ

خَلَقَ اللَّهُ سَبَعَ سَمَوَاتٍ طَبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ بَنَاتٍ ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِدُكُمْ

فِيهَا وَتَعْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ إِسَاطِلًا ﴿١٩﴾ لَتَسْكُنُوا مِنْهَا سُبُلًا فِي جَاهَنَّمْ ﴿٢٠﴾ (نوح ١٥ : ٢٠) . فالله

العظيم خلق الإنسان من الأرض، فهي أصل خلقته ومثواه الذي سيعود إليه ثم سيعث منه مرة أخرى، فهذه الأرض هي المكان الذي نبت منه الإنسان ليعطي ويعلم ويؤمن بخالقه الذي سلك له فيها السبل كي يقتات من خيراتها.

لقد نبّه نوح -عليه السلام- قومه إلى قدرة الله وعظمته في خلق السماوات والأرض ونعمه عليهم فيما جعل لهم من المنافع التي لا يقدر على إعطائهم إياها أحد من الخلق^(١) .

إن تعبير القرآن الكريم عن خلق الإنسان من الأرض بالإنبات يوحى "بالوحدة بين أصول الحياة على وجه الأرض، وأن نشأة الإنسان من الأرض كنشأة النبات من عناصرها الأولية يتكون، ومن عناصرها الأولية يتغذى وينمو، فهو نبات من نباتها وهبه الله هذا اللون من الحياة كما وهب النبات ذلك اللون من الحياة، وكلاهما من نتاج الأرض، وكلاهما يرضع من هذه الأم"^(٢) .

إذن شاركت الأرض في إهلاك الكافرين بكل أجزائها حتى الأماكن التي لا يتوقع خروج الماء منها نبع منها كاللتور الذي فار وتدفق منه الماء كإشارة على بدء المعجزة التي أجرتها الله - عزوجل- لنبيه نوح والمؤمنين معه.

وفي قصة هود -عليه السلام- جاء ذكر الأرض على سبيل توضيح ما كان يفعله قوم عاد على ظهرها، فقد كفروا واستكباوا فكان مصيرهم الهلاك والإبادة، قال تعالى : ﴿فَإِنَّمَا عَادٌ فَأَسْتَكَبُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ (فصلت: ١٥) .

(١) ابن كثير / تفسير القرآن الكريم / ج ٤ / ص ٤٦٢

(٢) سيد قطب / الظلال / ج ٦ / ص ٣٧١٤ - ٣٧١٥

وأما قوم ثمود فقد حذرهم الله - عزوجل- من أن يعثوا في الأرض مفسدين، فاذه - عزوجل- أسكنهم هذه الأرض ورفع قدرهم فيها وبواهم مساكن وقصورا وقوة فيها ، ثم اختبرهم بالنافقة وأمرهم بتركها تأكل في أرض الله دون أن يتعرضوا لها بأذى لكن الجحود والكفر والطغيان طمس الفطرة فعصوا أمر الله - عزوجل- فكان مصيرهم الدمار والهلاك على هذه الأرض قال تعالى : ﴿وَإِنَّ شَمْوَدَ

أَخَاهُمْ صَنَلِحَا قَالَ يَنْقُومُ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٌ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيْنَهُ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ
لَكُمْ إِيمَانٌ فَدَرُوهَا تَأْكُلُ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمْسُوهَا إِسْرَاعًا فَيَأْخُذُكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٦﴾ وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ
بَعْدِ عَادٍ وَّبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَنَعِذُونَ كِنْ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَنَحْنُ نَوْحِنَ الْجِبَالَ يُؤْتَأْذِكُمْ كُلُّ أَلَّاهٌ وَلَا نَعْثُوْفُ فِي
الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ الْمَلَائِكَةُ الَّذِينَ أَسْتَكَنْتَنِي بِرُوْأِنِ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ أَسْتَضْعِفُوْلِي مَنْ أَمَنَ مِنْهُمْ أَنْعَلَمُونَ أَنَّ
صَنِلِحَا شَرَّ سَلْ مِنْ رَبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أَزْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٨﴾ قَالَ الَّذِينَ أَسْتَكَنْتَنِي بِرُوْأِنِ إِنَّا بِالَّذِي مَاءْمَنَّاهُمْ بِهِ
كَفِرُونَ ﴿٧٩﴾ فَعَقَرُوا أَنَّاقَةً وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَنْصَلِحُ أَثْنَانِي مَا تَعْذَنَّ إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾
فَأَخَذَنَهُمُ الْرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوْا فِي دَارِهِمْ جَحِشِينَ ﴿٨١﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ وَقَالَ يَنْقُومُ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَضَعَثْتُ لَكُمْ
وَلَكِنَّ لَا يُحِبُّونَ النَّصِيحَاتِ ﴿٨٢﴾ (الأعراف ٧٣ : ٧٩)

لقد ذكر صالح قومه قبل إهلاكم بأن هذه الأرض الله وهو الذي خلقهم وأنشأهم منها ثم استعمرهم فيها ليعمروها لا ليفسدوها كما فعل غيرهم من المفسدين. قال تعالى: ﴿وَإِنَّ شَمْوَدَ أَخَاهُمْ

صَنِلِحَا قَالَ يَنْقُومُ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٌ غَيْرُهُ وَأَنْشَأْتُكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَأَسْتَعْمَرْتُكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوْهُ شَمَّ شُوبِيَا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ
شُجَيبٌ ﴿٦١﴾ (هود: ٦١)

لقد استكبر قوم ثمود وتعاظمت أنفسهم بما بناوا على الأرض فذكرهم نبيهم صالح أن نشأتهم كانت من الأرض فلم الاستبكار ، وأن استعمارهم للأرض من الله للإصلاح لا للإفساد والدمار ، وهذا هو الأصل في العلاقة مع المكان.

وكان تعبير القرآن الكريم عن المكان الذي يصلحه الإنسان أو يفسده بالعموم(الأرض) ،دون تخصيص فقط للمكان الذي يحيا فيه الإنسان لإشارة إلى أن الإصلاح أو الإفساد بمكان ما على هذه الأرض إنما هو إصلاح أو إفساد للأرض كلها.

وقد ورد ذكر الأرض في القصة القرآنية على سبيل التذكير بقدر الله - عزوجل- وامتلاكه لما في الكون كالسماء والأرض وما فيهن، فهذا إبراهيم -عليه السلام- يتذكر خلق الله في السماوات والأرض حتى يصل إلى درجة اليقين في الإيمان. قال تعالى:

﴿ وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَيَكُونَ مِنَ الْمُؤْفَقِينَ ﴾ (٧٥)

(الأنعام ٧٤) فالله - عزوجل- الخالق القادر خلق السماوات والأرض ويعلم السر

وأخفى، قال تعالى على لسان إبراهيم -عليه السلام-:

﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا تَخْفِي وَمَا تُنْعِلُّ وَمَا يَعْلَمُ عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴾ (إبراهيم: ٣٨)

وجاء في موضع آخر من سورة الأنبياء ﴿ وَقَدْ أَنْتَنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدًا مِنْ قَبْلٍ وَكُنَّا بِهِ عَلَيْمِينَ ﴾ (٥١) إذ قال

﴿ لَأُبَيِّهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتَ هَامَّا عَنِّكُمْ ﴾ (٥٢) قالوا وَجَدْنَا إِبَّا آدَمَ نَاهَى عَنِّيَّدِينَ ﴿ قَالَ لَقَدْ كُنْتُ أَنْتُمْ وَمَابَأَوْكُمْ ﴾

﴿ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ (٥٣) قالوا أَجِئْنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ الْمَعْلُومِينَ ﴿ قَالَ بَلْ رَبِّنَا إِبْرَاهِيمَ رَبُّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَإِنَّا عَلَى ذَلِكُمْ ﴾

﴿ قِنَّ الشَّهِيدِينَ ﴾ (٥٤) (الأنبياء ٥١ : ٥٦) وكذلك قالها موسى لفرعون ﴿ قَالَ فَرَعَوْنُ وَمَارِبُ الْعَالَمِينَ ﴾

﴿ قَالَ رَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُ مُّوقِنِينَ ﴾ (٢٤) (الشعراء ٢٣ : ٢٤).

كما جاءت دعوة إبراهيم وغيره من الرسل إلى الانطلاق في الأرض والسير في مناكبها للتدبر، فالله - عزوجل- خلق الناس منها وسيعدهم فيها ثم سيخرجمهم منها تارة أخرى . قال تعالى ﴿ أَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبَدِّلُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يُسِيرٌ ١٥ ﴾ ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقُ ثُمَّ أَلْهَمَ يُشْعِنُ النَّاسَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ بِقَدِيرٍ ٢٠ ﴾ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقَبَّلُونَ ٢١ ﴾ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ٢٢ ﴾ (العنكبوت: ١٩-٢٢)

وكذلك للاعتبار بما حل بالأقوام السابقة فآثارهم الباقيه شاهدة عليهم جاء في التعقيب على قصة يوسف ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَيْنَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ١٠٩ ﴾ (يوسف: ١٠٩) وقد حذر الله - عزوجل- من المرور عن الآيات والإشارات والدلائل التي وضعها الله - عزوجل- في السماوات والأرض دون الاعتبار والتدبر والتفكير فيها . قال تعالى : ﴿ وَكَيْنَ مِنْ مَائِيقَةِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمْرُرُ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ١٠٥ ﴾ (يوسف: ١٠٥)

فهذه الأرض نعمة من الله لما يسره الله - عزوجل- فيها من خيرات ، ومهدها للإنسان كي يعيش آمنا مستقرا على ظهرها . قال تعالى على لسان نبيه موسى وهو يذكر قومه: ﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُّلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَنَا بِهِ أَرْوَاحَنَا مِنْ بَأْطَشَقَنَ ٥٣ ﴾ كُلُّوا وَارْعُوا أَنْعَمْكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذَّاتٍ لَا يُؤْلِي النُّهَى ٥٤ ﴾ (طه: ٥٣-٥٤).

كما حذر الرسل - عليهم السلام - أقوامهم من الإفساد في الأرض سواء أكان إفسادا بالفعل أم بالقول أم بالخلق و المعاملة . ﴿ وَإِنَّ مَدِينَ أَخَاهُمْ شَعَبًا قَالَ يَغْوِرُ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِهِ، قَدْ

جَاءَكُمْ بِكِتَابٍ مِّنْ رَّبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا يَبْخَسُوا أَنَاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا يُفْسِدُوا

فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾ (الأعراف: ٨٥)

فقد أفسد قوم شعيب بإيقاصهم المكيال والميزان وعدم إيفائهم الناس حقوقهم وليس هذا فحسب بل عملوا على صد الناس عن دين الله وطريق الخير والهدي فاستحقوا بذلك نزول العذاب بهم جراء بما كانوا يفسدون في الأرض.

وقد عرضت القصة القرآنية نماذج متعددة للذين أفسدوا في الأرض ولم يصلحوا فيها ، ولعل من أبرزهم فرعون الذي نصب نفسه إليها على أهل الأرض، فأخذ يتجرب فيها ويظلم ، ويفرق بين الناس ويسفك الدماء، كأنه مالك للحياة وللموت . قال تعالى ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَى الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شَيْئًا

يَشَقِّعُ طَرَيْفَةً مِّنْهُمْ يُدْرِعُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَغْنِي مَنْسَأَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾ (القصص: ٤) وليس هذا

فحسب بل وجد من يشد على يده ويؤيده لما يحقق لهم من مصالح بفعله هذا، فيقلب الحق باطلًا وبالباطل حقًا ويصبح المصلح مفسدا والمفسد مصلحا . قال تعالى ﴿وَقَالَ الْمَلَائِكَةُ مِنْ قَوْمِ فَرْعَوْنَ أَنَّذَرَ مُوسَى

وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرُكَ وَإِلَيْهَا فَرَعَوْنُ سَنْقِلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَغْنِي مَنْسَأَهُمْ فَأَنْهَوْنَ

(الأعراف: ١٢٧)

إِنَّهَا الْمَصَالِحُ وَالْمَادِيَاتُ الَّتِي تَطْمَسُ الْحَقَّ فَلَا تَبْصِرُ الْهَدَايَةَ فَسْتَنِرُ عَلَى صَاحِبِ الدُّعَوَةِ فَعَلَهُ وَيَتَّهِمُ وَيَخْشِي مِنْ أَنْ يَنْالَ مَنْصَبًا أَوْ شَرْفًا . قال تعالى على لسان ملاً فرعون: ﴿قَالُوا أَجِئْنَا لِتَأْفِنَنَا عَمَّا

وَجَدَنَا عَلَيْهِ أَبَاءَنَا وَتَكُونُ لَكُمُ الْكُنْزِيَّةُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمْ بِمُؤْمِنِينَ ﴿يونس: ٧٨﴾ . لقد تحولت الدعوة إلى

التَّوْحِيدِ إِفْسَادًا فِي الْأَرْضِ ، وَتَحَوَّلُ الْمَجْرُمُ سَالِبُ الْحَقُوقِ وَسَافِكُ الدَّمَاءِ إِلَى نَاصِحٍ أَمِينٍ يَخْشِي عَلَى الدِّينِ ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنَ ذُرْهُ فِي أَقْطَمِ مُوسَى وَلَيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ أَفْسَادَ

(غافر: ٢٦)

لقد استكبر فرعون وجنوده وملؤه فكان عاقبهم الإهلاك ، كسرن الله في الأقوام السابقة. قال

تعالى واصفا فرعون وجنوده : ﴿وَاسْتَكْبَرُوا هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَطَمَنُوا أَنَّهُمْ إِنَّا لَا يُرْجَعُونَ﴾

(٣٩) ﴿فَأَخْذُنَّكُمْ وَجُنُودَهُ فَنَبْدَلُنَّهُمْ فِي الْأَيَّارِ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَيْقَبَةُ الظَّالِمِينَ﴾ (القصص : ٣٩)

لكن الواضح من ربه ودعوته يملك الحجة والقول المطمئن المبين لهم الآن يملكون الأرض لكن ذلك لن

يدوم بکفرهم بالله وجوده ﴿يَقُولُ لَكُمْ أَمْلَكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَإِسْلَامِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا﴾

(غافر: ٢٩)

إن التمكين في الأرض فضل من الله - عزوجل- من به على عباده الصالحين ،فهذا يوسف -

عليه السلام- يتعرض لمحن عديدة لكن لطف الله به ،وبصبره وقوه إيمانه تتحول المحنة إلى منحة

ويتحول قول إخوة يوسف ﴿أَطْرَحُوهُ أَرْضًا﴾ (يوسف: ٩) إلى قوله - عزوجل- ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ

فِي الْأَرْضِ﴾ (يوسف: ٢١) . واللافت للنظر وللتدبّر أن إخبار الله - عزوجل- عن تمكين يوسف في

الأرض جاء فور التقاطه من البئر وببيعه لسيد مصر ﴿أَكَنْرِيمِي مَثْوِيهِ عَسَوْ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَنْخَذَهُ وَلَدَّا﴾

﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ﴾ (يوسف: ٢١) ، وهذا قبل أن يسجن وقبل أن يقابل الملك ويتولى

خزائن الدولة ،فكأنه تمهد وطمأنة أن ما سيجري ليوسف من مصاعب في الأحداث التالية ينبغي ألا

يشعرنا بالجزع ؛ لأن وعد الله سبق ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ﴾ فور دخوله بيت عزيز مصر

ورغم ما سيلقيه فيه. ثم تكررت الآية بعد أن جعله ملك مصر على خزائن الأرض وفي إضافة

الخزائن إلى الأرض "خزائن الأرض" استغراق في الامتلاك والتمكين قال تعالى ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ أَتَنْهُفُ بِهِ﴾

﴿أَسْتَحْلِصُهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَمَهُ قَالَ إِنَّكَ أَيْمَمُ لَدَنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ (٤٠) ﴿قَالَ أَجْعَلْنِي عَلَى حَزَابِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِظٌ عَلَيْهِ﴾ (٤٠) ﴿وَكَذَلِكَ

﴿مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَرَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ ثُمَّ يُحِبِّبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ شَاءَ وَلَا يُنْهِي بِعَمَلِ الْمُحْسِنِينَ﴾ (يوسف: ٤٠) -

)٥٦) لقد تبوا يوسف مكانة عالية في الأرض بعد السجن والظلم ،نال التمكين فيها ونال الحرية ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَاهُ لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ﴾ حرية الإرادة وحرية الاختيار وحرية الانتقال.

ويعلق سيد قطب-رحمه الله- على طلب يوسف من الملك بجعله على خزائن الأرض بقوله: "ولم يكن يوسف يطلب لشخصه وهو يرى إقبال الملك عليه فيطلب أن يجعله على خزائن الأرض.. إنما كان حصيفاً في اختيار اللحظة التي يستجاب له فيها لينهض بالواجب المرهق التفيل ذي التبعية الضخمة في أشد أوقات الأزمة، ويكون مسؤولاً عن إطعام شعب كامل وشعوب كذلك تجاوره طوال سبع سنوات، لا زرع فيها ولا ضرع، فليس هذا غنماً يطلب به يوسف لنفسه، فإن التكفل بإطعام شعب جائع سبع سنوات متالية لا يقول أحد إنّه غنية، إنما هو تبعية يهرب منها الرجال، لأنها قد تکافهم رؤوسهم، والجوع كافر، وقد تمزق الجماهير الجائعة أجسادهم في لحظات الكفر والجنون^(١)."

والتمكين في الأرض يوحى بالاتساع والشمول لذا عبر -عز وجل- عن نفوذ ذي القرنيين بـ(إنما مكنا له في الأرض) بترحاله من مغرب الأرض إلى شرقها ﴿وَيَنْعَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتَّلُوا عَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا﴾^{٨٢} ﴿إِنَّا مَكَّنَاهُ لِهِ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبِيلًا﴾^{٨٣} ﴿فَأَبْيَعَ سَبِيلًا﴾^{٨٤} ﴿حَتَّى إِذَا لَمْ يَأْتِ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ﴾^{٨٥} في عتب حمئة وجدة عند هافماً قلناً يندا القرنيين إنما أن تعذب وإنما أن تنتخذ فيهم حسنة^{٨٦} ﴿قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ وَمَنْ يَرِدُ إِلَيْنَا فَقَدْ عَذَّبَهُ﴾^{٨٧} أو أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ وَمَنْ يَرِدُ إِلَيْنَا فَقَدْ عَذَّبَهُ^{٨٨} ﴿وَمَنْ يَأْمُنَ مَا مَنَ وَعِيلَ صَلَحَافَلَهُ جَزَاءُ الْحَسْنَى وَسَنَقُولُ لِهِ مِنْ أَمْرِنَا إِسْرَارًا﴾^{٨٩} ثم أبْيَعَ سَبِيلًا^{٩٠} ﴿حَتَّى إِذَا لَمْ يَأْتِ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَقْلُمُ عَلَى قَرْمٍ لَمْ يَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سِرَارًا﴾^{٩١} كذلك وقد أحطنا بما لديه خبراً^{٩٢} ثم أبْيَعَ سَبِيلًا^{٩٣}

(الكهف: ٨٣: ٩٢)

لقد جرت سنة الله في الأرض بإهلاك الكافرين واستخلاف المؤمنين ولو بعد حين، فقد طمأن موسى -عليه السلام- قومه بذلك وقال: ﴿قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يَهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَحْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ (الأعراف: ١٢٩) إن الاستخلاف مقرون بالعمل والإيمان، ﴿إِنَّكَ أَلْأَرَضَ إِلَّا يُورِثُكَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَيْقَةُ لِلْمُتَقِينَ﴾ (الأعراف: ١٢٨) وهذا يرسى موسى -عليه السلام-حقيقة هامة وسنة لا تبدل لها .وفي هذه الآية إشارة صريحة لحق الإقامة فوق الأرض فهي ملك الله - عزوجل- يورثها لمن يشاء من عباده ولا يحق لأحد أن يستبد بها ويظلم عليها، وقد عبر الملا من قوم فرعون عن أهمية الارتباط بالأرض تخويفاً من دعوة موسى وهارون فقالوا ﴿إِنَّهَا لَسَاحِرٌ عَلَيْهِمْ﴾ ١١٠ ﴿يُرِيدُ أَنْ يُغَرِّجُكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا قَاتَمُرُونَ﴾ (الأعراف: ١١٠ - ١٠٩) لعلهم بتخويف قومهم من فقدان أرضهم يثنونهم عن تصديق موسى واتباع رسالته، وقد خاطب فرعون موسى بذلك بعد أن أراه موسى الآيات والدلائل على صدق دعوته فقال ﴿قَالَ أَيْخَنَنَا إِلَّا تُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا إِسْحَارِكَ يَنْمُوسِي﴾ (طه: ٥٧) وفي موضع آخر قال فرعون ﴿قَالَ لِلْمِلَّةِ حَوْلَهُ إِنَّهَا سَاحِرٌ عَلَيْهِمْ﴾ ١١١ ﴿يُرِيدُ أَنْ يُغَرِّجُكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ إِسْحَارِهِ فَمَاذَا قَاتَمُرُونَ﴾ ١١٢ (الشعراء: ٣٤ - ٣٥) فمرة قال: "من أرضنا" ليشعرهم بأنه جزء منهم وأن مصابهم واحد ومرة يقول: "من أرضكم" ليشعرهم بملكية لهم وبالخطر الذي يتهدد ما يمتلكون وأعظم ما يمتلك الإنسان هو أرضه. وما كل هذا التحذير والإذنار إلا لأن فرعون لا يريد أن يتحرر بنو إسرائيل من العبودية تحته فأرهبه طلب موسى بإرسالهم - أي بنى اسرائيل - معه بعيداً عن نفوذ فرعون وسيطرته، قال تعالى مخاطباً موسى: ﴿أَذْهَبْ أَنْتَ وَأَهُوكَ إِبَابِي وَلَا نَنِي فِي ذِكْرِي﴾ ١١٣ ﴿أَذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى﴾ ١١٤ ﴿فَقُولَا لَهُمْ قَوْلَا لِنَا لَعْلَهُ يَذَكَّرُ أَوْ يَحْشَى﴾ ١١٥ ﴿فَلَا رَبَّنَا إِنَّا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى﴾ ١١٦ ﴿فَالَّذِي خَافَ إِنَّهُ إِنَّمَا أَسْمَعَ وَارِدَ﴾ ١١٧ ﴿فَأَنِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولاً رَبِّكَ فَأَرْسَلْ مَعَنَا بَيْ إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ حِنْتَكَ بِشَاهِيَهِ مِنْ رَبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَى مَنْ أَتَبَعَ الْمُهَدَّى﴾ (طه: ٤٢ - ٤٧)

لكن العقاب الأول حل على فرعون ومثله فأرسل عليهم الله - عزوجل- الجراد والقمل والضفادع والدم... تحذيرا لهم قال تعالى ﴿ وَقَالُوا مَهْمَا تَأْنِي بِكُمْ مِّنْ مَا يُؤْمِنُونَ لَكُمْ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ ﴿١٣٢﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الظُّوفَانَ وَالجَرَادَ وَالقُمَلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ مَا يَنْتَ مُفْصِلَتِ فَأَسْتَكْبِرُوا وَكَانُوا قَوْمًا جُحْمِينَ ﴿١٣٣﴾ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الْيَرْجُرُ قَالُوا يَمْوَسَى أَدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَاهَدَ عَنْدَكَ لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الْيَرْجَرَ لَتُؤْمِنَ لَكَ وَلَنْ تُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الْيَرْجَرَ إِلَى أَجْلِهِمْ بَلْغُوهُ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ ﴿١٣٥﴾ فَلَنْقَمَنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا إِيمَانَنَا وَكَانُوا عَنْهَا عَظِيلِينَ ﴿١٣٦﴾ (الأعراف: ١٣٣-١٣٦)

وبعد إهلاك الكافرين وإغرار فرعون وجنوده أورث الله بنى إسرائيل الذين كانوا مستضعفين الأرض بعد إيمانهم بالله - عزوجل- قال تعالى ﴿ وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشْرِقَ الْأَرْضِ وَمَغْرِبَهَا الَّتِي بَرَكَ كَافِرَهَا ﴾ (الأعراف: ١٣٧) إلا أن هؤلاء القوم رفضوا التكريم والمنحة التي وهبها الله لهم، فرفضوا الدخول إلى الأرض المقدسة وعصوا أمر الله وأمر رسول الله ،فكان مصيرهم التيه والتشرد في الأرض. قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَقُولُمْ أَذْكُرُو أَنْعَمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيْكُمْ أَنْيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَإِنَّكُمْ مَا آتَمْتُمْ بِمُؤْتَمِنِينَ ﴾ ﴿١٣٨﴾ يَقُولُمْ أَذْكُرُو أَنْعَمَةَ اللَّهِ كَبَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا نَرِدُوا عَلَى أَذْبَارِكُمْ فَنَنْقِلُبُوا خَسِيرِينَ ﴿١٣٩﴾ قَالُوا يَمْوَسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَابِينَ وَلَآنَّنَّ نَدْخُلُهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا إِنَّ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَخَلُونَ ﴿١٤٠﴾ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَنْهَاوْنَ أَنَّعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا أَذْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَلِيْبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤١﴾ قَالُوا يَمْوَسَى إِنَّا لَنَّ نَدْخُلُهَا أَبْدًا مَا دَامُوا فِيهَا طَرَدْهَبَ أَنَّتَ وَرَبِّكَ فَمَتَّلَّا إِنَّا هَنَّا قَاعِدُونَ ﴿١٤٢﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَآخِي فَأَفْرَقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمَ الْفَسِيقِينَ ﴿١٤٣﴾ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتَهَوَّنُ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَسِيقِينَ ﴿١٤٤﴾ (المائدة: ٢٠ - ٢٦).

لقد كان تشرد هم نتيجة جبنهم وسوء أدبهم مع خالقهم ورسوله (فاذهب أنت وربك فقاتلنا إنا هاهنا
قادعون)!

وليس التشرد والتهي في الأرض هو مصير المتكبرين فقط ، بل إن العذاب والخسف أيضا هو
مصير المتكبرين الذين يبغون في الأرض فسادا . بهذا قارون استعلى بماله وملكه وجحد ربه وخرج
مزدانا مزدهيا بما عنده ولم يأبه بأية موعظة أو نصيحة حتى خسف الله - عز وجل - به الأرض فكان
عبرة لكل من يتطلع ليكون مثله ... إن النعم إن لم تشكر تغدو نعما على أصحابها.....

﴿ إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَإِنَّهُنَّ مِّنَ الْكُفَّارِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَنَتُوْءُ بِالْعَصْبَرَةِ أَوْلَىٰ الْقُوَّةِ إِذْ ۝
قَالَ لَهُ مَوْلَاهُ لَا تَقْرَبْ ۝ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ۝ (٧٦) وَبَتَّعَ فِيمَا مَا تَنَاهَ ۝ اللَّهُ الدَّارُ الْآخِرَةُ ۝ لَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الْأُنْدَىٰ ۝
وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ ۝ لَا تَتَّبِعْ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ ۝ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ۝ (٧٧) قَالَ إِنَّمَا أُوتِنِتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِيٍّ أَوْلَمْ
يَعْلَمْ أَكَّ اللَّهُ قَدَّ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقَرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً ۝ وَأَكْثَرُ جَمِيعًا ۝ لَا يُشْتَدُّ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ ۝ (٧٨)
فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ ۝ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَأْتِيَنَّ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِقَ قَارُونُ إِنَّمَا لَذُو حَظٍ عَظِيمٍ ۝ (٧٩)
وَقَالَ الَّذِينَ أُتْهَا الْعِلْمَ وَيَلَّهُمْ نَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ أَمَرَ ۝ وَعَمِلَ صَلِحًا وَلَا يُلْقَنَّهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ ۝ (٨٠) فَسَفَنَابِعِهِ
وَيَدَاهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ اللَّهُ مِنْ فِتَّةٍ يَنْصُرُ وَهُنَّ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ ۝ (القصص: ٧٦ - ٨١) .

لقد عبر القرآن الكريم عن الخسف بقارون وداره بأنه خسف في الأرض ليزيد من صورة
العذاب الذي نزل به وكأنه شمل الأرض جميما .

لقد حملت الأرض الإنسان واحتلت أفعاله فوق ظهرها وسترت جرائمه في بطنه، فهي
الأساس الذي خلق منه والأصل الذي سيعود إليه ويخرج منه.

وفي قصة ابني آدم كانت الأرض المكان الذي سيضم جثة المقتول مداريا فعلة القاتل الذي
علمه الغراب كيف يستر فعله الشنيع، قال تعالى: ﴿ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ ۖ قَتَلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ ۖ فَأَصَبَّحَ مَنْ

الْفَسِيرَاتُ ﴿٣٠﴾ فَبَعَثَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ يَوْمًا يَسِيرًا فِي الْأَرْضِ لِتُرَيْهُ كَيْفَ يُوَرِّي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَوْمًا قَاهْرًا أَعْجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْأَغْرِبِ فَأُوْرِي سَوْءَةَ أَخِي فَاصْبَحَ مِنَ النَّذِيرِينَ ﴾ (المائدة: ٢٩ - ٣١) .

وهكذا ظهرت الأرض في القصة القرآنية بدلالات متعددة فمرة مكان استخلاف وحياة للإنسان، ومرة ثانية مكان إهلاك وتعذيب للكافرين، ومرة ثالثة وسيلة دعوة للإيمان. فالارض نعمة من الله على الإنسان خلقه منها وسيعيده إليها وسيخرجها منها، رزقه منها وبيسر السبل له فيها، كانت شاهداً على سلوك الإنسان على ظهرها، ودعوة للاعتبار بما حلّ بالأقوام السابقة.

الجنة

تعلق النفوس بكل ما هو جميل ، وإذا كان المكان جميلا فإن النفوس تصبو للارتباط به والإقامة فيه ، والجنة رمز للراحة والهدوء والجمال، وهي تستر ما فيها بما يحيطها من شجر ملتف ، فهي مكان محاط بالجمال من كل ناحية ، وقد قدمت القصة القرآنية نموذجين من نماذج الجنة الأولى هو الجنة الغبية التي جاء وصفها في كتاب الله العزيز ، والثاني نموذج مصغر عن النموذج الأول لا يرقى له لكنه يبقى مكانا مغريا للإنسان على هذه الأرض.

أولاً: الجنة مكان غبي

ترمز الجنة التي سكنها آدم - عليه السلام -، ثم أخرج منها للنعيم الذي يكون بين يدي الإنسان ثم يفقده بلمح العين بسبب تقصيره أو طمعه بما هو أكثر ، فيعاقب بحرمان ما هو بين يديه .لقد قدمت لنا قصة آدم - عليه السلام - ثمرة الطاعة والمعصية ، وضعف الإنسان أمام المغريات ، والتربية الربانية له على تحمل المسؤولية ومقاومة المغريات التي قد تحرمه مما يحب ، وأي مكان قد يعاقب أحد بحرمانه أعظم من الجنة؟

لقد ظهرت الجنة مكانا غيبيا في قصة آدم - عليه السلام -، فهو المكان الذي خلقه الله فيه ونفح فيه من روحه وأمر الملائكة بالسجود له ، وهو المكان الذي وَفَّرَ الله - عزوجل - فيه لآدم الراحة النفسية والجسدية، فلا يجوع فيه ولا يعمر ولا يظمأ ولا يشعر بالحر أو البرد ، وهو المكان الذي عرف فيه آدم عدوه ليحذر منه ، إِنَّه إِبْلِيسُ الَّذِي رَفَضَ السُّجُودَ لِآدَمَ فَاسْتَحْقَ الْطَّردَ مِنَ الْجَنَّةِ؛ لِأَنَّ هَذَا الْمَكَانَ لَا يَتَسْعُ لِلْعَاصِيِّينَ، وَكَانَ ابْتِلَاءُ آدَمَ وَاخْتِبَارُهُ فِيهِ، فَقَدْ حَذَرَهُ اللَّهُ مِنَ الْاقْتِرَابِ مِنْ شَجَرَةِ الْجَنَّةِ، فَوَسَّسَ لَهُ الشَّيْطَانُ وَأَوْهَمَهُ أَنَّهَا شَجَرَةُ الْخَلْدِ وَالْمَلَكُ الَّذِي لَا يَفْنِي فَعَصَى آدَمَ رَبِّهِ... قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَذِّ فَلَنَا الْمَلَكِيَّةُ أَسْجَدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسُ أَبِي﴾^(١) ﴿فَقُلْنَا يَقَادُمُ إِنَّ هَذَا عَدُوُّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَمْ يُخْرِجْنَاهُ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشَقَّقَ﴾^(٢) ﴿إِنَّ لَكَ أَلَا بَجُونَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى﴾^(٣) ﴿وَأَنَّكَ لَا تَقْطُمُهُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى﴾^(٤) فَوَسَّسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَقَادُمُ هَلْ أَدْلُكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخَلْدِ وَمَلِكٌ لَا يَبْلَى﴾^(٥) فَأَكَلَ مِنْهَا فَبَدَأَتْ لَهُمَا سَوْءَةٌ ثُمَّا وَطَفِقَا

بَخِصْفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى إَدَمَ رَبَّهُ، فَنَبَّأَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٣﴾ **قَالَ أَهْبِطَا مِنْهَا جَيْعاً**

بَعْضُكُمْ لِعْنِي عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِنَّكُمْ مِنْ هَذِئِ الْمَوَادِي فَلَا يَصِلُّ وَلَا يَسْقَى ﴿١٢٤﴾ (طه: ١١٦) لقد

حضر الله - عزوجل- آدم من وسوسه الشيطان الذي يريد إخراجه هو وزوجه من الجنة، وحذره من عاقبة الخروج من الجنة، فالخروج منها يعني شقاء آدم.

"إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكُمْ وَلِرَوْجِكُمْ فَلَا يَخْرُجُنَّكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشَقَّقُونَ" وحدثت الغواية وبدأ آدم يفقد امتيازات

بقاءه في هذا المكان، فالأصل في هذا المكان "الجنة" ألا يعرى "سكانها" لكن ذنب آدم كشف سواته، وكأنه علامة إنذار بخروجه منها ... لقد تاب آدم وتاب الله عليه ولكن إرادة الله - عزوجل- بأن يخرج آدم من الجنة ويکابد مشاق الحياة ويكون خليفة الأرض.

إنها الجنة التي كما ذكرنا لا تتسع للعصاة ولا للمستكرين ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ مِنْ صَوْرَتِكُمْ فَلَمَّا

إِلَيْكُمْ كَثُرَكَثُرَ أَسْجُدُوا إِلَيْأَنَا إِبْرَاهِيمَ لَوْلَيْكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴿١١﴾ **قَالَ مَا مَنَّكَ أَلَا تَسْجُدُ إِذْ أَنْتَكُنْ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْنِي**

مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴿١٢﴾ **قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَأْكُلُنَّكَ أَنْ تَكْبَرَ فِيهَا فَأَخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الظَّاغِنِينَ** ﴿١٣﴾ (الأعراف: ١١ - ١٣)

وإنها لذلة ولصغار أن يعصي المخلوق خالقه. لكنه رب حليم ،أخرج إبليس وأخر عقابه إلى يوم القيمة.

لقد منح الله - عزوجل- الشيء الكثير لآدم وزوجه في الجنة، الحرية في الأكل والاختيار إلا من شجرة واحدة ... إنها تربية الله .. التربية على صنع الإرادة، إرادة النفس وكبح جماحها. ﴿وَيَكَادُمُ

أَسْكُنْ أَنَّتَ وَزَوْجَكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَنْرَا هَذِهِ الْسَّجَرَةَ مَتَّكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٤﴾ **فَوَسَوَّسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبَدِّيَ لَهُمَا مَا**

وُدِرَى عَنْهُمَا مِنْ سَوْءَاتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَنَّكُمَا عَنْ هَذِهِ الْسَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكِيَّنَ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ﴿١٥﴾ (الأعراف: ١٩ -

إِنَّهَا شَجَرَةً وَاحِدَةً مُحْرَمَةً فِي ذَلِكَ الْمَكَانِ الَّذِي فِيهِ مَا لَا عَيْنَ رَأَتْ وَلَا أَذْنَ سَمِعَتْ وَلَا خَطَرَ
عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ ... لَكِنَّهُ الطَّعْمُ فِي امْتِلَاكِ هَذَا الْمَكَانِ الَّذِي أَوْصَلَ إِلَى فَقْدَانِهِ ...

ثانياً: الجنة نعيم دنيوي

هي الجنة المكان الذي يطمح الجميع بالمال إليه ... المكان الذي جاء كل الرسل والأنبياء ليبشرُوا أقوامهم به إن هم آمنوا وأصلحوا ... ويحذرُونَهم من حرمانه إن هم كفروا وأفسدوا.

ورد ذكر الجنة بمعنى البستان في بعض قصص القرآن ومن القصص ما كان موضوع المكان "الجنة" هو المحور الذي انبثقت عنه الأحداث ودارت حوله الأفكار.

١- قصة أصحاب الحنة

وتقديم قصة أصحاب الجنة عاقبة الجشع والطمع ،الذي يحرم الإنسان بسببه ما يملك، لقد مثّلت
الجنة في هذه القصة مكان اختبار وموضع ابتلاء لأهلها ... لقد تحول أصحاب هذه الجنة بقصور
تفكيرهم إلى أناس طماعين بخلاء لا يعلمون حق الله في مالهم ... لقد حان وقت الحصاد وقطف
الثمار... إنّها جنة... ودعونا نتخيل المدى الذي يكون عليه البستان ليوصف بالجنة... جنة حرص
 أصحابها على قطف ثمارها دون أن يدخل عليهم مسكين حتى لا يطعموه من ثمارها فعزموا أمرهم
وتفاوضوا واختاروا الوقت المناسب. لكنها المفاجأة .. إنّها قدرة الله التي لا يمكن تحديها ... ماذا حلّ
بجنتهم لقد كانت بالأمس خضراء يانعة مثمرة ... لكنّها اليوم بسوء نيتهم أصبحت كالهشيم .. قال
تعالى: ﴿إِنَّا بِلَوْنَهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَعْنَبَ الْجَنَّةَ إِذْ أَقْسَمُوا لِيَصْرِمُنَا مُضَيِّعِينَ﴾^{١٧} ﴿وَلَا يَسْتَنُونَ﴾^{١٨} ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَافٌِّ مِّنْ زَيْكَ وَهُرَّ تَائِبُونَ﴾^{١٩}
﴿فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرَعِ﴾^{٢٠} ﴿فَنَنَادُوا مُضَيِّعِينَ﴾^{٢١} ﴿أَنِ اغْدُوا عَلَى حَرَثِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَرِيمِينَ﴾^{٢٢} ﴿فَانْطَلَقُوا وَهُرَّ يَنْخَفَقُونَ﴾^{٢٣} ﴿أَنَّ لَا يَدْخُلُنَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مَسْكِينٌ﴾^{٢٤} ﴿وَغَدَوْا عَلَى حَرَثِكُمْ قَدِيرِينَ﴾^{٢٥} ﴿فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَعَسَلُونَ﴾^{٢٦} ﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾^{٢٧} ﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَتَرْ أَقْلَ لَكُمُ الْأَسْبَحُونَ﴾^{٢٨}

فَالْوَاسِعُونَ رَبَّنَا إِنَّا كَانَ طَلَبِيْمَ ٢١ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلَوَّمُونَ ٢٢ قَاتُوا إِنَّنَا إِنَّا كَانَ طَلَبِيْمَ ٢٣ عَسَى رَبَّنَا أَنْ يُبَدِّلَنَا خَيْرًا مِنْهَا إِنَّا إِلَّا رَبَّنَا غَبُونَ ٢٤ (الفلم: ١٧ - ٣٢).

لقد تحولت الجنة إلى صريم كأنها قطعة من الليل لا نور فيها لقد حرموا الفقراء حقهم فحرمهم الله من جنّتهم ... إنّه الجشع والأنانية التي تقود أصحابها لأن يفقد ما في يديه.

٢- قصة صاحب الجنتين

وإذا كان البخل والطمع سببا في حرمان أصحاب الجنة جنّتهم ، فكيف بمن يستكبر ويكرف بخالقه بسبب عظمة ماله وجنته؟ تقدم القصة القرآنية لنا صورة عن هذا النموذج في قصة صاحب الجنتين.

إنّهما جنتان مثمرتان من أعناب محفوفتان بالنخل بنظام هندسي دقيق وبين الجنتين زرع وخلالهما نهر .. يا لها المشهد البديع .. نتخيل الان هذا المكان قبل أن نرى أو نسمع ما يجري فيه .. فقط إنّه مشهد للطبيعة التي تكاد تنطق من جمالها.. قال تعالى ﴿ وَأَنْزَلْنَا لَهُمْ مِنَ الْأَرْضِ مَا شَاءُوا ۚ وَلَمْ يَنْهَا جَنَاحَيْنِ ۚ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمَا زَرْعاً ۚ ۲۱ كَلَّا لِجَنَّتَيْنِ مَا أَنْتَ أَكْلَهَا وَلَمْ تَنْظِلْ مِنْهُ شَيْئاً ۖ وَفَجَرْنَا خَلَالَهُمَا نَهْرَاً ۚ ۲۲ ۷﴾ (الكهف: ٣٢ - ٣٣).

لم تظلم الجنّتان شيئاً من ثمرهما ، لقد صبغ القرآن الكريم المكان بصبغة الإنسان لكنه إنسان لا يظلم ، ثم ها نحن نرى ونسمع صاحب الجنّتين المثمرتين يظلم نفسه ويتحدث بتعجرف وكبر مع صاحبه فهو يملك مالا يملك صاحبه ... وشعوره بالانتفاخ لامتلاكه مثل هاتين الجنّتين بدا واضحاً في سلوكه وكلامه حتى عميت بصيرته وأصابه الغرور وكفر بالذي أنعم عليه بهذا المكان، ﴿ وَكَانَ لَهُ شَرْفٌ قَالَ لِصَاحِبِيهِ وَهُوَ يَحَاوِرُهُ أَنَّا أَكْرَمْنَاكَ مَالاً وَأَعْزَزْنَاهُ ۚ ۲۴ وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ ۚ قَالَ مَا أَطْلَنْنَا أَنْ يَبْدَأْ هَذِهِ أَبْدَأْ ۚ ۷﴾

﴿ وَمَا أَذْلَنُ الْسَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُودْتُ إِلَى رَبِّ الْأَجْدَنَ حَيْرًا مِّنْهَا مُنْقَلَبًا ﴾ (الكهف: ٣٤ - ٣٦). ماذا لو

غار الماء في بطن الأرض فلم تعد تشرب هاتان الجنستان؟؟ ماذا لو خسف الله بهاتين الجنستان؟؟ إلا يستحق صاحب الإنعام الشكر!! وهنا جاء رد صاحبه عليه، يعظه ويرشده إلى التصرف الذي ينبغي أن يقوم به إزاء هذه النعمة، فحركة الشخصية في المكان وكلامها فيه تعبر عمّا يسكن هذه الشخصية، وهو مؤثر في مصيرها وعلاقتها بذلك المكان . ﴿ قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرَتِ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّكَ رَجْلًا ﴾ ﴿ لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أَشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا ﴾ ﴿ وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِنْ تَرَنَّ أَنَا أَقْلَى مِنْكَ مَا لَا وَلَدًا ﴾ ﴿ فَعَسَى رَبِّي أَنْ يُؤْتِنِي حَيْرَانَكَ وَيُرِسِّلَ عَلَيَّا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ فَتُضَيِّعَ صَعِيدًا زَلْقَانًا ﴾ ﴿ أَوْ يُصْبِحَ مَأْوَاهَا غَورًا فَلَنْ تَسْتَطِعَ لَهُ طَلَبًا ﴾ (الكهف: ٤١ - ٤٧) فجاء رد الله -

عزوجل- ﴿ وَأَحِيطَ بِشَرِيفِهِ فَاصْبَحَ يَقْلِبُ كَفَنَهُ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ حَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشَهَا وَيَقُولُ يَا يَتَّنِي لَمْ أَشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا ﴾ ﴿ وَلَمْ تَكُنْ لَّهُ فِتْنَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنْصِرًا ﴾ ﴿ هُنَالِكَ الْوَلِيَّةُ لِلَّهِ الْحَقُّ هُوَ خَيْرُ ثَوَابًا وَخَيْرُ عَقْبًا ﴾ (الكهف: ٤٢ - ٤٤) لقد أحيط بالثمر فلا مناص للنجاة .. ولم يستخدم اللفظ القرآني (أحيط بجنتيه) على الرغم من كونهما هما محور الحديث وهذا من بلاغة التعبير القرآني فالمحصلة النهائية من الجنستان هو الثمر وما فيهما... لقد خوت الجنستان على عروشهما .. وتجرع صاحبها مراراً وحسراً كفره بالله المنعم المتفضل.

٣ - الجنات في قصص بعض الأقوام

وقد جاء ذكر الجنات في قصة موسى - عليه السلام - لبيان ماخسره آل فرعون بکفرهم ، فالمكان "الجنة" رزق ونعمه الله ينعم بها على الإنسان إذا ما اتقى وأصلاح ويحرم منها إذا كفر واستكبر فيصف الله - عزوجل - ما حلّ بالفرعون بقوله: ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ مُوسَى أَنَّ أَنْتَ يَعْبُدُ أَنْتَ كُلُّ مُتَّبِعٍ ﴾^{٥٥} فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنَ فِي الْمَدَائِنِ حَشِيرِينَ^{٥٦} إِنَّ هَذِهِ لَأَشْرَدَةٌ فَلِلُّؤْلُؤِينَ^{٥٧} وَإِنَّمَا لَنَا لَغَيْظُونَ^{٥٨} وَإِنَّمَا لِجَمِيعِ الْحَذْرِينَ^{٥٩} فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّتِنَا وَعَيْنِينَ^{٦٠} وَنَزَرْ وَمَقَامِ كَرِيمٍ^{٦١} كَذَلِكَ وَأَرْثَنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ^{٦٢} فَأَتَبْعَوْهُمْ شَرِيقِينَ^{٦٣} (الشعراء: ٥٢ - ٦٠)

وسورة الدخان ﴿ فَأَسْرِيْ بِعِبَادِي لَيَلًا إِنَّكُمْ مُتَّبِعُونَ ﴾^{٦٤} وَأَتْرُكُ الْجَهَرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُغْرَقُونَ^{٦٥} كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّتِنَا وَعَيْنِينَ^{٦٦} وَزَرْ وَمَقَامِ كَرِيمٍ^{٦٧} وَنَعْمَةً كَانُوا فِيهَا فَنَكِيْهِنَ^{٦٨} كَذَلِكَ وَأَرْثَنَاهَا قَوْمًا إِخْرِيْنَ^{٦٩} (لقد أخرجهم الله عزوجل - من النعيم والجنان بکفرهم وظلمهم وأرثناها بني إسرائيل).

وهذا صالح يذكر قومه بالجنات والزروع التي أنعم الله عليهم بها لعلهم يؤمنون به وينذرون فضلهم عليهم ﴿ كَذَلِكَ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ^{٧٠} إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخْوَهُمْ صَلَحٌ أَلَا نَنْقُونَ^{٧١} إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ^{٧٢} فَأَنْقَوْا اللَّهَ وَأَطْبَعُونَ^{٧٣} وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَنِيهِ مِنْ أَجْرٍ إِنَّ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ^{٧٤} أَتَنْكِونُ فِي مَا هَهُنَّاءَ أَمْيَنِينَ^{٧٥} فِي جَنَّتِنَا وَعَيْنِينَ^{٧٦} وَزَرْ وَنَخْلٍ طَلْعَهَا هَضِيمٌ^{٧٧} وَتَنْحِتُونَ مِنْ الْجِهَالِ بُيُونًا فَنَرِهِنَ^{٧٨} فَأَنْقَوْا اللَّهَ وَأَطْبَعُونَ^{٧٩} وَلَا تُطِيعُوا أَنَّرَ^{٨٠} الْمُسْرِفِينَ^{٨١} الَّذِينَ يَقْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ^{٨٢} قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ^{٨٣} مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مُتَلَّنًا فَأَنْتَ بِشَيْءٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الْصَّادِقِينَ^{٨٤} قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شَرِبٌ وَلَكُنْ شَرِبٌ يَوْمَ مَلْوُمٍ^{٨٥} وَلَا تَنْسُهَا سُوْءٌ فَيَأْخُذُكُمْ عَذَابٌ يَوْمَ عَظِيمٍ

١٥٧ فَعَرَوْهَا فَأَصْبَحَ حُوَانِدِمِينَ ﴿١٥٧﴾ فَأَخْدَهُمُ الْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَا يَةٌ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٥٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُمْ

الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٥٩﴾ (الشعراء: ١٤١ - ١٥٩).

لكن ذلك التذكير لم ينفع ولم يزدهم جمال المكان وعظمته إلا عناها وجوهها.

أما نوح فيغري قومه بفضل الاستغفار والإيمان، إنها الجنات والأنهار التي يطمع أي ممن في الحصول عليها والنعم بها ﴿١٦٠﴾ فَقُلْتُ أَسْتَغْفِرُ رَبِّكُمْ إِنَّهُ كَانَ عَفَارًا ﴿١٦١﴾ لَيْزِلَ السَّمَاءُ عَيْنَكُمْ مَدَرَّاً ﴿١٦٢﴾ وَيَمْدُدُكُمْ
بِأَمْوَالٍ وَبَيْنَ وَجْهِكُمْ لَكُمْ جَنَّتٌ وَمَجْنَلٌ لَكُمْ أَهْنَارٌ ﴿١٦٣﴾ (نوح: ١٠ - ١٢). فالمكان وسيلة جذب وإغراء ودعوة للاستجابة لما يعرض عليهم.

أما سبا فقد كانت من القرى التي أنعم الله عليها، وحبها جمال الطبيعة ووهبها جنة عن يمينها وجنة عن شمالها، ورزقها من الثمرات، لكن القوم كفروا بالله وأعرضوا عن سبيله وجدوا نعمه، فأغرقوهم بليل العرم، وبدل جنتين بجنتين آخرين. قال تعالى ﴿١٦٤﴾ لَقَدْ كَانَ لِسَبَا فِي مَسْكِنِهِمْ أَيْةٌ
جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينِ وَشَمَالِ لَهُمَا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَأَشْكَرُوا لَهُمْ بَلْدَةٌ طَيْبَةٌ وَرَبُّ عَفْوٍ ﴿١٦٥﴾ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرْمِ
وَبَدَلْنَاهُمْ بِجَنَّتِهِمْ جَنَّتَيْنِ دَوَافِقَ أَكْلِيْلِ خَمْطٍ وَأَنْلِيْلِ وَشَعْرٍ وَمِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦٦﴾ ذَلِكَ جَرِيَّتُهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ جُنُّرٍ إِلَّا
أَنَّ الْكُفُورَ ﴿١٦٧﴾ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقَرَى أَلْقَى بَرَكَاتِنَا فِيهَا فَرَقٌ ظَاهِرَةٌ وَقَدَرَنَا فِيهَا أَسْرِيرٌ سِرِيرُهُ فِيهَا أَيَّالٌ وَأَيَّامٌ أَمْنِينَ
﴿١٦٨﴾ فَقَالُوا رَبَّنَا بَعْدَ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمَوْنَا أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَوَزَقْنَاهُمْ كُلَّ مُزَقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَا يَدِينَ لِكُلِّ صَبَارٍ
شَكُورٍ ﴿١٦٩﴾ وَلَقَدْ صَدَقَ عَلَيْهِمْ إِنْلِيسُ طَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ سُلْطَنٍ إِلَّا لَعَلَمَ
مَنْ يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِنْهَا فِي شَأْنٍ وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَئْءٍ حَفِيظٌ ﴿١٧١﴾ (سبا: ١٥ - ٢١) لقد أبدلو بجنتيهم ذاتي المناظر الحسنة والظلال والثمار الناضجة تبدلت إلى شجر الآراك والسدر ذي الشوك الكثير والثمر

القليل وذلك بسبب كفرهم وتكذيبهم الحق وجحودهم نعم الله عليهم حيث كانوا في نعمة وغبطة وعيش رغيد وبلا داء وآمنة وقرى متواصلة متقاربة بعضها من بعض كثيرة الأشجار والزرع والثمار بحيث أن مسافرهم لا يحتاج إلى حمل زاد ولا ماء، بل حيث نزل وجد ماء وثمارا^(١) لقد غير سلوك قوم سباً صورة المكان، فلم يعد المكان الأليف الذي يتمتعون به، ويعطى لهم من خيراته.

وهكذا ظهر هذا المكان (الجنة) نعمة حرم منها أصحابها بسبب عصيانهم أو طمعهم أو كفرهم، ووسيلة للدعوة للإيمان فالجنة رزق يوهد للطائعين .

(١) ابن كثير / تفسير القرآن العظيم / ج ٣ / ص ٥١١ - ٥١٣

البحر

يرمز البحر للحياة بهدوء أمواجه وتلاطمها ، فالحياة بين هذا وذاك ، بين السكون والاضطراب، بين الأمان والخوف، بين النجاة والهلاك. والبحر يبيت في النفس مشاعر متناقضة فقد يشعر بالانطلاق نحو الأفق ونحو حياة جديدة ، يشعر بالصفاء والراحة والهدوء، والبحر ذاته قد يشعر بالخوف والوحدة والفرق. لقد بدا هذا التنوع في دلالات البحر في قصص القرآن الكريم ، وناسب هذا التنوع اختلاف الرؤية التي تحملها كلّ قصة .

"عرض القرآن الكريم للبحر، يثير في النفس الشعور بالجمال، فالبحر مصدر من مصادر الجمال في هذه الطبيعة، جميل بكل ما فيه، لونه والزينة التي تستخرج من باطنه ومنافعه الكثيرة، وسر جمال هذا المكان، يمكن في معان ثابتة في النفس حول معنى الجميل مثل الاتساع، الذي يعطي فضاءات واسعة تخرج الإنسان من الضيق بأنواعه الكثيرة التي يصادفها في حياته، ويشعره بأن له في هذا الاتساع مكاناً يأوي إليه، ويختلص فيه من ضيقه وشدته"^(١) .

ولا يقتصر عرض القرآن للبحر على معاني الاتساع والانتفاع وحسب، بل قد عرض الجانب الآخر منه جانب الإهلاك والتدمر والخوف.

لقد جاء البحر في ثلاثة قصص قرآنية مشاركاً للحدث وفاعلاً فيه ، وهي قصة موسى وقصة يونس وقصة نوح - عليهم السلام ،- ويمثل البحر في قصة موسى - عليه السلام - مراحل متعددة من حياته ومحطات مختلفة انتقل عبرها - عليه السلام -، أما قصة نوح - عليه السلام - قصة الطوفان، إن جاز أن نعد الماء الذي انهر من السماء وانفجر من الأرض وغطى سطحها - بحراً مؤقتاً للحدوث شارك في إغراق القوم الكافرين ، أما قصة يونس - عليه السلام - فقد حمله البحر في باطنه بداية على ظهر السفينة ونهاية في بطن الحوت داخل البحر.

ويشمل الحديث عن البحر في قصص القرآن الحديث عن السفينة التي ركبت البحر وركبها أبطال القصص القرآني.

(١) عزة الحلبي/ جماليات المكان في القرآن الكريم / ص ١٠٩

قصة يونس - عليه السلام- / البحر - السفينة - بطن الحوت

تقديم قصة يونس - عليه السلام- فكرة الانتقال من المكان أو الاعتزال عنه بإرادة الإنسان الذي عاش فيه ؛ لأن هذا المكان يمارس ضغوطه على الشخصية فلم تعد تملك الصبر عليه أو الرغبة في تغييره للأفضل. فقد غضب يونس - عليه السلام- وانزعج من عناد قومه وجحودهم لدعوته إلى الله، فقرر تركهم ولم ينتظر أمر الله في ذلك، فركب السفينة لكنَّ أمر الله لا مفر منه، الفلك مشحون، والخطر من الثقل على ظهر السفينة قد يودي بكل من عليها، وكانت قسمة العدل والمساهمة على من يلقى من على ظهر السفينة موقف رهيب حين يرى الإنسان روحه تزهق دون قدرة على الفرار وأي فرار في عرض البحر، لكن قدرة الله - عزوجل- فوق كل شيء فأرسل جندياً من جنده ليلقط النبي يونس - عليه السلام- إِنَّهُ الْحَوْتُ الَّذِي ارْتَبَطَ أَسْمُهُ بِيُونُسَ - عليه السلام- به "ذا النون" مكان رهيب وسجن عجيب، حياة دون مقومات للحياة، "ظلمة البحر" وظلمة بطن الحوت، وظلمة النفس التي تعاني أمراً عظيماً.

قال تعالى: ﴿ وَلَئِنْ يُؤْسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾١٣٩﴿ إِذَا أَبْقَى إِلَى الْفَلَكِ الْمَشْحُونِ ﴾١٤٠﴿ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ ﴾١٤١﴾
 فَالْقِمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴾١٤٢﴿ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ السَّيِّخِينَ ﴾١٤٣﴿ لَلَّبَثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمٍ يُعْشَنُ ﴾١٤٤﴿ فَنَبَذَنَهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَيِّمٌ ﴾١٤٥﴿ وَأَبْنَتَنَا عَلَيْهِ سَجَرَهُ مِنْ يَقْطِينِ ﴾١٤٦﴿ وَأَرْسَلَنَاهُ إِلَى مِائَهُ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴾١٤٧﴿ فَعَامَنَا فَمَنَعَنَاهُمْ إِلَى حِينٍ ﴾١٤٨﴾
 (الصفات: ١٣٩ - ١٤٨).

وتأتي سورة الأنبياء لتوضّح سبب ركوب يونس السفينة، قال تعالى: ﴿ وَذَا الْنُونِ إِذَا ذَهَبَ ﴾١٤٩
 مُعَذِّبًا أَفَلَمْ أَنَّ نَقِيرَ عَيْنِهِ فَكَادَ فِي الظُّلْمَتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَّ شَبَحَنَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾١٥٠﴾
 فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ ثُجِي الْمُؤْمِنِينَ ﴾١٥١﴾ (الأنبياء: ٨٧ - ٨٨) لم ينتظر يونس إذن أمر الله - عزوجل- بالهجرة عن قومه ، فاستحق بذلك مكاناً لا يمكن لأحد مِنْ تصوّره إِنَّه بطن الحوت ظلمة وضيقاً وانغلاقاً وخوفاً كلها مجتمعة في مكان واحد.

لقد "سلط القرآن الكريم الضوء على مكان ناء جداً من الصعب الوصول إليه أو تصور إمكانية احتوائه لحدث ما، هذا المكان هو بطن الحوت الذي أصبح بأمر الله تعالى في وقت زمني معين، ولمدة زمنية معينة، مكان إقامة مؤقتة ليونس -عليه السلام-^(١) لقد نجى الله يومنس -عليه السلام- من بطن الحوت بفضل تسبيحه "فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسْتَحِيْحِينَ ﴿٤﴾ لَلَّيْلَةَ فِي بَطْرِيهِ إِلَى يَوْمِ يُعْنَوْنَ" ودعائه المقرب بالذنب "فَكَادَ فِي الظُّلْمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَّتْ سُبْحَنَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ" وأتم الله فضله عليه بأن أخرجه إلى العراء وأنبت عنده شجرة من يقطين ، تعطيه الظل والثمر ثم أرسله إلى مئة ألف أو أكثر فأمنوا كلهم ^(٢) فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةً مَأْمَتَ فَنَفَعَهَا إِلَّا قَوْمٌ يُؤْشِنُ لَمَّا آمَنُوا كَشَفَنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْرِيِّ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَسْغَتْهُمُ إِلَى حِينٍ (يونس: ٩٨) وتدل الآية على أنه ليس هناك من القرى التي أهلكت قرية آمنت ونفعها إيمانها؛ لأنهم كانوا يؤمنون حينما ينزل العذاب بهم، ولكن قوم يومنس -عليه السلام- حينما بدت لهم أسباب العذاب وظنوا أنه واقع بهم، رجعوا إلى أنفسهم وأمنوا بربهم^(٢).

وبالعودة إلى المكان الذي حبس فيه يومنس -عليه السلام- ووصف القرآن له "الظلمات" لا يشعر فقط بالظلمة وافتقار الضوء بل يشعرنا بالعمق والبعد، "فنحن أمام مكان بعيد جداً لا يمكننا تصوره، إضافة إلى الخفاء، فالبحر بحد ذاته عالم من الخفاء، يخفي سطحه ما دونه، فكيف إذن بأعماقه؟! يضاف إليها بطن الحوت، هل يمكن لأي مخلوق أن يرى باليمن المجردة، أحشاء كائن آخر وهو مقيم فيها؟ إذن هذه الظلمات التي سنبدوها، بظلمة بطن الحوت، أعطت أبعاداً للمكان، ووصفاً له، فالمكان الذي يقدم فيه الآن سيدنا يومنس -عليه السلام-، هو مكان مظلم جداً، ومadam مظلماً، فهو غير واضح الملامح، فيه غموض، والغموض والظلمة يتبران في النفس الإنسانية الخوف الشديد، بل الهلع لأنهما يشكلان بالنسبة إليه المجهول، يضاف إلى ذلك كله، شعوره بالقصير تجاه ربه تعالى، فإن ما فيه هو عقاب له، على تركه وهذا يزيد شعوره بالخوف، وإن كان خوفاً من نوع آخر، وهو الخوف من الله تعالى، وهنا نرى كيف أن هذا المكان، وهو بطن الحوت، بعيد عن الأنوار، وعن الإدراك، والبعيد عن المخلوقات، في عمق البحار، وهو مكان اختاره الله تعالى ليكون مكاناً، يعيد فيه بطل هذا

(١) عزة الحلبي / جماليات المكان في القرآن الكريم / ص ١١٢

(٢) فضل عباس / قصص القرآن / ص ٦٢٤

الموقف حساباته، ويعيد أيضا ترتيب أوراقه، فقد أراد الاعتزال عن قومه، فعزله خالقه في مكان، لا يطاله فيه إنس ولا جن، معزول ليس عن البشر فحسب، بل عن الكائنات المألوفة لديه، وعن الكون الذي يعرفه، من شمس وقمر، ومن سماء وأشجار وجبال و...لقد عزل في مكان سنته الظلام..."^(١)

قصة نوح - عليه السلام / الطوفان - السفينة

وإذا كان البحر يرمز للحياة بهدوئها واضطرابها فإن السفينة ترمز للنجاة وللوصول إلى شاطيء الأمان .لقد قدمت قصة نوح - عليه السلام - فكرة الثبات على الموقف الذي نؤمن به رغم كثرة المعارضين ،وفكرة العناد على الباطل لاتباع ما هو موروث وللاستكبار على الضعفاء والمساكين.على الرغم من ثبات نوح على موقفه في الدعوة وطول المدة التي قضتها في ذلك استمر إصرار قومه على تكذيبه ومعاداته.

وعلى الرغم من كون قصة نوح ليس فيها ذكر للبحر لا يمكن أن نتخيل الماء الذي التقى بين الأرض والسماء إلا بحرا هائجاً أغرق ودمر وأهلك القوم الكافرين المكذبين.

لقد لبث نوح في قومه زمناً طويلاً يدعوهם ولا يدخل جهداً في سبيل هدايتهم إلا أنهم أصرروا في عنادهم وتكذيبهم. قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَمَّا فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ لَا يَخْسِدُنَّ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الْطُوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴾^(١٤) فَأَبْيَتَهُ وَأَصْبَحَ السَّفِينَةُ وَجْهَنَّمَهَا آيَةً لِّلْعَنَائِينَ ﴾ (العنكبوت: ١٤ - ١٥).

إنها قصة الطوفان الذي لم يذر شيئاً على وجه الأرض، وإن الماء الذي التقى على أمر قد قدر، فكان حدوثه معجزة لا يمكن توقعها ،لقد وظف القرآن الكريم هذا المكان دليلاً على صدق نوح - عليه السلام - الذي طلب منه قومه معجزات كثيرة ثم أعلنوا كفرهم بها سلفاً قبل حدوثها ،فكانـت معجزة الطوفان التي لا يمكن التكذيب بعدها ،فحملـت السفينة نوهاـ التي أمره الله بصنعـهاـ مع من آمن

(١) عزة الحلبي/ جماليات المكان في القرآن الكريم / ص ١١٣

وأغرق الطوفان الكافرين الباقيين ومنهم ابن نوح وزوجه فلا نسب إلا نسب الإيمان. لقد أثار صنع المكان "السفينة" السخرية والاستهزاء من قبل قوم نوح؛ لأن طبيعة المكان الذي يحيون فيه لا يوجد فيه بحر ليحمل سفينته نوح فما كان منهم إلا الاستهزاء وعدم التصديق فأجابهم نوح -عليه السلام- إجابة الواثق بربه فنوح يعلم بأنّهم قوم مغرقون وأنّ السفينة التي أمره الله بصنعها هي آداة النجاة "

وَيَصْنَعُ الْفَلَكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنَّا فَإِنَّا شَرُّ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٢٨﴾ فَسَوْفَ

تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيَهُ وَيَحْلُّ عَيْهُ عَذَابٌ مُّقِيمٌ" لقد صور لنا القرآن الكريم مشهد صنع السفينة

واستمرارية نوح بهذا الفعل "**وَيَصْنَعُ الْفَلَكَ**" فالمضارع فيه استمرار بالفعل، ولكن لماذا لم يحصل

نوح على السفينة جاهزة دون عناء صنعها؟ ولماذا لم تصنعها الملائكة في سرعة قياسية؟ قد يكون في إعطاء قوم نوح الفرصة في مشاهدة السفينة وهي تصنع مجالاً ليعودوا لأنفسهم ويتذكروا في صنع نوح وثباته في دعوته لعل هناك فرصة لمزيد من المؤمنين على الرغم من إيحاء الله - عزوجل- لـنوح "أَنَّه لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمٍ إِلَّا مِنْ أَمْنٍ" وقد يكون في ذلك الفعل - صنع السفينة أمام عيونهم - إرهاق لنفسهم وبث للخوف فيها وإن لم يظهروا ذلك كما قد يكون شعورهم بالحسرة والندم أكبر بعد انهمار الماء من السماء واندفاعه من الأرض على ما فرطوا وما سخروا من نوح ودعوته وسفينته ولا يفوتنا ذكر مشهد مؤثر وعظيم مشهد الأمواج المتلاطمـة العالية على الجبال والسفينة تتداولـها هذه الأمواج فيبصـر نوح ابنـه فيـدـعـوه لـلـإـيمـان ولـلـركـوب "يـا بـنـي لـا تـكـنـ معـ الـكـافـرـينـ" لكنـهـ الـكـفـرـ وـالـعـنـادـ وـعـدـمـ الإـحـاطـةـ بـقـدـرـةـ اللهـ - عـزـوجـلـ" قـالـ سـأـويـ إـلـىـ جـبـلـ يـعـصـمـيـ مـنـ مـاءـ" فـمـاـ كـادـ يـجـبـ الأـبـ عـلـىـ هـذـاـ الـفـهـمـ الـقاـصـرـ إـلـاـ وـكـانـ الـمـوـجـ قـدـ اـبـتـلـعـ الـابـنـ الـكـافـرـ" قـالـ لـاـ عـاصـمـ الـيـوـمـ مـنـ أـمـرـ اللهـ إـلـاـ مـنـ رـحـمـ وـحـالـ بـيـنـهـمـ الـمـوـجـ فـكـانـ مـنـ الـمـغـرـقـينـ" وـهـكـذاـ يـسـدـلـ السـتـارـ عـلـىـ مشـهـدـ إـغـرـاقـ اـبـنـ نـوـحـ وـالـقـوـمـ الـكـافـرـينـ لـنـرـىـ الـأـرـضـ وـالـسـمـاءـ تـعـودـانـ لـطـبـيـعـتـهـمـ اـسـتـجـابـةـ لـأـمـرـ اللهـ، وـتـسـتـقـرـ السـفـينـةـ وـيـنـجوـ الـمـؤـمـنـونـ وـيـنـتـصـرـ الـحـقـ عـلـىـ الـبـاطـلـ.

إنّ رفض ركوب ابن نوح السفينة هو رفض للإيمان؛ لأنّ هذا المكان لم يسمح له إلا بضم المؤمنين "سـأـويـ إـلـىـ جـبـلـ يـعـصـمـيـ مـنـ مـاءـ" فـمـاـ حـمـلـتـهـ السـفـينـةـ وـلـاـ عـصـمـهـ الـجـبـلـ!

إنّ المتذمّر بجمال التعبير القرآني ودقته يلفت نظره قوله تعالى عن السفينة اركبوا فيها ولم يقل اركبوا عليها "ليعطينا لقطة عن طريقة صنع السفينة، فقد صنعوا نوح -عليه السلام- بوحي من الله

على أفضل نظام في الياх ، ولم يصنعها بطريقة بدائية ، فهم- إذن- لم يركبوا على سطحها ، بل تم بناؤها بما يتاح لهم السكنى فيها ، وخصوصاً أن تلك السفينة تحمل وحوشاً وهواة وحيوانات بجانب البشر ، لذلك كان لا بد من بنائها على هيئة طبقات وأدوار .^(١)

قصة موسى - عليه السلام - البحر - السفينة - التابوت

تقدم قصة سيدنا موسى - عليه السلام - فكرة الحرية والسعى نحوها ، وتبيّن أن حرية الإنسان تبدأ من داخله ، قبل أن تكون في المكان الذي يحيا فيه ، وأن يتحرر الإنسان من جبنه وضعفه وينتصر على مخاوفه ، قبل أن ينتصر على عدوه ، فبنوا إسرائيل تحرروا من فرعون ، لكنهم لم يتحرروا من أنفسهم ، فظلّ الذل والخنوع مسيطرًا عليهم حتى رفضوا الدخول إلى المكان الذي فيه رفع لقدرهم لأنهم خافوا أهله فعوقبوا بالتشريد والتشرد في الأرض ولم يؤذن لهم بدخول الأرض المقدسة من جديد.

وأما البحر فقد لعب دوراً هاماً مع بني إسرائيل وفي حياة موسى - عليه السلام - منذ ولادته وحتى خلاصه من عدوه ، إنه الصديق الذي ساند موسى والجندي الذي سخره الله - عزوجل - لأمر نبيه - عليه السلام -.

لقد قدمت قصة موسى - عليه السلام - مع فرعون أنموذج الطاغية الذي لا حد لظلمه ، فوصل ظلمه إلى الأطفال الرضع الذين لا حول لهم ولا قوة ، فسفك دماءهم ، وأذاق أمهاطهم مرارة الحسرة

(١) تفسير الشعراوي / م ١١ / ص ٦٥٠٠

والألم . قال تعالى مخاطباً بني إسرائيل : ﴿ وَإِذْ بَعَثَنَاكُمْ مِنْ مَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَدَابِ يُدَّعُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ ذَوَاتَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾ (البقرة: ٤٨)، لكن ذلك لم يدم فهذا الطفل موسى يولد

فتختاف أمه عليه من بطش فرعون فيوحي لها ربها بأن تضعه في التابوت وترميته في البحر ... لقد حمل البحر موسى وكان أميناً عليه حافظاً له بأمر الله - عزوجل- حتى ألقاه على الساحل ليحدث عنصر المفاجأة أو المفارقة في قصة موسى - عليه السلام - ليلقطه عدوه وعدو الله، عدو الذي يفترض أن يقتل هذا الطفل الرضيع بعد سقوطه بين يديه، وعدو الله الذي نصب نفسه إليها مكان الله، إنها المفارقة يحمل البحر موسى ليضعه بين يدي فرعون ليكون النور الذي سيضيء في ظلام الظلم، وهو ذات اليد التي ستقضي على هذا الحاكم الطاغية.

وكان موسى الوليد قد وضع في هذا التابوت ودفن في الماء رمز الحياة ليبعث منها بطلاً منقذًا ثم يلقيه الساحل لتشبه هذه العملية إلى حد بعيد إفقاء الرحم للمولود خارجه ^(١).

قال تعالى ﴿ وَلَقَدْ مَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى ﴾ ٣٧ ﴿ إِذَا وَحَيْنَا إِلَيْكَ أُمَّكَ مَا يُوحَى ﴾ ٣٨ ﴿ إِنَّ أَقْدِيفَهُ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفُهُ فِي الْيَمِّ ﴾

﴿ لَيْلِيقَهُ أَلَيْمَ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذُهُ عَدُوُّهُ وَأَقْتَلُهُ وَالْقِيتُ عَلَيْكَ مَجْهَةً مِنْ فِي وَلَنْصَنَعَ عَلَى عَيْقِي ﴾ ٣٩ ﴿ إِذْ تَمْشِي أَخْتَكَ فَقُولُ هَلْ أَدْلُكُ عَلَى مَنْ يَكْفُلُهُ فَرَجَعْتَ إِلَيْكَ أُمَّكَ كَيْ نَفَرَ عَيْنَهَا وَلَا تَحْرَنَ ﴾ ٤٠ (طه: ٣٧ - ٤٠)

وفي محطة ثانية نجد البحر يظهر في حياة موسى - عليه السلام - لينقله إلى عالم العلم والحكمة ... فالبحر الآن هو نقطة التقائه بالرجل الصالح الذي سيعلميه، قال تعالى ﴿ فَوَجَدَ أَعْبَدًا مِنْ عِبَادَنَا إِلَيْتَهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا ﴾ ٤١ ﴿ قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَيْعُكَ عَلَى أَنْ تَعْلَمَ مِمَّا عِلْمَتَ رُشْدًا ﴾ ٤٢ ﴿ قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْطِيعَ مَعِي صَبَرًا ﴾ ٤٣ ﴿ وَكَيْفَ تَصِيرُ عَلَى مَا لَوْ تُحْكِمْ بِهِ خَبْرًا ﴾ ٤٤ ﴿ قَالَ سَتَحْدِثُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ﴾ ٤٥ ﴿ قَالَ إِنْ أَتَبْعَثُكَ فَلَا تَسْتَلِنِي عَنْ شَئْءٍ وَهَتَّ أُخْرِثُ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴾ ٤٦ (الكهف: ٦٥ - ٧٠) لقد ركب موسى السفينة مع

(١) سليمان الطراونة/دراسة أدبية نصية للقصة القرآنية/ص ٤

الرجل الصالح وبدأ الدرس الأول. قال تعالى: ﴿فَأَطْلَقَاهُنَّ إِذَا رَكِبُوا فِي السَّفِينَةَ حَرْقَهَا قَالَ أَخْرَقْنَاهُنَّ لِنَغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا﴾ (الكهف: ٧١). وما إن استويا على ظهر السفينة حتى أحدث فيها الرجل الصالح خرقاً، فاستنكر موسى فعله، وعده من الإيذاء والتخييب، لكن معلمه ذكره بأنه لن يستطيع الصبر ليعرف الحكمة من فعله ذلك، وبعد تطاويفها وبعد عدم استطاعة موسى الصبر، كشف له معلمه مالم يستطع موسى عليه صبرا. فقال: ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسْكِينٍ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعْيَّبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يُلْمِدُهُ كُلَّ سَفِينَةٍ عَصَبًا﴾ (الكهف: ٧٩) هكذا تبين لموسىحقيقة الأمر ، فالظاهر هو الشر وتخييب السفينة واحتمالية غرق من عليها في البحر، لكن الحقيقة أن ذلك لمصلحة أصحاب السفينة ونجاة لهم من الملك الذي يعتدي ويغتصب السفن السليمة.

لقد علم درس البحر موسى -عليه السلام- الصبر ومحاولة التبصر بحقيقة الأمور وعدم الحكم على ظاهرها وترك الغيب الذي يدير الأمر بحكمته. فالرجل الصالح تصرف في المكان على نحو غريب، لكنه تصرف عن علم وبصيرة كان ظاهره إحداث الشر في المكان وباطنه الخير للمكان وأهله.

والبحر ذلك المكان الواسع الذي تربط به عادة مشاعر الخوف والترقب؛ لأنه رمز للمجهول والغامض الذي تحمله أمواجه في طياته^(١).

لقد تحدى موسى -عليه السلام- فرعون وملأه وأجرى الله على يديه المعجزات، فهذه عصاه تلتف ما يألفون، وينقلب السحرء مؤمنين ، ويمضي موسى بأمر الله مع المؤمنين هربا من فرعون وجنوده. قال تعالى: ﴿وَأَوْجَحْنَا إِلَيْهِ مُوسَى أَنَّ أَشْرِي بِعِيَادَتِ إِنْكَرُ مُتَّبِعُونَ ٥٣ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنَ فِي الْمَدَائِنِ حَشِّرِينَ ٥٤ إِنَّ هُنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا ذِمَّةٌ قَبِيلُونَ ٥٥ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِطُونَ ٥٦ وَإِنَّا لَجَيِيعُ حَذِرُونَ ٥٧ فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ حَيَّاتِهِمْ وَعَيْنُونَ ٥٨ وَكُوْزٌ وَمَاقِمٌ كَبِيرٌ ٥٩ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنَى إِسْرَائِيلَ ٦٠ فَاتَّبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ ٦١ فَلَمَّا تَرَهُمُ الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْبَحْتُ مُؤْمِنًا إِنَّا مُذْرِكُونَ ٦٢ قَالَ كَلَّا إِنَّ

(١) كرم طبنجة، جماليات المكان في القصة العربية ، ص ١٥٦

مَعِي رَبِّ سَيِّدِنَا ﴿٣﴾ فَأَوْحَيْتَنَا إِلَى مُوْسَى أَنْ أَضِّبِ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالْطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴿٤﴾ وَأَذْلَنَا تَمَّ
الْآخَرِينَ ﴿٥﴾ وَأَجْبَنَا مُوسَى وَمَنْ مَعْهُ أَجْمَعِينَ ﴿٦﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ ﴿٧﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِيْةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ وَإِنَّ
رَبَّكَ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٩﴾ (الشعراء: ٥٢ - ٦٨) .

مشهد عظيم وشعور مهول بأنّ فرعون وجنوده قد أدركوهم "إِنَّا لِمَدْرَكُونَ" لكنّ ثقة موسى وإيمانه بربه أعظم من إيمانهم "قال كلا إن معي ربي سيهدين" العدو من ورائهم والبحر من أمامهم لا قارب ولا شراع فكيف السبيل إلى النجاة؟ وتحت المفاجأة ويؤدي المكان "البحر" دوراً عظيماً في هذا المشهد لا يخطر على بال وها هي عصا موسى تشق البحر بأمر الله "فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم"!

ونظهر اليابسة طريقاً يعبر من فوقه المؤمنون قال تعالى ﴿١﴾ وَلَقَدْ أَوْحَيْتَنَا إِلَى مُوسَى أَنَّ أَسْرِيَ بِعِبَادِي
فَأَنْهَرْتَ لَهُمْ طَرِيقاً فِي الْبَحْرِ يَسِّرَ لَا تَخْفَثُ دُرْكًا وَلَا تَخْشَى ﴿٢﴾ فَأَتَبَعَهُمْ فَرْعَوْنُ بِمُنْهَدِهِ فَغَشَّاهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشَّاهُمْ ﴿٣﴾ وَأَضَلَّ
فَرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى ﴿٤﴾ (طه: ٧٧ - ٧٩) لقد أنذر فرعون وملأه قبل غرقهم فابتلاهم الله - عزوجل -

بتسع آيات لعلهم يرجعون لكنهم حين رفع عنهم الابتلاء نكثوا عهدهم وأرادوا أن يبطشوا بموسى ومن معه من المؤمنين قال تعالى ﴿٥﴾ فَأَرَسَلْنَا عَلَيْهِمُ الْطُّوقَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقَمَلَ وَالضَّفَاعَ وَالَّدَمَ إِذَا كَتَبَتْ فَأَسْتَكْبَرُوا
وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٦﴾ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الْرِّجْزُ قَالُوا يَمْوَسَى أَدْعُ لِرَبِّكَ بِمَا عَاهَدَ عَنْدَكَ لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الْرِّجْزَ
لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٧﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الْرِّجْزَ إِلَيْهِمْ أَجَلَلُهُمْ بِلَغُوْهُ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ ﴿٨﴾
فَأَنْقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ إِنَّهُمْ كَذَّبُوا بِإِيمَانِنَا وَكَانُوا عَنْهَا عَنْفِلِينَ ﴿٩﴾ (الأعْرَاف: ١٣٣ - ١٣٦)

ف كانت النتيجة نجاة المؤمنين غرق الكافرين.

ولكن لماذا كان البحر هو وسيلة النجاة لبني إسرائيل ووسيلة الهلاك لفرعون وجنده وليس أي مكان آخر؟ لماذا لم تكن السفينة هي وسيلة الهرب؟ لعل ذلك له ارتباط بشخصية بنى إسرائيل التي تؤمن بالماديات فهي تحتاج إلى معجزة لتثبت وليس مجرد سفينة ينجون بها، لقد شق البحر أمام

أعينهم ومشوا على أرضه بأرجلهم ثمْ كان بعد ذلك غرق عدوهم بذات المكان الذي كان وسيلة نجاتهم وعلى الرغم من كل ذلك لم يثبتوا طويلا فقد انتكسوا عند أول محطة وطلبوا من موسى -عليه السلام- إليها يرونـه بأعينهم كأصنام القوم الذين قابلوهم بعد حادثة البحر.

أماكن التجمعات البشرية (القرية / المدينة)

جاء ذكر المدينة والقرية في الكثير من قصص القرآن الكريم، فقد ضمت أحداثاً هامة وظهرت أحياناً باسمها المخصوص كمصر وسباً ومدين ، وأحياناً كان يشار لها ولغيرها باسم القرية أو المدينة وفق ما يناسب سياق القصة والتعبير القرآني عنـه .
وما يميز القرية والمدينة أنها أماكن يتعيش فيها مجموعة من الناس ويشكلون قبائل أو أقواماً فيها يرتبطون داخل المكان بعلاقات مشتركة.

القرية

لقد ورد ذكر القرية في القصة القرآنية بأكثر من سياق فهناك سياقات مشتركة بأحداث معينة وهناك سياقات انفردت بقرية ما بحدث دون غيرها من القرى.

فبعد الحديث عن مصير الأقوام الكافرة في القصص القرآني نجد أن أغبـهم نـزل العذاب في قراهم التي هي مكان سـكـنـهـمـ وأـمـنـهـمـ ، فـقـوـمـ لـوـطـ دـمـرـ هـمـ اللـهـ بـفـسـقـهـ وـأـرـسـلـ عـلـيـهـمـ رـجـزاـ من السـمـاءـ بـعـدـ أنـ كـانـواـ يـسـرـحـونـ وـيـمـرـحـونـ فـيـ قـرـيـتـهـمـ غـيرـ آـبـهـينـ بـأـحـدـ فـاصـبـحـ المـكـانـ آـيـةـ لـمـنـ بـعـدـهـمـ . قال تعالى:

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَحْشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴾٢٨
لَتَأْتُونَ الْجَاهَ وَتَقْطَعُونَ السَّكِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَنْتُمْ
بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ مِّنَ الصَّادِقِينَ ﴾٢٩﴾ قَالَ رَبِّيْ أَنْصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ ﴾٣٠﴾ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلَّنَا إِبْرَاهِيمَ
إِلَيْهِشَرِئِيْ قَالَ إِنَّمَا مُهَلِّكُكُوكَوْأَهْلِ هَذِهِ الْقَرِيَّةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا أَظَلَّلِيْمِيْنَ ﴾٣١﴾ قَالَ إِنَّكَ فِيهَا لُوطًا قَالَوا لَخْرُ أَعْلَمُ بِمَنْ
فِيهَا لِتُنْهِيَّهُ وَأَهْلَهُمْ إِلَّا أَمْرَأَهُ كَانَتْ مِنَ الْفَدِيْرِيْنَ ﴾٣٢﴾ وَلَمَّا آتَنَجَاءَتْ رُسُلُّنَا لُوطًا سَوْتَهُمْ وَضَاقَ بِهِمْ

ذَرْعَاوَقَلُوا لَا تَحْفَ وَلَا تَحْزِنْ إِنَّا مُنْجِوْكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا أَمْرَأْتَكَ كَانَتْ مِنْ الْفَنِيْرِبَ ٣٣ إِنَّا مُنْزِلُوكَ عَنْ أَهْلِ هَذِهِ

الْقَرِيْةِ رِجْزَأَ مِنْ أَسْمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ٣٤ وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً يَنْكِهَ لِقَوْمٍ يَقْلُوبُونَ) العنكبوت:

(٢٨ - ٣٥). ولم يكتف قوم لوط بممارسة الشذوذ وحسب ، بل أنكروا على آل لوط طهارتهم، فثاروا عليهم وأمروا بإخراجهم من القرية التي لم تعد تتسع إلا للشاذين الفاسقين. قال تعالى: ﴿ وَلُوطًا إِذْ

قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُوكُمُ الْفَحْشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ ٣٥ أَيْنُكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ يَجْهَلُونَ

﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ إِلَّا لُوطٌ مِنْ قَرِيْتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَطْهَرُونَ ٣٦﴾ (النمل: ٥٤ -

(٥٦) وفي قولهم "من قريتكم" بيان لغور وتكبر قوم لوط وكأنهم يعتبرون لوطا والمؤمنين معه دخلاء عليهم ، ولا مكان لهم بينهم ؛ لأنهم يتظاهرون عن فعل الفاحشة ^(١). وهذا أنجى الله - عزوجل - لوطا من هذه القرية التي يعمل أهلها الخبائث ﴿ وَلُوطًا إِنَّهُمْ حَكَمًا وَعِلْمًا وَنَجِيَتْهُ مِنَ الْقَرِيْةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ

الْمُنْكَرِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَدِيْقِينَ ٧٤) (الأنبياء: ٧٤)

لقد أهلكت ودمرت قرى بسبب كفر أهلها كقوم هود ولوط وصالح ... ومن القرى التي كشف عنها العذاب بسبب إيمانها قوم يونس الذين رجعوا للإيمان فكشف العذاب عن قريتهم. قال تعالى: ﴿

فَلَوْلَا كَانَتْ قَرِيْةً إِمَّا نَفَعَهَا إِيمَّنَهَا إِلَّا قَوْمَ يُؤْسَ لَمَّا إِمَّنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْغَزِيرِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَعَنَّهُمْ إِلَى حِينِ

﴾ (يونس: ٩٨) .

وجاءت القرية في بعض القصص موضع اختبار وابتلاء ، فهذا الذي يمر على قرية خاوية على عروشها ويتتساءل عن قدرة الله - عزوجل - في إحياء الموتى فيما بيته الله مثلا عام ثم يبعثه ليريه

(١) محمد طنطاوي / القصة في القرآن / ص ٣٤٨

كيف أن الله - عزوجل- قادر على إحياء الموتى. قال تعالى: ﴿أَوَ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا
كَمَا أَنَّ يُعِيَ، هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَإِمَاتُهُ اللَّهُ مَا تَهِمْ بَعْتَدُهُ، قَالَ كَمْ لَيْتَ قَالَ لَيْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَيْتَ
مِائَةً عَامٍ فَأَنْظُرْ إِلَيْنَا طَعَامَكَ وَشَرَابَكَ لَمْ يَتَسَنَّهُ وَأَنْظُرْ إِلَيْنَا حِمَارِكَ وَلْنَجْعَلَكَ إِيمَانَ الْمَنَاسِ
الْفِطَامِ كَيْفَ تُنْشِرُهَا ثُمَّ تَكْسُبُهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (البقرة:
٢٥٩).

لقد وظّف القرآن الكريم صورة المكان وهو خاو من مظاهر الحياة ليخدم فكرة القصة التي تتحدث عن قدرة الله في إحياء الموتى .

وننتقل للحديث عن القرية حاضرة البحر التي يبتلى أهلها باختبار فيفشلون ... قرية قريبة من البحر يقتات أهلها على الصيد، يحرم الله عليهم الصيد في يوم واحد في الأسبوع إلا وهو السبت، فيحتالون على دينهم ويزرعون شبакهم بحيث تقع الحيتان فيها وهي قادمة يوم السبت، ثم يرفعونها بعد انقضاء ذلك اليوم قال تعالى ﴿وَسَلَّمُوا عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةً الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ
إِذَا تَأْتِهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شَرَعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِئُونَ لَا تَأْتِهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوْهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُدُونَ﴾ (الأعراف: ١٦٣).

وفي قصة موسى - عليه السلام- مع الرجل الصالح يمررون على قرية أهلها بخلاء يأبون أن يقدموا لهم الضيافة ، هذا المكان الذي لم يحسن استقبالهم يتصرف فيه الرجل الصالح بغرابة، فذلك جدار في القرية يريد أن يقع لكن الرجل الصالح يبعد إقامته فيستتر موسى - عليه السلام- ذلك فعلى أقل تقدير كان يمكنه أن يطلب أجر القاء صنيعه ليتذرر هو وموسى أمرهما ﴿فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَنْيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ
أَسْتَطَعُمَا أَهْلَهَا فَأَبْوَأْنَاهُمْ مَا يُضَيقُهُمْ فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَ فَأَقَامَهُ، قَالَ لَوْ شِئْتَ لَنَخْذَنَّ عَلَيْهِ أَجْرًا

(الكهف: ٧٧) ، ويكشف لنا الرجل الصالح عن سر فعله الذي أنبأه الله بغييه . قال تعالى: ﴿وَمَا أَعْدَرُ

فَكَانَ لِغَلَمَانِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَتْ تَحْتَهُ كَثْرَةُ أَهْمَاءٍ وَكَانَ أَبُوهُمَا صَلِّحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَتَلَقَّا أَشْدَهُمَا وَيَسْتَخِرُجَا

كَذَّهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُمْ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعُ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾ (الكهف: ٨٢) .

إنّ القرآن الكريم لا يغفل جمال التصوير في تقديم المكان فيعدم أحياناً إلى أنسنة المكان وبث روح الكائن الحي فيه ، فالجدار يريد أن ينقض ! فكأنه يعقل حتى يمتلك الإرادة للانقضاض ! كما أنّ من خصائص الأسلوب القصصي القرآني الدقة التامة في انتقاء الألفاظ وحسن اختيارها ووضعها في موضعها ^(١)

ونجد القرآن الكريم في قصة سليمان مع ملكة سبا يؤيد ملكة سبا حينما بينت خطر دخول الملوك إلى القرية ، حيث يعيشون فيها فساداً، ويدلون أهلها . قال تعالى: ﴿قَاتَلَ يَأْيَهَا الْمَلَوْقُونَ فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْلَأَ حَتَّىٰ تَشَهَّدُونَ ٣٣﴾ ﴿قَالُوا نَحْنُ أَفْلَوْنَا فَلَوْلَا بَأْسٌ شَدِيدٌ وَالْأَمْرُ إِلَيْكَ فَأَنْظُرْنِي مَاذَا تَأْمِنُنَ ٣٤﴾ ﴿قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرَيْةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعْرَةً أَهْلَهَا أَذْلَلَةً وَكَذَّلَكَ يَفْعَلُونَ﴾ (النمل: ٣٢ - ٣٤) . فصورة المكان قابلة لأن تتغير وفق سلوك الإنسان ، ومدى سيطرته على المكان ، وسلطته فيه .

(١) محمد السيد حسن / روانع الإعجاز في القصص القرآني / ص ٨٦

المدينة

ورد ذكر المدينة في القصة القرآنية في غير موضع، وقد كان يطلق في بعض الأحيان على المكان ذاته لفظة القرية والمدينة في سياقات معينة، ومثال ذلك قوم لوط في قريتهم التي عبر عنها مرة بلفظة القرية، قال تعالى: ﴿أَخْرِجُوهُم مِّنْ قَرْيَتِكُمْ إِلَّا هُمْ أُنَاسٌ يَنْظَهُرُونَ﴾ (الأعراف : ٨٢) ، ومرة أخرى بلفظة المدينة ، وكان ذلك حين عبر القرآن عن وصف فعلهم واستبشارهم بضيوف لوط كي يمارسوا معهم الفاحشة ﴿وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبِّرُونَ﴾ (١٧) ﴿قَالَ إِنَّ هَؤُلَاءِ ضَيْفٍ فَلَا نَفْعَلُهُمْ﴾ (١٨) ﴿وَأَقْوَأُلَّهَ وَلَا تُخْرُونَ﴾ (١٩) ﴿قَالُوا أَوَلَمْ تَنْهَكُ عَنِ الْمُنْكَرِينَ﴾ (٢٠) ﴿قَالَ هَؤُلَاءِ بَنَاقٍ إِنْ كُثُرْتُ فَنَعِلُهُنَّ﴾ (الحجر: ٦٧ - ٧١) ، وإننا لنكاد نبصرهم وهم يحثون الخطأ إلى بيت لوط استبشارا بالضيوف الذين عنده ،فيneathام لوط - عليه السلام - ،ويذكرهم بالفطرة السليمة لعلمهم يرجعون إليها، لكنهم نهوه من قبل ،وبينهونه الآن ،وكان المعايير انقلبت فجأة طلب الفاحشة حقا شرعا ،فاستحقوا بذلك نزول العذاب بهم، وإنه لمشهد رهيب بأن تحول المدينة من رأسها إلى عقبها ﴿فَجَعَلْنَا عَلَيْهَا أَسَافِلَهَا وَأَنْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّنْ سِجِيلٍ﴾ (الحجر: ٧٤) ، وأن تمطر لا غيتاً مغيثاً بل حجارة بركانية من سجيل ليبيقي هذا المكان شاهدا عليهم من خلفهم وعبرة للمؤمن المعتبر.

لقد جعل الله أعلى بيوتهم أسفلها وهي عقوبة مناسبة لجريتهم حيث قلوا فطرتهم ،وترکوا ما خلق الله لهم من أزواجهم. ^(١)

وقد عبر بعض الدارسين عن المدينة بأها مكان للخوف والضيق والضياع ،وعن القرية بأها رمز للبدء والبراءة والهدوء^(٢) . ولكن هذا الوصف للقرية والمدينة لم يكن كذلك تماما في القصة القرآنية فقد قدم القرآن الكريم نماذج لقرى فقدت البراءة والهدوء فيها .

(١) محمد طنطاوي/القصة في القرآن الكريم/ص ٣٣٣

(٢) عبد الحميد المحاذين / جدلية المكان والزمان / ص ١٢٠

ولعل التعبير القرآني حيث وصف أهل قرية لوط ب موقف الاستبشار بضيوفه بأنهم أهل المدينة بقوله: "وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبِّشُونَ" لعله ينفي عنهم الصفات التي قد تكون بأهل القرية من البساطة والبراءة ،فهم الآن أكثر انفلاتاً عما ذي قبل ،حيث إنهم يراودون لوط عن ضيفه، وكأنّ سمة الاعتداء الآن هي الظاهرة في سلوكهم حتى تمنى لوط لو كان يملك القوة الكافية والركن الشديد لحماية ضيوفه ورد الاعتداء المخزي عنهم. ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلًا لُّوطًا سَيِّئَةً إِلَيْهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذِرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصَيْتُ ﴾٧٦﴾ وَجَاءَهُ قَوْمُهُ مِهْرَاغُونَ إِلَيْهِ وَمَنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ أَسَاطِيرًا قَالَ يَقُولُونَ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَأَنْقُوا أَهْلَهُمْ وَلَا تُخْزِنُوهُنَّ فِي ضَيْفَيْنِ أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴾٧٧﴾ قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَعَلَّكَ لَمْ تَعْلَمْ مَا تُرِيدُ ﴾٧٨﴾ قَالَ لَوْلَا أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ أَوْلَى إِلَّا إِنَّكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الْصَّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴾٧٩﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمْ أَمْرَنَا جَعَلْنَا عَلَيْهِمَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِيلٍ مَّنْضُودٍ ﴾٨٠﴾ مُسَوَّمَةً عَنْ دَرِيَّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِعَيْدٍ ﴾٨١﴾ (هود: ٧٧ - ٨٣) . وكأنّ في وصف الله - عزوجل- لهم "وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبِّشُونَ" تهكم بهم وبفعلهم، فمدنتهم لم يجعلهم يرتقون إلى الطهارة، بل جعلتهم منساقين وراء شهواتهم المنافية للفطرة السليمة.

وكذلك عند الحديث عن سؤال موسى والرجل الصالح للضيافة من القرية التي أبت ضيافتها، وجدنا في تفسير الرجل الصالح لبناء الجدار تعبيراً عن القرية بلفظة المدينة ﴿وَمَا الْجَدَارُ فَكَانَ لِغَلَمَانَ يَتَمَّنِينَ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَلَحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَلْعَفَ أَشْدَهُمَا وَيَسْتَخِرَ حَكَزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُمْ عَنْ أَتَرَى ذَلِكَ تَأْوِيلٌ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَنْيَهُ صَبَرًا ﴾ (الكهف: ٨٢) . ولعل في بداية القصة حين طلب الطعام ظنا خيراً بأهل المكان فوصف بالقرية، وكان كلمة القرية تعطي - أحياناً- دلالات الألفة

والتعاون، ثم تكتئف لموسى والرجل الصالح عكس ذلك ﴿فَأَنْلَقَاهُ إِذَا أَنْيَا أَهْلَ قَرْيَةً أَسْتَطَعُمَا أَهْلَهَا فَأَبْوَا أَنْ يُصْبِقُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقُضَ فَاقْتَامَهُ، قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَخَذَّلَتْ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ (الكهف: ٧٧)، لذلك حين فسر له الرجل الصالح فعله في بناء الجدار عبر عن المكان بلفظة أوسع (المدينة) لا تعطي معنى التقارب والتعاون الذي قد تعطيه لفظة القرية "وَمَا الْجَدَارُ فَكَانَ لِغُلَمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَهُمَا". لقد أراد ألا يستولي أهل القرية الجشعون على كنز اليتامي كرامة لو والدهما الصالح فأقام الجدار ومضى.

ونجد الفتية أصحاب الكهف بعد استيقاظهم من سباتهم يتوجسون خيفة من المدينة وأهلها التي فروا منها خوفاً على دينهم، لذا فإنهم حريصون على ألا يعرفوا مكانهم حفاظاً على أنفسهم وعلى دينهم، فأرسلوا أحدهم ليحضر لهم الطعام، بعد ما أوصوه بالتخفي والحذر كي لا يكتشف أمرهم ومكانهم أهل المدينة. ﴿وَكَذَلِكَ بَعْثَثُهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَاتِلُ مِنْهُمْ كَمْ لِتَشْتَمُ قَاتُلُ مِنْشَايْمَا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَاتُلُ أَرْبَبُكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لِتَشْتَمُ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرْقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلَيَنْظُرْ أَيْهَا أَزْكَ طَعَاماً فَلَيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَلَيَسْتَأْطُفَ وَلَا يُشْعَرُنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾ إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ بِرِجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مَلَتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذَا أَبْكَاً﴾ (الكهف: ١٩ - ٢٠) فالمدينة المكان رغم كونها مكاناً للرزق إلا أنها تظل مكاناً يخشى منه ويطلب الحذر الشديد.

ومن المفسدين في المدينة قوم ثمود الذين تآمروا على قتل نبيهم صالح ، وعزموا على إنكار فعلتهم عن أهله . قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَلِحًا أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فِي قَرْيَةٍ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَنْقُومُ لِمَ شَتَّعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهُ لَعَلَّكُمْ تُرَحَّمُونَ ﴿٤٦﴾ قَاتُلُوا أَطْيَبَنَا يَا بَكَ وَبِمَ مَعَكَ﴾

قَالَ طَهِيرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾ وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ قَاتُوا
تَقَاسِمُوا بِاللَّهِ لَبِيتَنَاهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنْفَوْنَ لَوْلَيْهِ مَا شَهِدْنَا مِنْهُ لِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا أَصَدِّقُونَ ﴿٤٩﴾ وَمَكْرُوْمَ حَكْرَا وَمَكْرَنَا
مَكْرَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَيْنَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَرْنَاهُمْ وَقَوْمُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَتَلَكَ
بُيُوتُهُمْ خَاوِيْكَهُ يُمَاظِلُمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذَيْهَ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَبْيَحْنَا الَّذِينَ أَمْتُوا وَكَانُوا يَنْقُوتُونَ
(النمل: ٤٥ - ٥٣).

لقد حمل ذكر المدينة بعدا سلبيا فهو لاء الرهط يفسدون فيها، لكن القرآن عبر عن الفساد في المكان "المدينة" بالفساد في الأرض لدلالة اتساع وانتشار الفساد الذي قام به هؤلاء الرهط، وكانوا كما ذكر - عزوجل- تسعه. لقد كان عاقبة مكرهم أن دمرهم الله - عزوجل- وقومهم أجمعين ، والتدمير عادة يكون للمكان ، لكن القرآن عبر عن ذلك في ساكنيه لأنهم هم حقيقة من تضرر (أَنَّا دَمَرْنَاهُمْ وَقَوْمُهُمْ أَجْمَعِينَ).

ومن مدينة ثمود نعرج على مدينة مدینة التي ارتبط ذكرها بنبی الله شعیب -عليه السلام-، ونبی الله موسى -عليه السلام-، لقد دعا شعیب قومه للإیمان بالله، وإیفاء الناس حقوقهم ، وعدم خسر المیزان، ونهاهم عن أن یعثوا فسادا في المدينة والصدعن سبیل الله، لكنه قوبی بالتكذیب. قال تعالی :
 (وَإِنَّ مَدِينَتَ أَخَاهُمْ شَعِيبًا قَالَ يَنْقُوتُهُمْ أَعْبَدُهُمْ اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِهِ قَدْ جَاءَهُمْ بِكِتَابٍ مِنْ
 رَبِّكُمْ فَأَرْوَهُ أَكْيَلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَحْسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا نَفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ
 إِصْلَاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ) (الأعراف: ٨٥)، فأخذتهم الرجفة فكانهم لم یغروا

ولم يعشوا من قبل ﴿فَأَخْذَتُهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَضْبَحُوْا فِي دَارِهِمْ جَثِيْمِينَ ﴾١٦﴾ الَّذِينَ كَذَّبُوا شَعِيْبًا كَانَ لَمْ يَعْنُوا فِيهَا أَلَّذِينَ كَذَّبُوا شَعِيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَسِيْرِينَ ﴿الْأَعْرَافُ: ٩١ - ٩٢﴾

أما موسى - عليه السلام - فكانت مدین^(١) محطة جوهرية في حياته وحياة الدعوة، فهي المكان الذي لبث فيه موسى فترة من الزمن بعد أن خرج هارباً فاراً من فرعون وجنته ، بعد أن قتل الرجل القبطي خطأ دفاعاً عن الرجل الذي استغاثه وقد كان من بنى إسرائيل. قال تعالى: ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ إِلَيْقَاءَ مَدِينَ قَالَ عَزَّعُوْرَبٌ أَنْ يَهْدِيَ سَوَاءَ السَّكِيْلِ ﴾١٧﴾ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدِينَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً قَبْرَ النَّاسِ يَسْقُوْنَ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمْ أَمْرَاتِيْنَ تَذُوْدَاهُنَّ قَالَ مَا خَطَبُكُمَا فَالَّتَّا لَا نَسْقِي حَقَّ يُصْدِرُ الْرِّعَايَةَ وَأَبْنَائِشَيْخٍ كَبِيرٍ ﴾١٨﴾ فَسَقَى لَهُمَا مُدَّرَّتَوْلَةً إِلَى الظَّلِيلِ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾١٩﴾ فَجَاءَهُمْ إِنْدَهُمَا تَمَشِّي عَلَى أَسْتِحْيَاءٍ وَقَالَتِ إِبْرَاهِيمُ أَيِّ يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرًا مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَفَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ بَعْوَتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِيْنَ ﴾٢٠﴾ قَالَتِ إِنْدَهُمَا يَتَأَبَّتْ أَسْتَغْرِيْهُ إِبْرَاهِيمُ خَيْرَ مِنْ أَسْتَغْرِيَتِ الْقَوْمُ الْأَمِيْنَ ﴾٢١﴾ قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِنْدَهُمَا أَبْنَيَ هَذِيَنَ عَلَى أَنْ تَأْجُرَ فِي حَجَّتِيْفَقَنَ أَتَمَّتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشْقَ عَلَيْكَ سَتِّحَدُوتَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِيْنَ ﴾٢٢﴾ قَالَ ذَلِكَ يَتِيْفَ وَيَنِيْكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عَدُونَ عَلَيْهِ اللَّهُ عَلَى مَا تَقُولُ وَكِيلٌ ﴾القصص: ٢٢ - ٢٨﴾

لقد كانت هذه المدينة (مدین) مرحلة هامة في تربية موسى وإعداده لتلقى الوحي ، ولقد ضمته هذه المدينة ووجد فيها السكينة والأمن من الخوف والملاحقة، وجد فيها العمل والكسب الحلال والزوجة الصالحة والأب الحكيم الحاني عليه، وبعد أن خرج منها بأهله حدث أعظم حدث في حياة موسى - عليه السلام - إله حدث تقمي الوحي والرسالة ، إله تكليم الله - عزوجل - دون وساطة أو ترجمان... قال تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ مَاءَسَ مِنْ جَانِيْلَاطْبُورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ أَنْكُثُوا إِنِّي مَا سَمِّيْتُ نَارًا لَعَيْتُ مَا تِيكُمْ﴾

(١) مدین: نسبة إلى قوم مدین بن ابراهيم- عليه السلام - سكنوا بلاد الحجاز مما يلي الشام ، شرق خليج العقبة . /اطلس القرآن- ص ٧١

يَنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَقَ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَضَطَّلُونَ ﴿٢٩﴾ فَلَمَّا آتَهَا أُنُودِيَ مِنْ شَطِّيِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبَقْعَةِ
 الْمُبَرَّكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَن يَنْمُوسَقْ إِفْتَ أَنَّا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٠﴾ وَأَنَّ الْقِعَدَاتِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَأَاهَا نَهَرَ كَانَهَا جَاءَتْ وَلَنْ
 مُتَبَرِّأً وَلَمْ يَعِقِّبْ يَنْمُوسَقْ أَقْبَلَ وَلَا تَحْفَظْ إِنَّكَ مِنَ الْأَمْنِينَ ﴿٣١﴾ أَسْلَكَ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ يَبْصَأَةَ مِنْ غَيْرِ سُوءِ وَأَضْمَمْ
 إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّقِبِ فَذَنَابَكَ بِرَهَنَانِ مِنْ زَيْكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَائِيَهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّي
 إِنِّي قَلَّتْ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِي ﴿٣٣﴾ وَأَخِي هَرُورُثُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَزْسَلَهُ مَعِي رِدَاءً مَيْسُدِقُهْ إِنِّي أَخَافُ أَنْ
 يُكَذِّبُونِي ﴿٣٤﴾ قَالَ سَنَشِدُ عَصْدَكَ بِأَخِيكَ وَبَجْمَلُ لَكُمَا سُلْطَنَنَا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا إِنَّنِي أَنْتَ وَمِنْ أَتَبَعَكُمَا
 الْغَلِيلُونَ ﴿٣٥﴾ (القصص: ٢٩ - ٣٥) وهكذا انتهت الحلقة التي ربطت موسى - عليه السلام - بمدين.

ونجمل الحديث عن المدينة بوصفها مكاناً غلب الحديث عنه بحمل دلالات سلبية نحوه كالخوف والترقب والاتساع الذي يوحى بعدم الترابط والألفة بين أهل المكان، ونكمel الحديث عن المدينة بالانتقال إلى مدينة مصر . فكيف ظهرت صورة هذه المدينة في القصة القرآنية؟ وما هي الدلالات التي ارتبطت بها؟

مصر

تمثل مدينة مصر المكان الذي يربط الحاكم بالرعاية ،لقد ضمّ هذا المكان رعية غير متجانسة المنايت ،وحاكماً مارس سلطته على المكان وساكنيه بظلم واستبداد ليس له مثيل.لقد وظفت هذا المكان في القصة القرآنية ليقدم فكرة السعي وراء الحرية ورفض القيد والذلة الذي قد يفرضه المكان على ساكنيه ،وكيف تعاملت شخصية الحاكم الممثلة للسلطة مع المكان وأهله.

لقد ارتبطت مصر ببني الله موسى- عليه السلام- فهي المكان الذي ضمه منذ ولادته إلى أن خرج فارا منها بعد أن قتل الرجل القبطي، وكانت مدين مرحلة متوسطة في حياة موسى سبقتها الإقامة بمصر ولحقتها العودة إليها ... وقد ضمت هذه المدينة العديد من الأحداث في قصة موسى -عليه السلام-.

إن تربية موسى في قصر فرعون بمصر لم تمنعه من الخروج إلى المدينة ومعايشة الناس... لقد حاول موسى أن يدافع عن الرجل الذي استغاث به فوكز عدوه فقضى عليه دون قصد منه، ثم تكرر ذلك المشهد مرة أخرى لكن موسى -عليه السلام- بعد أن كاد يبطش بالذي هو عدو لهما تمالك نفسه وقال: (لن أكون ظهيراً للمجرمين) ،وشاع خبر موسى بقيامه بقتل الرجل القبطي فاجتمع الملايئرون لقتل موسى، ف جاء رجل من أقصى المدينة محذراً موسى. قال تعالى ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشْدَهُ وَأَسْتَوَى

أَنِّي نَهَىٰ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَنَّالَكَ بِخَرْبِ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾ وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينَ غَفَلَةٍ مِنْ أَهْلَهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَلَانِ هَذَيْنِ مِنْ شَيْعَتِهِ وَهَذَيْنِ مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شَيْعَتِهِ عَلَىٰ الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَرَهُ مُؤْمِنٌ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّي إِنِّي طَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّي إِنِّي أَنْعَمْتُ عَلَيَّ فَلَمَّا أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾ فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَرْقُبُ فَإِذَا الَّذِي أَسْتَصْرَهُ بِالْأَمْمِينِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ فَلَمَّا أَنَّ أَرَادَ أَنْ يَبْطَشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ يَنْوُسَعَ أَنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾ وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَنْمُوسَى إِنْكَ أَمْلَأْتَ يَأْتِيَرُونَ بِكَ

لِيَقْتُلُوكُ فَأَخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّصِيرِينَ ﴿٢١﴾ فَرَجَّعَ مِنْهَا حَائِقًا يَرْقُبُ قَالَ رَبِّي تَحْفِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢٢﴾ (القصص: ١٤ -

٢١) لقد عبر القرآن الكريم عن مصر بلفظة المدينة التي توحى بالاتساع والغربة، فموسى -عليه السلام- يدخل المدينة وهي مصر لكنه يشعر بالغربة غربة النشأة -فقد نشأ في قصر فرعون-، وغربة الشيعة، ثمّ غداً موسى -عليه السلام- خائفاً بعد قتله للقبطي -ليس في مكان ضيق ومحصور بل عبر عنه القرآن الكريم بأنه خائف في المدينة، وكان هذا المكان الواسع يزيد من خوف موسى واضطرابه وتردداته، ثمّ يأتي من يحذرته وهو في حالته تلك (وجاء من أقصى المدينة رجل يسعى) وهذا التعبير القرآني يوحى بطول وبعد المسافة التي قطعها الرجل ليحذر موسى، فالحركة في المكان ببعدها وهيئتها كشفت عن حقيقة الخطر الذي يتهدد موسى -عليه السلام-. لقد وظفت المكان "المدينة" لخدمة الحدث وللكشف عن مشاعر وانفعالات الشخصيات.

وبعد خروج موسى -عليه السلام- من مصر خائفاً مذعوراً وجد في مدين الأمان والاستقرار قرابة العقد من الزمان فلم تكن مصر لموسى مكاناً أليفاً فهي مكان اضطهد قومه فيه، وأصبحت حياته مهددة بالخطر فيه.

ثم خرج عليه السلام من مدين وتنقى الوحي من جانب الطور^(١) وأمره الله - عزوجل- بالذهاب إلى فرعون لدعوته للإيمان فكانت عودة موسى إلى مصر، لكنه هذه المرة عاد إلى المكان ليس خائفاً يترقب بل وهو يحمل رسالة عظيمة، رسالة التوحيد والتحرير، توحيد الله -عز وجل- وتحريربني إسرائيل من العبودية تحت فرعون في مدينة مصر . **﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُّوسَىٰ بِمَا يَنْبَغِي إِلَيْهِ مِنْ قُرْآنٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرٌ وَمَا سِعِنَا بِهِنَّا فِي مَاءِ كَيْمَانِ الْأَوْقَلِينَ ﴿٢٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَنْ جَاءَ إِلَيْهِ مُهْدَىٰ مِنْ عِنْدِ رَبِّهِ وَمَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةٌ أَلَّا يَرَهُ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٤﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقَنْتِي يَهْمَنُ عَلَى الْقَطْنِينَ فَاجْعَلْنِي صَرْحًا لَعْكِي أَطْلُعُ إِلَى إِلَهِكُمْ وَإِنِّي لَأَظْنُهُمْ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٢٥﴾ وَأَسْتَكِبَرُهُوَ وَجْهُهُ دُرُّ الْأَرْضِ**

(١) الطور: هو جبل حوريبي في سيناء. /Atlas القرآن-ص ٧١

يُغَيِّرُ الْحَقَّ وَظَنُوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣﴾ فَأَخْذَنَا كُلُّهُ وَجَنُودُهُ، فَنَبَذَنَاهُمْ فِي الْيَمَّةِ فَانْظَرْ كَيْفَ كَانَ

عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴿٤٠﴾ (الفصل ٣٦ - ٤٠)

لقد استكبار فرعون وظن أنه إله وأنه مالك للمكان وللبشر وللزمان ، فقد قال - عزوجل- عنه

﴿وَنَادَى فِرْعَوْنٌ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَنْقُومُ إِلَيْنَا لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْقِيقٍ أَفَلَا يَتَبَصَّرُونَ﴾ (الزخرف:

(٥١)

أما ملأ فرعون فيشيرون عليه بأن يتحدى موسى ويرسل في المدائن للسحرة كي يجابهوا بسحرهم دعوة موسى -عليه السلام- ﴿قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمٍ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا سَاحِرٌ عَلَيْهِمْ ﴾١٩﴿ يُرِيدُ أَنْ يُغْرِيَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴾٢٠﴿ قَالُوا أَتَيْهُ وَلَآخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَشِيشَينَ ﴾٢١﴿ يَأْتُوكُمْ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلَيْهِمْ﴾ (الأعراف:

(١١٢ - ١٠٩)

لذلك أراد فرعون أن يجمع كل ما لديه من قوة وإمكانيات، ليس في (المدينة) فقط، بل في كل المدائن ، وإمكانيات المدائن وليس (القرى) مثلا، إمكانيات هائلة وكبيرة، ويتجتمع فيها ما لا يتجمع في غيرها، حتى إن السحرة يجدون رواجا فيها وقبولاً، و (المدائن) توحى نوعاً ما، بالتجمع كله وبالتالي فإن فرعون، ومن غير قصد، نشر دعوة موسى -عليه السلام-، وأطاع عليها المجتمع كاملاً، وهذا، وظف القرآن الكريم جمع كلمة مدينة، للتعبير عن الحالة التي انتابت فرعون من خوف ورهبة من لقاء موسى -عليه السلام- لم يظهرها إظهاراً مباشراً بل ترك لأفعاله أن تظهرها^(١).

ويعود ذكر مصر بلفظة المدينة على لسان فرعون ليتوعد السحرة لإيمانهم مع موسى ،بعد أن غلبهم وانتصر الحق على الباطل فبرر فرعون إيمانهم بأنهم قد مكرروا وتأمرروا من قبل في المدينة مع موسى كي يخرجوا منها أهلها... الآن أصبح بنو إسرائيل الذين عذبهم فرعون واضطهدتهم أهلاً للمدينة !! وأصبح السحرة الذين هو من جمعهم متآمرين لإخراج أهل المدينة !! قال تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا

(١) عزة الحلبي/ جماليات المكان في القرآن الكريم/ ص ٢٨٣

إِلَى مُوسَى أَنَّ الْقَعْدَةَ عَصَاكُلَّ إِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْكُونُ ﴿١٧﴾ فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ فَقُلُّبُهُمْ أَهْتَالَكَ وَأَنْقَلَبُوا
 صَغِيرِينَ ﴿١٩﴾ وَأَلْقَى السَّحَرَةُ سَجِيدِينَ ﴿٢٠﴾ قَالُوا إِنَّا بِرِبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢١﴾ رَبِّ مُوسَى وَهُدُونَ ﴿٢٢﴾ قَالَ فَرَعَوْنَ إِنَّا آمَنَّا بِهِ قَبْلَ
 أَنْ مَادَنَ لَكُمْ إِنَّ هَذَا الْكَنْزُ مَكْرُشُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لَتُخْرِجُوهُ مِنْهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٢٣﴾ لَا تُفْطِئُنَا أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلُكُمْ مِنْ خَلْفِ
 نَّيْمَ لَا صِلْبَشُكُمْ أَجْعِينَ ﴿٢٤﴾ قَالُوا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَبِلُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَا نَقِيمُ مِنْ إِلَّا أَنْ مَاءْنَا إِنَّا يَأْتِنَا رَبِّنَا لَتَأْجَاهَنَا تَأْرِبَنَا أَفَغَ
 عَلَيْنَا صَبَرًا وَقَوْفًا مُسْلِمِينَ ﴿٢٦﴾ (الأعراف: ١١٧ - ١٢٦) . وَ هَكُذا وَظَفَتْ مَصْرُ لِتَكُونُ الْمَكَانُ الْمُنَاسِبُ
 لِلتَّعْبِيرِ عَنْ فَكْرَةِ الْحُرْبَةِ وَرَفْضِ الْقِيُودِ الَّتِي يَفْرَضُهَا الْمَكَانُ، إِذَا كَانَتْ هَذِهِ الْقِيُودُ تَحْرِمُ الْإِنْسَانَ مِنْ
 حُقُوقِهِ، وَأَهْمَهَا حُقُوقُ الْحَيَاةِ بِكَرَامَةِ، وَحُرْبَةِ الْمُعْتَدِلِ الَّذِي يُؤْمِنُ بِهِ الْإِنْسَانُ.

* مصر في قصة يوسف - عليه السلام -

وَتَوَظَّفَ مَصْرُ هَذِهِ الْمَدِينَةِ بِسَيَاقِ أَخْرَى لِتَظَهُرَ بِمَظَهُرِ الْمَكَانِ الَّذِي يَضْمِنُ الْبَطْلَ، وَتَتَبَاهِيَا
 الظَّرُوفُ فِيهِ لِخَدْمَتِهِ، وَخَدْمَةِ رُؤْيَاةِ الْقَصَّةِ الَّتِي تَقْدُمُ أَمْلَا لِكُلِّ مُبْتَلٍ، أَنْ بَعْدِ الضَّيقِ الْفَرْجِ، وَبَعْدِ
 الصَّبَرِ حَلَوةُ الظَّفَرِ .

لَقَدْ كَانَ أَوْلَى ظَهُورِ لَمَدِينَةِ مَصْرُ فِي قَصَّةِ يُوسُفَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ -، حِينَ بَيْنِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ مَكَانُ
 الرَّجُلِ الَّذِي اشْتَرَى يُوسُفَ، بَعْدَ أَنْ التَّنَقَّطَهُ السَّيَارَةُ مِنْ الْبَئْرِ ثُمَّ بَاعَوهُ . ﴿ وَجَاءَتْ سَيَارَةٌ فَازْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَلَذَنَ دَلَوْهُ ﴾ قَالَ يَبْشِرِي هَذَا عَلَمٌ وَأَسْرُهُ بِضَعْعَةٍ وَاللهُ عَلِيهِ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَرَوْهُ بِشَمَنْ بِخَسِنْ دَرَّهُمْ مَعْدُودَةٌ وَكَانُوا
 فِيهِ مِنَ الرَّاهِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَالَ الَّذِي أَشْتَرَنِهِ مِنْ مَصْرَ لِأَمْرِ أَنْتَهُ أَكْثَرِي مَتَوْنِهِ عَسَوْ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَنْخَذَهُ وَلَدَأَ
 (يوسف: ١٩ - ٢١) وَهَكُذا كَانَتْ مَصْرُ الْمَكَانُ الَّذِي ضَمَ يُوسُفَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - وَآوَاهَ بَعْدَ أَنْ أَجْرَمَ
 أَخْوَتَهُ فِي حَقِهِ، وَأَلْقَوْهُ فِي غِيَابَةِ الْجَبِ، كَانَتِ الْمَكَانُ الْوَاسِعُ الَّذِي قَابِلَ الْجَبِ، وَالْدَّافِعُ الَّذِي قَابِلَ
 قَسْوَةَ أَخْوَةِ يُوسُفَ .

ويتعرض يوسف في مصر إلى محنَّة عظيمة ، كانت هذه المحنَّة السبب في تمكينه في الأرض، وقد تمثلت هذه المحنَّة في مراودة امرأة العزيز له ، التي انتشر خبرها على ألسنة نسوة المدينة ، فالمدينة المكان الذي تنتشر فيه الشائعات والأخبار خاصة إذا تعلقت هذه الأخبار بالرؤساء والساسة ، وكان ذلك سبباً في دخوله السجن ، ومكوثه فيه بضع سنين ، ولم يخرج منه - عليه السلام - إلا بعد أن أثبتت براءته ، وبعدها اصطفاه الملك وجعله على خزائن الأرض ، لقد أنقذ يوسف - عليه السلام - مصر بتأويله لرؤيا الملك وبإرشاده لهم بما يتوجب عليهم فعله في سنوات الجدب . فقدم يوسف لمدينة مصر مثل ما قدمت له ، لقد آتاه هذه المدينة وملكته خزائن الأرض ، وهو بعمله الذي وهبه الله له أنفذها من مجاعة كادت تودي بها .

لقد جاء أخوه يوسف إلى مصر لأخذ الميراث فكان ذلك القديم سبباً ليأخذ يوسف أخاه ويرسل في طلب أهله أجمعين ، فيخرجون من البدو إلى مصر ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ مَا وَجَدُوا إِلَيْهِ أَبْوَيْهِ وَقَالَ أَدْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَمْنَى﴾ (يوسف: ٩٩) . لقد دخلوا إلى المكان الذي تهيأت لهم به أسباب الأمان والحضارة بعد أن كانوا يعيشون في البدو .

سبأ

وظف القرآن الكريم مدينة سبأ ليقدم نموذجاً من المدعويين للتوحيد ، الذين يملكون جمال المكان المتلألل بالطبيعة الخلابة التي وهبها الله له ، هذا المكان الذي توافرت فيه عناصر الجمال والأمن والدعة ، دعي أهله إلى الإيمان من قبل صاحب ملك عظيم وهو سليمان - عليه السلام - الذي سخر الله له الكون لخدمه ودعوته ، لقد ناسب المكان المدعو للإيمان (سبأ) فكرة القصة التي تقدمها قصة

سلیمان - عليه السلام - التي تبیّن جمال الدعوة وروعتها إذا سخّر المال والقوة لخدمتها ، فسبأ هذه المدينة الغنية الجميلة تحتاج لمن هو أعظم منها لتسمع منه وتقبل دعوته .

لكن مدينة سبا رفض أهلها دعوة سليمان وعبدوا الشمس دون الله - عزوجل- ، على الرغم مما جباه الله لذلك المكان من جمال الطبيعة والثمر والرزق والخير الكثير ، كفروا بأنعم الله فأنزل عذابه بهم.

وما يميز مملكة سبا تولی امرأة عليهم ، ذات عرش عظيم ، وسلطان كبير ، وهذا ما أخبر به الهدد بعد أن غاب عن سليمان وجاءه بخبر هذه المملكة ، ولقد استذكر الطير عليهم عبادة الشمس دون الله . قال تعالى: ﴿ وَقَنَقَدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِكَ لَا أَرَى الْمُهَذَّدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْفَاسِدِ ۝ لَا عَذَابَ إِذَا عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَا ذَبْحَنَمَا أَوْ لَا تَيْقِنَ مُشَاطِنَ مُبِينٍ ۝ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَاطْتُ بِمَا لَمْ تُحْطِ بِهِ وَجِئْنَاكَ مِنْ سَمِيمٍ بِنَارٍ يَقِينٍ ۝﴾

(النمل: ٢٠ - ٢٢) وتجري بعد ذلك الأحداث ويرسل سليمان إليهم بكتاب يدعوهם فيه إلى

الإيمان، فتعرض مملكة سبا الأمر على حاشيتها وتشاورهم في أمر سليمان ، فهذا مكان تجتمع فيه مظاهر الحضارة المادية والمعنوية، وتبدو علاقة الحاكم بالمحكوم مختلفة في هذه المدينة فالحاكم المتمثل بملكة سبا لا يبيت أمرا في مملكته قبل الرجوع إلى مجلس الشورى ليصدر حكما وفق مشورة تستوجب الرضا عن هذا الحاكم وتجلب الخير للمحكوم ، لكن قوم هذه الملكة يعتقدون بقوتهم وبباسهم ثم يوكلون الأمر إلى ملكتهم التي يثقون بحكمتها ، فتحذرهم من مغبة دخول الملوك إلى القرى وما يعيثونه فيها من فساد ودمار وأثرت الحل السلمي ، وأرسلت هدية لملك سليمان حتى تحافظ على مملكتها من الضرر ، لقد حاولت هذه الملكة أن تتجنب مملكتها أدنى الخسائر والمخاطر . لكن سليمان - عليه السلام- الذي وهب الله له ملكا لم ينبع لأحد من بعده لا يغير بمال ولا يساوم في دين الله ودعوته ،

قال تعالى: ﴿ أَذْهَبْتِكُنْيِي هَذِهَا فَأَلْقِهِ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ۝﴾

﴿ قَاتَلَتِ يَأْتِيَهَا الْمَؤْمَنُ أَنْتَقُونِي فِي أَمْرِي مَا إِنَّمِنْ شَيْءَنَ وَلَئِنْ يُسْمِي اللَّهُ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ۝﴾

﴿ أَلَا تَعْلُوْا عَلَىٰ وَأَتُوْنِي مُسْلِمِينَ ۝ قَاتَلَتِ يَأْتِيَهَا الْمَؤْمَنُ أَنْتَقُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْ حَنَّ تَشَهُّدُونَ ۝﴾

﴿ قَاتَلَتِ يَأْتِيَهَا الْمَؤْمَنُ أَنْتَقُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْ حَنَّ تَشَهُّدُونَ ۝﴾

دَخَلُواْ قَرِيَّةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُواْ أَعْرَةً أَهْلَهَا أَذْلَةً وَكَذَّالَكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾ وَلَقَدْ مَرْسَلَةُ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاطَرُهُمْ بِمَرْجِ الْمَرْسَلُونَ
 ۚ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا جَاءَ شَيْمَنَ قَالَ أَتُمْدُونَنِ بِمَا إِنَّا نَعْمَلُ إِنَّ اللَّهَ خَيْرٌ مِّمَّا تَكُونُ كُلُّ أَنْشَأْتُمْ بِكُلِّ أَنْشَأْتُمْ لَا يَرْجُونَ ﴿٣٦﴾ أَرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَنَانَيْتُمْ بِمَنْهُوْ
 لَا قِلَّ لَهُمْ بِهَا وَلَا تُخْرِجُهُمْ مِّنْهَا أَذْلَةً وَهُمْ صَغِرُونَ ﴿٣٧﴾ (النمل: ٢٨ - ٣٧) وَيَرْسَلُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَذَابَهُ عَلَى تَلَكَ الْقَرِيَّةِ الْكَافِرَةِ سُبًّا، وَيَخْسِرُونَ النَّعِيمَ الَّذِي هُمْ فِيهِ وَقَدْ تَقْدِمُ الْحَدِيثُ عَنْ جَنْتِيْهِمْ فِي مَوْضِعٍ سَابِقٍ.

البلد الحرام

تقديم قصة سيدنا إبراهيم - عليه السلام - عقيدة التوحيد التي هي أساس دعوة كل الأنبياء ، وما يميز قصة سيدنا إبراهيم - عليه السلام - استخدام المحاور والمحاجة القائمة على الأدلة والبراهين العقلية ، لإثبات العقيدة وترسيخها في النفوس ، وقد أكرم الله سيدنا إبراهيم - عليه السلام - بمكان غدا معقلاً ورمزاً لهذه العقيدة ومنطلقاً لها في مختلف أصقاع الأرض ؛ لارتباطه ببيت الله الحرام.

وقد جاء ذكر البلد في قصة إبراهيم - عليه السلام - للدلالة على البلد الحرام مكة المكرمة وظهر هذا المكان في سياق دعاء إبراهيم - عليه السلام - بأن يجعله الله - عزوجل - بلداً آمناً بعد أن أسكن ذريته فيه وكان مكاناً مفترقاً فدعا بأن يرزق أهله من الثمرات ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيْ أَجْعَلْ هَذَا بَلَدًا إِمَانًا وَأَرْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الْثَّمَرَاتِ مَنْ أَمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمَ الْأَخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأَمْتِعْهُ وَلِيَلَامِنَ أَنْظَرْهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَلِنَسْ أَمْسِيَرُ)﴾

القرة: ١٢٦)

لقد دعا إبراهيم بأن يخص الله هذا المكان بصفات مادية ومعنوية فمن جانب دعا بأن يجعله مكاناً آمناً لا شرك لله فيه تحبه أفراد الناس وتهوي إليه، ومن جانب آخر بأن يجعله مكاناً فيه الرزق والثمر والخير الوفير. قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيْ أَجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ إِمَانًا وَأَجْنَبِيْ وَبَيْنَ أَنْ نَعْبُدَ الْأَضْنَانَ ٤٥ رَبِّ إِنَّمَّا أَصْلَلَنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ مِنْ تَبَعِيْ فَإِنَّمَّا مِنِّي وَمِنْ عَصَافِيْ فَإِنَّكَ عَفُورٌ رَحِيمٌ ٤٦ رَبِّ إِنَّمَّا أَنْسَنَمُ ٤٧ أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّيِّ بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَعْ عِنْدَ بَيْنِكَ الْمُحَرَّمَ رَبِّيْ لَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَغْدِيَةَ مِنْ أَنَاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَأَرْزُقْهُمْ مِنَ الْثَّمَرَاتِ لَعَلَمُهُمْ يَشْكُرُونَ ٤٨﴾ (ابراهيم: ٣٥ - ٣٧)

لقد قدم إبراهيم - عليه السلام - الصفات المعنوية على المادية فالآمن ثم الرزق من أهم العوامل ليكون أي بلد مستقراً.

ومن جمال التعبير القرآني الذي يراعي السياق أن جاءت لفظة البلد مرة في التعريف ومرة في التنکير ، وقد حاول بعض الدارسين والمفسرين تعليل ذلك ومنه: جاء البلد بالتعريف في سورة إبراهيم ؛ لأن سيدنا إبراهيم - عليه السلام - حين دعا أراد آمنا معينا لمكان محدد ، حيث ترك زوجته

وابنه ، وكان الهدف من دعائه محدداً أيضاً وهو ضمان استمرار حياتهم بتوفر الأمن والغذاء والشراب ، ليتمكنوا من عبادة الله وإقامة الصلاة ، وليس في هذه الآيات إشارة إلى أنَّ هذا المكان المقفر سيصبح بلداً عظيماً يقصده الناس من كل مكان . أمّا في سورة البقرة فجاء التعبير بالتنكير (بلداً)؛ دعاء إبراهيم -عليه السلام- كان بعد أن رجع فوجد المكان المهجور قد أصبح بلداً كبيراً ، عامراً بالسكان والخيرات كباقي البلاد ، فعندما دعا الله -عز وجل- بأن يخصَّ هذا المكان بأشياء تميزه عن غيره من الأماكن والبلاد ، فجاء التعبير بالتنكير ليستوعب اتساع المكان وامتداد الزمان .^(١)

(١) محمد العبيدي/دلالة السياق في القصص القرآني/ص ٤٩

الجبل

لقد خلق الله - عزوجل- الجبل ليكون دعامة للأرض ،مثبتاً لها ،وإذا ما نظرنا إلى الجبل داخل بعض قصص القرآن الكريم ،وجدناه قد وظف ليكون إما حامياً مثبتاً لمن يأوي إليه ،وإما متعطلاً عن طبيعته التي خلقه الله عليها من توفير الحماية والأمان لمن يأوي إليه ،وفق أمر الله - عزوجل- وحكمته ، فهو الذي يضع السنن والقوانين في الأشياء ،وهو الذي يسلبها منها .. ولقد بدا ذلك جلياً في قصة نوح - عليه السلام- في مشهد نجاته مع المؤمنين على ظهر السفينة وحواره مع ابنه ... فالأمواج عالية شاهقة كالجبال ،وهنا أعطي تصوير الموج بالجبل بعداً مخيفاً ... فهو موج عال جارف لا سبيل للنجاة منه .. لكن ابن نوح سعى لينجو بنفسه لا بأن يؤمن ويركب بالسفينة ،بل بثقته بأنّ الجبل مكان يوفر الحماية والعصمة لمن يلتجي ويأوي إليه... .

فالجبل يستحضر ذكره دلالات الارتفاع ،والعلو ،والشموخ ،والارتفاع السمو...^(١) وهو يمنح معنى الأمان.

ولكن كيف لجبل أن يصد أمام قدرة الله وقوته وعذابه .. لقد غرق ابن نوح ولم ينفعه الجبل ولم يعصمه من الماء...لقد تعطلت خواص الجبل في هذا المشهد لتكون السفينة الأقل هيبة من الجبل هي العاصم والمائع بأمر الله - عزوجل-، فلم تعد السفينة في قصة نوح مجرد وسيلة للانتقال من مكان إلى آخر ،بل مثلت جسراً حمل ركابه من الهلاك والعداب والموت إلى النجاة والحياة. **﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ أَمْرًا وَفَارَ اللَّنُورُ قُلْنَا أَخْمَلَ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْتَيْنِ وَاهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَيْنَهُ الْقُولُ وَمَنْ مَاءَ مَاءَ مَاءَ مَعْلُومٍ إِلَّا قَيْلٌ ﴾**

﴿ وَقَالَ أَرْكَبُوْفَهَا إِسْمَهُ اللَّهُ بَعْرِبَهَا وَمُرْسَهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾^(٢) وَهُنَّ تَغْرِي بِهِمْ فِي مَوْجَ كَالْجِبَالِ وَنَادَى فُوحٌ أَبْشِرُهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَبْشِرُ أَرْكَبَ مَعْنَاهُ وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكُفَّارِنَ ﴾^(٣) قَالَ سَأَوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمُ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَهُ وَهَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُعْرَقِينَ ﴾^(٤) وَقَبَلَ يَكَارِضُ أَبْلَاعَ مَاءَ لَوَدَ نَسَمَاهُ أَقْبَلَ عَيْنَهُنَّ أَمْرٌ وَفُضِيَّ أَمْرٌ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجَبُوْدِيَّ وَقَبَلَ بَعْدًا لِلْقَوْرَ الظَّالِمِيَّنَ ﴾^(٥) وَنَادَى فُوحُ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ أَبْيَ مِنْ أَقْبَلَ

(١) عزة الحلبي/ جماليات المكان/ ص ٤٢

وَلَنْ وَعَدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَعْكُمُ الْحَكِيمَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَسْرُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلَكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا أَنْشَأْنَاهُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ
أَعْظَمَكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَشْلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَلَا تَغْفِرُ لِي وَتَرْحَمُنِي أَكُنْ مِنَ
الْخَاسِرِينَ ﴿٤٧﴾ قِيلَ يَسْرُوحُ أَهِيَّطُ بِسَلَمٍ مَنَا وَبِرَبَّكَتِ عَيْنَكَ وَعَلَى أَمْرِ مَنْ مَعَكَ وَأَمْمَ سَمِّعُوهُمْ يَسْهُمُونَ مِنَاعَذَابِ أَلِيمٍ
(هود: ٤٠ - ٤٨) وبعد غرق الكافرين أمر الله - عزوجل- السماء بأن تقلع عن إنزال المطر
وللأرض بأن تبلع ماءها ؛ لتعود سنن المكان "الجبال" فيعود ليوفر الحماية والاستقرار لمن عليه
" واستوت على الجودي" ، "قلنا اهبط بسلام".

و لم يقتصر ظهور الجبل في القصة القرآنية بمظهر المانع الحامي وحسب، بل شارك في بيان معجزة الله وقدرته في إحياء الموتى، فهذا إبراهيم الخليل يطلب من الله - عزوجل- أن يريه كيف يحيي الموتى فاستجاب - عزوجل- لطلبه وأمره بأن يذبح أربعة من الطير ويخلط أجزاءها ببعضها، ثم يفرقها ويضع على كل جبل جزءا منها... الجبال العالية المتباudeة لكن قدرة الله أعظم فهو قادر على إعادة إحيائها وينظر إبراهيم - عليه السلام- ويرى الطيور قادمة ساعية نحوه من كل جبل. قال تعالى: ﴿وَإِذَا قَالَ إِنْزَهُمْ رَبِّ أَرْبَيْ كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوْلَمْ تَرَوْنَ قَالَ بَلْ وَلَكِنْ لَيَطَمِّنَ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ
الْطَّيْرِ فَصُرِّهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ أَجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزَءًا ثُمَّ أَدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعِيًّا وَأَعْنَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (البقرة: ٢٦). لقد منح الجبل في المشهد السابق معنى الوضوح أيضاً، فهو عال واضح وكاشف لما وضع عليه وما سيأتي منه دون غموض أو إخفاء.

وكما سخر الله - عزوجل- الجبل لإبراهيم كي يرى معجزة الله - عزوجل- في إحياء الموتى، فقد سخر الجبال مع داود - عليه السلام- كي تسحب وتذكر الله. قال تعالى ﴿إِنَّا سَحَرْنَا الْجِبَالَ مَعَدِّمٍ سِرْخَنَ بِالْعَشَرِيَّ وَالْأَشْرَقِ ﴿١٨﴾ وَالْطَّيْرَ سَحَرْنَا كُلَّهُ أَوَابَ ﴿١٩﴾ وَسَدَدْنَا مُلْكَهُوَ إِيَّنَهُ الْحِكْمَةَ وَقَصَلَ الْحَطَابِ﴾ (ص: ١٨ - ٢٠)

إِنَّه لِمَلِكٍ عَظِيمٍ أَنْ تَكُونَ الْجَبَلُ تَحْتَ أَمْرِ دَاوُدَ، تَذَكَّرُ اللَّهُ وَتَسْبِحُ وَتَسْتَغْفِرُهُ، وَإِنَّهُ لِتَنَاغِمٍ
بَدِيعٍ أَنْ يَسْبِحَ الْجَبَلُ مَعَ نَبِيِّ رَبِّهِ رَاغِبًاً طَائِعًا للَّهِ - عَزَّوَجَلَ - لِيُكَشِّفَ هَذَا التَّسْخِيرُ لِلْجَبَلِ عَنْ عَظَمَةِ
مَلِكِ دَاوُدَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - .

وَفِي قَصَّةِ كَلِيمِ اللَّهِ مُوسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - يَطْلُبُ مِنَ اللَّهِ - عَزَّوَجَلَ - أَنْ يَنْظُرَ إِلَيْهِ فَأَخْبِرْهُ اللَّهُ -
عَزَّوَجَلَ - بِأَنَّهُ لَنْ يَرَاهُ، وَأَمْرُهُ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى الْجَبَلِ، فَإِنْ اسْتَطَاعَ الْجَبَلُ بِقُوَّتِهِ وَشَمْوَخِهِ أَنْ يَسْتَقِرَّ مَكَانَهُ
بَعْدَ تَجْلِيِ اللَّهِ لَهُ فَسُوفَ يَرَى مُوسَى رَبِّهِ ... لَكِنَّ الْجَبَلَ لَمْ يَصُدِّ وَأَصْبَحَ دَكَّاً كَأَنَّهُ لَمْ يَكُنِ .. قَالَ تَعَالَى:

﴿ وَلَمَّا جَاءَهُ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَلَكَمْهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَنِي وَلَكِنَّ أَنْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنَّ أَسْتَقِرَّ مَكَانَهُ

فَسَوْفَ تَرَنِي فَلَمَّا جَاءَهُ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكَّاً وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ شُبَّهَتْنَاكَ ثُبُّتْ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ

الْمُؤْمِنِينَ ﴿ (الأعراف: ١٤٣) .

وَلَقَدْ ظَهَرَ الْجَبَلُ فِي قَصَّةِ مُوسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - بِمَشَهُدِ التَّخْوِيفِ وَالْإِنْذَارِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ الَّذِينَ يَنَاكُفُونَ نَبِيِّهِمْ وَيَتَنَاقِلُونَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ - عَزَّوَجَلَ - وَيَمَاطِلُونَ فِي الطَّاعَةِ بَعْدِ النِّعَمِ الَّتِي
أَنْعَمَهَا عَلَيْهِمْ مِنْ إِهْلَاكِ عُدُوِّهِمْ وَإِرَاثَتِهِمُ الْأَرْضَ .. إِنَّهُ الْجَبَلُ يَرْتَقِعُ بِقُدرَةِ اللَّهِ وَيَكَادُ يَطْبَقُ عَلَيْهِمْ، لَكِنَّ
قُسْوَةَ الْقَلْبِ لَا يَنْفَعُ مَعَهَا أَيَّةَ مَعْجَزَةٍ ...

قَالَ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ بَنِي اسْرَائِيلَ فِي قَصْتِهِمْ مَعَ نَبِيِّهِمْ مُوسَى ﴿ وَلَذِنَقَنَا (١) الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ

طَلْلَةٌ وَظَنَّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا أَتَيْنَتُكُمْ بِقُوَّةٍ وَأَذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعْنَكُمْ ثَنَقُونَ ﴿ (الأعراف: ١٧١) . إِنَّهُ جَبَلُ الطُّورِ

الَّذِي رَفَعَ فَوْقَهُمْ لِيَتَعْظِمُوا وَيَعْتَبِرُوا بِقُدرَةِ اللَّهِ - عَزَّوَجَلَ - وَعَظَمَتْهُ . قَالَ تَعَالَى ﴿ وَإِذَا أَخْذَنَا مِثْقَلَكُمْ

وَرَفَقْنَا فَوْقَهُمْ الْطُّورَ خُذُوا مَا أَتَيْنَتُكُمْ بِقُوَّةٍ وَأَذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعْنَكُمْ ثَنَقُونَ ﴿ (البَّقْرَةَ: ٦٣) ، وَيَأْتِمُرُوا بِأَمْرِهِ

بِدُخُولِ الْأَرْضِ الْمُقَدَّسَةِ ﴿ وَرَفَقْنَا فَوْقَهُمْ الْطُّورَ بِمِثْقَلِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمْ أَذْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي الْسَّبَّتِ وَأَخْذَنَا

مِنْهُمْ مِثْقَلًا غَيْظَا ﴿ (النَّسَاءَ: ١٥٤)

(١) أي رفعناه/ابن كثير/جـ٢ـصـ٢٥٠

أما في قصة صالح - عليه السلام - فقد جاء ظهور الجبل من باب تعظيم فضل الله على قومه، فقد منحهم الله من القوة والقدرة ما مكّنهم من نحت الجبال واتخاذها بيوتاً آمنة فيها، لما يوفره الجبل من المنعة والحماية ، وفار هين متقدّين في تحتها ، مختالين بترفهـم وغناهـم .. ولكن ومع كل ذلك التحسـين لم يوفر لهم الجبل الحماية من عذاب الله....

قال تعالى ﴿وَلَقَدْ كَذَبَ أَهْجَبُ الْحِجَرِ﴾ (المرسـلين: ٨٠) وَإِنَّهـمْ مـا يـأتـيـنـا فـكـانـوا عـنـهـمـا مـعـرـضـينـ (٦١) وَكـانـوا يـنـحـثـونـ
 منَ الْجَبَلِ مـيـوـنـاً مـاءـمـيـنـ (الـحـرـ: ٨٠ - ٨٢) وفي موضع آخر ﴿وَتَنـحـثـونـ مـنـ الـجـبـالـ مـيـوـنـاً فـرـهـيـنـ﴾
 (الـشـعـراءـ: ١٤٩) إـلـهـمـ معـ شـدـتـهـمـ بـنـحـتـهـمـ الـجـبـالـ الشـدـيدـةـ لـمـ يـسـطـعـواـ شـبـئـاـ أـمـامـ قـدـرـةـ اللهـ - عـزـوجـلـ - وـلـمـ
 تـفـعـهـمـ شـبـئـاـ .

وفي قصة ذي القرنيـن ظـهـرـ الجـبـلـ بـصـورـةـ السـدـ المـنـيـعـ، فـقـدـ وـصـلـ ذـوـ القـرـنـيـنـ لـمـكـانـ بـيـنـ سـدـيـنـ
 عـظـيـمـيـنـ، وـكـانـ لـهـذـاـ المـكـانـ دـورـ فـيـ تـسـهـيلـ مـهـمـةـ ذـيـ القـرـنـيـنـ بـبـنـاءـ حـاجـزـ يـفـصلـ الـقـوـمـ الـذـيـنـ يـسـكـنـونـ
 بـيـنـهـمـاـ وـيـتـعـرـضـونـ لـلـأـذـىـ مـنـ يـأـجـوجـ وـمـأـجـوجـ (﴿ثـمـ أـتـيـعـ سـبـيـاـ﴾) حـقـيـقـةـ إـذـاـ بـلـغـ بـيـنـ السـدـيـنـ وـجـدـ مـنـ دـوـنـهـمـاـ قـوـمـاـ (٩)
 يـكـادـوـنـ يـفـقـهـوـنـ قـلـاـ (١٣) فـأـلـوـيـنـ ذـيـ القـرـنـيـنـ إـنـ يـأـجـوجـ وـمـأـجـوجـ مـقـسـدـوـنـ فـيـ الـأـرـضـ فـهـلـ يـجـعـلـ لـكـ خـرـجـاـ عـلـىـ أـنـ يـجـعـلـ بـيـنـهـمـ وـبـيـنـهـمـ سـدـاـ (١٤) قـالـ
 مـاـمـكـنـ فـيـهـ رـيـ خـرـ فـأـعـسـنـوـ فـيـ يـقـوـقـ أـجـعـلـ بـيـنـكـمـ وـبـيـنـهـمـ رـدـمـاـ (١٥) إـلـأـوـيـ زـيـرـ الـحـدـيدـ حـقـيـقـةـ إـذـاـ سـاـوـيـ بـيـنـ الصـدـيقـيـنـ قـالـ أـنـفـخـوـ حـقـيـقـةـ إـذـاـ جـعـلـهـ
 نـارـاـ قـالـ مـاـنـوـيـ أـفـيـغـ عـلـيـهـ قـطـرـاـ (١٦) فـمـاـ أـسـطـعـوـاـ أـنـ يـظـهـرـوـ وـمـاـ أـسـطـعـوـ لـهـ نـقـبـاـ (١٧) (الـكـهـفـ: ٩٢: ٩٧) لـقـدـ
 وـظـفـ الجـبـلـ فـيـ هـذـهـ القـصـةـ لـيـخـدـمـ ذـيـ القـرـنـيـنـ الرـجـلـ الصـالـحـ الـذـيـ سـخـرـ لـهـ اللهـ الكـونـ وـأـعـطـاهـ مـنـ كـلـ
 شـيـءـ سـبـيـاـ ، وـاسـطـعـ إـقـامـةـ بـعـضـ التـغـيـرـاتـ فـيـ المـكـانـ الـذـيـ يـسـكـنـهـ هـؤـلـاءـ الـضـعـفـاءـ تـؤـمـنـ لـهـمـ الـحـمـاـيـةـ
 وـالـأـمـانـ فـيـ مـكـانـهـمـ دـوـنـ اـضـطـرـارـهـمـ إـلـىـ الفـرـارـ أوـ تـغـيـرـ مـكـانـ إـقـامـهـ .

(١) الحـرـ: مدـائـنـ صـالـحـ بـيـنـ الـحـجـازـ وـالـشـامـ ، وـجـنـوبـ شـرـقـ أـرـضـ مـدـيـنـ الـتـيـ تـقـعـ شـرـقـ خـلـيـجـ الـعـقـبـةـ. / أـطـلسـ الـقـرـآنـ صـ٣٦

وهكذا تنوّعت دلالة الجبل وفقاً لا ختلاف رؤية القصة ، فالقصص التي تقوم على أساس فكرة التوحيد واستخدام المحاجة العقلية لإثباتها كقصة إبراهيم - عليه السلام- وظف الجبل فيها لإثبات قدرة الله على البعث ، وفي القصص التي تعرض استكبار بعض الأقوام واعتزازهم بقوتهم وبأسهم كقدرتهم على نحت الجبال ، فقد هذه الأماكن التي يمتنعون بها قدرتها على توفير الأمن أو الحماية....

الوادي

وهو مكان يتسم بالانخفاض المادي أو الجغرافي ، ولكن ليس بالضرورة أن تكون دلالات المكان بالقصة متأثرة ببعده الحقيقي ، فقد اكتسب الوادي في قصة موسى - عليه السلام- دلالة القدسية للأحداث التي ضمّها في داخله ، فالواد المقدس هو مكان تلقى فيه موسى - عليه السلام- وهي السماء بعد مكوثه في مدین عدداً من السنين. قال تعالى: ﴿ هَلْ أَنْتَكَ حَدِيثُ مُوسَى ﴾ ١٥ ﴿ إِذْ نَادَهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طَوَى ﴾ ١٦ ﴿ أَذْهَبَ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ﴾ (النازعات: ١٥ - ١٧) . والواد المقدس المسمى طوى يقع في أسفل جبل طور سيناء^(١) .

لقد وصف - عزوجل- هذا الواد بال المقدس ، كما أن مناداة الله - عزوجل- لموسى - عليه السلام- زاد من قداسة المكان ، فقد كلام الله - عزوجل- موسى - عليه السلام- تكلينا وطلب منه أن يذهب إلى فرعون ليدعوه للإيمان.

لقد ظهر الوادي المقدس مكاناً مضيئاً ومنيراً ، وهذا ما دفع موسى ليتجه نحوه فقد شعر بأنه مكان أنيس فيه حياة ، لكن الأنس الذي وجده موسى في هذا المكان كان أكبر من إيجاده لبشر يشعرون النار في وسط الصحراء ﴿ وَهَلْ أَنْتَكَ حَدِيثُ مُوسَى ﴾ ١٧ ﴿ إِذْ رَأَاهَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ أَنْكُنُوا إِيْنَى إِنَّمَا تُبَشِّرُ نَارًا عَلَى إِنْكُمْ بِنَهَارِهِنَّ أَوْ أَجِدُ عَلَى الْأَنَارِ هُدًى ﴾ ١٨ ﴿ فَلَمَّا أَنْهَا نُورِي يَمْوَسِقَ ﴾ ١٩ ﴿ إِنَّمَا أَنَارِبُكَ فَأَخْلَعَ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طَوَى ﴾ ٢٠ ﴿ (طه: ٩ - ١٢) إن قداسة هذا المكان تطلب من موسى أن يخلع نعليه احتراماً وتقديساً كما نفعل حين

(١) صفة التفاسير/ج/٣ ص ١٣٦١

ندخل إلى مساجدنا "فَأَخْلَعَ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طَرَى". وقد جاء وصف آخر للواد في سورة القصص أكثر تحديدا فنداء موسى -عليه السلام- كان في الجانب الأيمن من الوادي في ذلك المكان المبارك قرب شجرة محددة ﴿فَلَمَّا آتَنَاهَا نُودِيَّ مِنْ شَطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبَقْعَةِ الْمُبَرَّكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنَّ يَمْوِيَّ إِذَا
أَنَّ اللَّهَ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (القصص: ٣٠).

وقد جاء ذكر الوادي في قصتي عاد وثمود لبيان موضع سكنهم وكيف نزل العذاب في هذه الأودية بعد جحود أهلها واستكبارهم، فتمود لم تغنم قوتهم ونحتهم الصخر من العذاب ﴿وَثَمُودُ الَّذِينَ
جَاءُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ﴾ (الجر: ٩) وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ أَمْرُنَا بَيْتَنَا صَلِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُمْ بِرَحْمَةِ مِنْنَا
وَمِنْ خَرْبِيْ يَوْمِيْذِيْ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾ (٦٧) وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيرِهِمْ جَنِشِيمِينَ كَانُوا
يَنْزَأُونَ فِيهَا أَلَا إِنَّ ثَمُودًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بَعْدَ ثَمُودَ﴾ (هود: ٦٦ - ٦٨)، أما عاد فقد رأوا العذاب قادماً إلى أوديتهم فظنوه سحابا عارضا ممطرا أوديتهم ﴿فَلَمَّا رَأَوُهُ عَارِضاً مُسْتَقِيلَ أَوْدِيَتْهُمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُجْرِيٌّ بَلْ هُوَ مَا
أَسْعَجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (١٨) تدمير كل شئ يأمر بهم كذلك بغير القوم المجرمين
(الأحقاف: ٢٤ - ٢٥) لم يوفر الوادي لأولئك القوم المكذبين الحماية والأمان، لقد ظنوا الخير قادماً لأوديتهم لكن الحقيقة غير ذلك ، فارتبطت صورة الهلاك والدمار بأودية عاد وثمود.

ولم يسكن البشر وحدهم الأودية فهذه أمّة النمل يسكنون وادياً... لكن العذاب والدمار لم يأت واديهم ومساكنهم كما حصل مع عاد وثمود ﴿وَحِشَرَ لِسْيَمَنَ مُجْنُودٌ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسَ وَالظَّيْرِ فَهُمْ يُوَزَّعُونَ﴾ (١٧)
إِذَا أَتَقْعَلَ وَأَوْلَانَمِيلَ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَتَأْيِهَا النَّمْلُ أَدْخُلُوا مَسَكِنَكُمْ لَا يَخْطُمْنَكُمْ سِيَمَنُ وَمُجْنُودٌ وَهُرَّ لَا يَشْعُرُونَ﴾
(النمل: ١٧ - ١٨) لقد تناوب ذكر وادي النمل في قصة سليمان -عليه السلام- مع فكرة القصة التي

ترتبط الإيمان بالقوة والملك ، وكيف تتعامل القوة والملك التي يمثلها سليمان مع الضعف الذي يمثله وادي النمل.

وقد ذكر القرآن الكريم وداعياً مقدساً آخر وهو الوادي الذي أسكن فيه إبراهيم -عليه السلام- ذريته بأمر من الله - عزوجل- إِنَّهَا مَكَةُ الْمَكْرَمَةِ ﴿رَبَّنَا إِنَّقِي أَسْكَنْتَ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ عَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ﴾ (إبراهيم: ٣٧) هذا الوادي على رغم من أَنَّه لا زرع فيه ولا ماء إِلَّا بجوار بيت الله المحرم ، وكان في كلام إبراهيم -عليه السلام- دعوة خفية لإنزال الرزق والرحمة عليهم في هذا الوادي لمحاجورته للبيت المحرم ثم يصرح بدعائه ﴿فَاجْعَلْ أَفْقَدَةَ مِنْ أَنَّاسٍ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَأَرْزُقْهُمْ مِنَ الْقَرَارِتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ (إبراهيم: ٣٧) . إنَّ الألفة والأمان تجعل أي مكان جميلاً ومحيناً وإن فقد بعض مظاهر الحياة المادية كالزرع والثمر. لكن إبراهيم -عليه السلام- دعا الله -عزوجل- بأن يهيء لهذا المكان الأسباب المادية والمعنوية .

النهر / عين الماء

الماء رمز الحياة والطهر والانتعاش ، وفيه عطاء لا ينفد ، وهو إغراء لكل محتاج ، وقد وظف النهر في بعض قصص القرآن الكريم ليخدم الشخصية ويكون عونا لها أو ليكون مصدر ابتلاء لها . فقد مثل النهر لبني إسرائيل مكان نجاة وملادا من فرعون وجنوده حين جاوزه النبي الله موسى عليه السلام - بهم . وفي عهد لاحق ببني إسرائيل شكل لهم النهر موضع اختبار ، وأداة لقياس قوة إرادتهم وتحملهم والتزامهم الطاعة .

لقد سار طالوت بجنوده من بني إسرائيل لمقابلة عدوهم جالوت وجيشه الذي أخرجهم من بلادهم وقتل أبناءهم ﴿أَتَنَا تَرِيلَ الْمَلَأَ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذَا قَاتَلُوا نَفْرَاهُمْ أَبْعَثْنَا مَلِكًا تُقْتَلُ فِي

سَيِّلِ اللَّهِ فَقَالَ هَلْ عَسِيْنَاهُ إِنْ كُتِّبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَا تُقْتَلُوا قَاتِلُوْمَا لَنَا أَلَا تُقْتَلُ فِي سَيِّلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيْرِنَا وَأَبَنَائِنَا فَلَمَّا كُتِّبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْلَا قَيْلَاكِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ (البقرة: ٢٤٦)

(٢٤٦) وفي طريقهم مرروا بنهر فامتحنهم الله به ، وأمرهم ملكهم طالوت ألا يشربوا منه ، وسمح لهم بغرفة واحدة فقط ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ إِلَيْهِمْ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِكُمْ بِمِنْهُ كُنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ

يَطْعَمْنَهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنْ أَغْرَى عِزْقَهُ بِيَدِي وَفَسَرَبُوا مِنْهُ إِلَّا قَيْلَاكِنْهُمْ فَلَمَّا جَاءَهُمْ هُوَ وَالذِّي يَأْمُنُوا مَعْهُ قَاتَلُوا

لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَنْظُرُونَ أَنَّهُمْ مُلْقُو اللَّهِ كَمْ مِنْ فَتَّةٍ قَلِيلَةٌ غَلَبَتْ فَتَّةً

كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿١٣﴾ وَلَمَّا بَرَزُوا إِلَيْهِمْ جَالُوتَ وَجُنُودُهِ قَاتَلُوا إِنْهُ كَافِرٌ عَلَيْنَا صَبَرًا وَكَيْتَ

أَقْدَامَكَ وَأَنْصَرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿١٤﴾ فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقُتِّلَ دَاؤُهُ دَجَالُوتَ وَءَاتَاهُ اللَّهُ

الْمُلْكَ وَلَئِنْ كَنَّهُمْ وَعَلَمُهُ وَمَا يَشَاءُهُ وَلَوْلَا دَفَعَ اللَّهُ أَنَّاسَ بَضْعَهُمْ بِيَتَعْضُ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكَنَّ

الله ذو قضى على العذيم ﴿البقرة: ٢٤٩ - ٢٥١﴾ لقد أراد طالوت أن يختبرهم فهم سابقاً

رفضوا أن يكون ملكاً عليهم لذلك أراد أن يدخل الحكم على أرض صلبة، وبين لهم أنهم مقبلون على مهمة في سبيل الله وأنه سبحانه هو الذي سيختبرهم ليقيس همتهم وقدرتهم على الاحتمال^(١).

إن النهر وعين الماء رمز العطاء والري والصفاء لذا كان المكان الذي اختاره الله -

عزوجل- لسيدنا أيوب كي يغسل به ويشفى من مرضه ﴿وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَفَ مَسَّيَ السَّيْطَانُ بِنَصْبٍ وَعَذَابٍ ﴾٤١﴾

﴿أَرْكَضَ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرِبٌ ٤٢﴾ وَهَبَنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِلْهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةٌ مِنَّا وَذِكْرٌ لِأُولَئِكَ ۝

(ص: ٤١ - ٤٣) .

لقد أمره - عزوجل- أن يضرب برجليه الأرض فنبعت عندها عين ماء صافية فشرب منها
شففي باطن جسده واغتنسل بها فشففي ظاهر جسده^(٢) .

وفي قصة مريم - عليها السلام- كان النهر/عين الماء نعمة لها كي تشرب بعد أن وضعت
عيسى - عليه السلام- عند جذع النخلة فكان النهر لها راحة وخير ونقاء وسكونية ﴿فَاجَأَهَا الْمَخَاضُ إِلَى

﴿جِنْعَ النَّخْلَةِ قَاتَلَتِ يَلَيْتَنِي مِثْ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ سَيَّا مَنْسِيَّا ٤٣﴾ فَنَادَاهَا مِنْ تَحْنِهَا أَلَا تَحْزِنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكَ تَحْنِكَ سَرِيَّا^(٣)

﴿وَهُزِيَ إِلَيْكَ بِجِنْعِ النَّخْلَةِ شَسَقَطَ عَلَيْكَ رُطْبَاجِيَّا ٤٤﴾ فَكُلِّي وَأَشْرَفَ وَقَرِي عَيْنَا﴾ (مريم: ٢٣ - ٢٦) لقد

هيأ الله - عزوجل- المكان لمريم كي ترتاح جسدياً ونفسياً فهي متعبة جسدياً من أثر المخاض
والولادة، مجدها نفسياً من عباء هذا الحمل والوضع دون زواج، فرزقها الله - عزوجل- من ثمر

(١) تفسير الشعراوي / م/٢ / ص ١٠٥٣

(٢) الصابوني صفة التفاسير / ص ٩٨٨ ج ٣

(٣) سريا / السري النهر أو الجدول لأن الماء يسري فيه / صفة التفاسير ج ٢ / ص ٦٤٢

النخل وأخرج من تحتها عين ماء، كي تشرب وتنتعش، وكلمها وليدها كي تطمئن، لقد اجتمعت لها في ذلك المكان عناصر الاسترخاء والأمان ومقاومة الأحزان.

النادي

ارتبط ذكر النادي في القصة القرآنية بمعاني النفور والشذوذ ، والاجتماع على المعاishi
مجاهرة .

وقد ورد ذكر النادي في قصة لوط - عليه السلام -، لبيان قبح الفعل الذي كان يقوم به قومه . فالنادي
مكان اجتماعهم ومجلسهم ، وكانوا يمارسون فيه الفاحشة ، وهي إتيان الذكران علانية مجاهرين بفعلهم
هذا غير مسترين ، وهو إمعان في الوقاحة وسوء الخلق . قال تعالى: ﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ

تَأْتُونَ أَفْحَشَةً مَا سَبَقَ كُلَّمَا كَانَ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ الْعَالَمِينَ ﴿٢٦﴾ إِنَّكُمْ تَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّكِيلَ

وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَثْنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الْصَّادِقِينَ ﴿٢٧﴾ (العنكبوت: ٢٨ - ٢٩) لقد نهى لوط - عليه السلام - قومه عن الفاحشة ﴿أَتَأْتُونَ اللَّذِكَرَانَ مِنَ

الْعَالَمِينَ ﴿٢٨﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿٢٩﴾ (الشعراء: ١٦٥ - ١٦٦) وعبر عن

بعضه لما يعملون ﴿قَالَ إِنِّي لِعَمِلِكُمْ مِنَ الْقَالِبِينَ ﴿٣٠﴾ (الشعراء: ١٦٨)، ثم صور شناعة فعلهم المنكر حين

ذكر المكان الذي يمارسونه فيه ﴿وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ ﴿٣١﴾ (العنكبوت: ٢٩)) فهم لا يستحيون

من الفاحشة بل يجاهرون بها أمام الملأ ويستنكرون على لوط طهارته . ﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا

أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَوْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنْاسٌ يَظْهَرُونَ ﴿٣٢﴾ (الأعراف: ٨٢)، فاستحقوا بذلك الغضب

والعذاب من الله - عزوجل - ﴿ثُمَّ دَمِّرْنَا الْأَكْرَبِينَ ﴿٣٣﴾ وَمَطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطْرُ الْمُنْذَرِينَ ﴿٣٤﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذَّةٌ وَمَا كَانَ

أَكْثُرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٣٦﴾ (الشعراء: ١٧٢ - ١٧٥) .

لقد وظّف المكان/النادي ليعكس شناعة انقلاب الفطرة ،فاستحقاق قوم لوط للعذاب بهذه الصورة - انقلاب المكان عليهم، وانقلاب المطر حجارة- ليس لمجرد المعصية بل للمجاهرة والمطالبة بها علانية لأنها حق لا ينكر، فوظفوا النادي ليعبروا عن اتساع شذوذهم .

العرش

وهو مكان جلوس الملوك ويتسم بالفخامة والعظم، وقد وظّف العرش في قصة سليمان ليكون وسيلة دعوة للإيمان ،وكان اختيار العرش ليتناسب مع مقوله القصة التي تربط الدعوة إلى الله بالمال والملك ،فالعرش رمز للملك ،ومثوله بين يدي سليمان إشارة لمثول مملكة سبا كلها بين يديه ابتداء بحاكمها.

لقد كان مملكة سبا عرش عظيم لفت انتباه الهدedd حتى ذكره لسليمان في حديثه عن خبر سبا ﴿فَمَكَّثَ عَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَاطْتُ بِمَا لَمْ تُحْطِ بِهِ، وَخَتَّلَكَ مِنْ سَكِينٍ يُنَبَّأُ بِقِيمَتِهِ﴾^{٢٢} إني وجدت أمراً تمثل كلهم وأوتيت من كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ (النمل: ٢٢ - ٢٣) ،فلم يكتف الهدedd بوصف ملكها بأنها أوتيت من كل شيء، بل خصص ذكر العرش وكأنها إشارة في بداية القصة إلى أن هذا المكان سيكون له شأن في أحداث القصة.

وشكل العرش المكان الأول لاختبار مملكة سبا وكان الهدedd قد لفت انتباه سليمان -عليه السلام- له في بداية الأمر ،فاختاره دون سواه من أملاكه ليختبرها به، كما أن العرش رمز للملك والقوة والسيطرة إحضار عرشها من سبا في اليمن إلى سليمان إشارة واضحة إلى قوته وصدق نبوته، بالإضافة إلى أن مملكة سبا حاولت أن تقدم لسليمان هدية لعله يكون من ملوك الدنيا الذين يطمعون

فينتهي عما يريد فراد أن يريها أن ما أعطاه الله - عزوجل- يفوق بكثير ما عندهم **﴿وَلَنِي مُرْسِلٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاطَرَهُمْ بِمَا يَرْجِعُ إِلَيْهِ الْمُرْسَلُونَ﴾**

﴿فَلَمَّا جَاءَهُ سَلِيمَانَ قَالَ أَتَيْدُ وَنِي بِمَا أَتَيْنَيْهِ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا أَتَكُمْ بَلْ أَنْتُ بِهِ مُبِينٌ﴾ **﴿۲۶﴾**

﴿أَتَجِعَ إِلَيْهِمْ فَلَنْ أَنْهِمْ بِمُؤْمِنٍ لَا قِيلَ لَهُمْ بَهَا وَلَنْخَرِجَهُمْ مِّنْهَا أَذِلَّهُ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ **﴿۲۷﴾**

﴿فَالَّذِي أَنْهَمْتَهُمْ بِأَنْتِي بِعَرْشَهَا قَبْلَ نَفَرُونَ﴾ **﴿۲۸﴾**

﴿أَنْ يَأْتُنِي مُسْلِمِينَ﴾ **﴿۲۹﴾** **﴿قَالَ عَفَرِيتٌ مِّنْ لَعْنَ أَنَّا مَارِيَكَ بِهِ، قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَلَنِي عَيْتَهُ لَقَوْيَ أَمِينَ﴾** **﴿۳۰﴾** **﴿قَالَ اللَّهُ أَنِّي عِنْهُ عَلِمَ وَمِنْ أَنْ لَكَنْتَ أَنَّا مَارِيَكَ بِهِ، قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَ إِلَيْكَ طَرْفَكَ فَلَمَّا رَأَاهُ مُسْتَقِرًّا عِنْهُ، قَالَ هَذَا إِنْ فَضِيلٌ رَّبِّي لِبَلْوَفَةٍ أَشْكَرَمَ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي عَنِّي كَرِيمٌ﴾** **﴿۳۱﴾** **﴿فَلَمَّا جَاءَتِهِ قِيلَ أَنَّكَ وَالْمَاعِرُّهُمْ أَنْتَهَى أَمْرَتَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ﴾** **﴿۳۲﴾**

﴿أَهَذَاذَا عَرْشُكَ قَالَ كَانَهُ هُوٌ وَأَوْتَنَا الْعِلْمَ مِنْ قِبْلَهَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ (النمل: ٣٥ - ٤٢) ثم كان الاختبار "قال تَكْرُونَ لَهَا عَرْشَهَا نَظَرَ أَنْتَهَى أَمْرَتَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ"

لقد طلب سليمان أن تغير بعض صفات عرشها حتى يختبر عقلها وذكاءها إذا كان هذا عرشها أم لا فكانت إجابتها في غاية الذكاء (كانه هو) فلم تثبت ولم تنف^(١).

لقد كان العرش ممضا لا هناء وإيمان ملحة سبا ، فملك عظيم كسليمان - عليه السلام- يحتاج إلى أداة عظيمة كي يدعو بها؛ لأنه يعلم مدى تأثيرها ، فكان العرش هو خير وسيلة لذلك.

(١) الصابوني صفوة التفاسير / ص ٩٨٨ ج ٣

التابوت

ويتحول رمز الموت(التابوت) في القصة القرآنية إلى رمز للنجاة والحياة ، فقد وظف في قصة موسى ليكون مساندا له كغيره من الأماكن ، وإذا كانت قصة موسى -عليه السلام- دعوة للحرية ونبذ الظلم والذلة ، فإن التابوت دعوة للجرأة والإقدام وعدم الخوف من المجهول ، فقد تصرفت أم موسى ضمن إمكاناتها ولم تيأس فوضعت رضيعها في التابوت ثم ألقته بالساحل ، وتركت النتائج على الله عزّ وجلّ .

لقد كان ذلك الصندوق الحامل الأمين والحضن الدافئ لموسى -عليه السلام- فقد ضمه عوضا عن حضن أمه و نقله من البحر ليرميه في الساحل ليأخذه فرعون ويكون له عدوا وحزنا)

وَلَقَدْ مَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى ﴿٣٧﴾ إِذَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مَمْوُحَّى ﴿٣٨﴾ أَنْ أَقْذِفْهُ فِي التَّابُوتِ فَأَقْذِفْهُ فِي الْيَمِّ فَلَمْ يَلْفِهِ أَيْمَمٌ بِالسَّاحِلِ يَأْمُدُهُ عَدُوُّكَ وَعَدُوُّكَ ﴿طه: ٣٧ - ٣٩﴾ .

لقد كان التابوت أكثر أماناً من حضن أم موسى ؛ لأن جنود فرعون سيقتلونه في أي وقت لذا كان الإلهام إلى أم موسى بأن تقذفه في التابوت ، وبما تحمله الكلمة(اقذفيه) من جمال التصوير فكتأها تبذل جهدا كبيرا في منازعة نفسها لترمي برضيعها في داخل التابوت الذي سيحمله بدوره في البحر لكنه سيكون أكثر أملأ لحياة موسى) وَأَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أُمَّةً مُؤْسَى أَنَّ

أَرْضِيْعِيْهِ فَإِذَا خَفَتِ عَيْنِهِ فَكَأْلِيْهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا رَادُوكَ إِلَيْكَ وَجَاءُوكَ مِنْ الْمَرْسَلِينَ ﴿القصص: ٧﴾ .

ونلاحظ أن حضور لفظة التابوت في الآية التي من سورة القصص لم تكن موجودة بل فهمنا من سياق سابق أن أم موسى لن تلقى ابنها في البحر مباشرة بل سيكون التابوت هو وسيلة النقل له ، ولعل هذا الغياب في اللفظ والحضور في الذهن للatabot في هذه الآية يتناسب مع الحالة الشعرية لأم موسى) فَإِذَا خَفَتِ عَيْنِهِ فَكَأْلِيْهِ فِي الْيَمِّ ﴿القصص: ٧﴾ ، ولم تفصل الآية وتذكر التابوت ؛ لأنَّ

الخوف من شيء يحتاج إلى السرعة في الهرب ، وكأنّ الألفاظ تشعر مع أم موسى فلا تطيل عليها وتعطيها النتيجة والمحصلة للمكان الذي سيحمل تابوت ابنها إلى بر الأمان.

التابوت في قصة طالوت/ التابوت كعلامة وآية

وفي قصة الملاً منبني إسرائيل الذين طلبو من نبيهم القتال في سبيل الله وطلبوه أن يجعل عليهم ملكا فاختار طالوت فأنكروا ذلك؛ لأنّه لم يؤت سعة من المال لكن نبيهم بين لهم أن الله زاده بسطة في العلم والجسم ، وأن الله - عزوجل- سيعطيهم علامة على ملكه واصطفائه وهي التابوت . ﴿وَقَالَ لَهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّنْ رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ أَهْلُ مُوسَىٰ وَأَهْلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ (البقرة: ٢٤) .

وقد جاء في تفسير الآية الكريمة: أي يردّ الله التابوت الذي أخذ منكم وهو صندوق التوراة الذي كان موسى - عليه السلام- إذا قاتل قدمه فكانت تسكن نفوس بنى إسرائيل ولا يفرون وفي الصندوق أيضا بقية من آثار آل موسى وآل هارون وهي عصا موسى وثيابه والألواح التي كتبت فيها التوراة تحمله الملائكة. قال ابن عباس: جاءت الملائكة تحمل التابوت بين السماء والأرض حتى وضعته بين يدي طالوت والنّاس، إنّ في نزول التابوت لعلامة واضحة أنّ الله اختاره ليكون ملكاً عليهم إن كانوا يؤمنون بالله واليوم الآخر^(١).

(١) الصابوني صفوة التفاسير/ ص ١١٥ ج ٣١

المهد

المهد هو المكان الذي يوضع فيه الطفل الصغير ليضمه ويحميه ويكون مأواه خارج حضن أمّه. لقد ظهر المهد في قصة مريم -عليها السلام- للإشارة والدلالة على شرفها وطهرها فكان معجزة خارقة حين تكلم ولیدها عيسى -عليه السلام-. وهو فيه ﴿فَاتَّ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ فَأَلْوَأْ يَمْرِيمَ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فِي أَنْتَ هَرُونَ مَا كَانَ أَبُوكَ أَمْرَأَ سَوْءٌ وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَغِيَّا ﴾٢٨﴿فَأَشَارَتِ إِلَيْهِ فَأَلْوَأَ كَيْفَ تُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَيْئًا ﴾٢٩﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ أَتَتَنِي الْكِتَابُ وَجَعَلَنِي مُبَارَّاً إِنَّمَا مَا كَثُرَ وَأَوْصَنِي بِالصَّلَاةِ وَالرَّكْوَةِ مَا دُمْتَ حَيًّا﴾ (مريم: ٢٧ - ٣١) لقد ضم المهد معجزة وهي عيسى -عليه السلام- الذي ولد دون أب وحدثت فيه معجزة وهي كلام عيسى -عليه السلام-. وهو ما زال وليدا ولم يتحدث بأي كلام بل إله الكلام الحق، إنه التوحيد بالله فلم يحتضن المهد طفلاً رضيعاً وحسب بل احتضن نبياً مرسلاً ظلّ كلامه في المهد شاهداً على صدق دعوته ^(١) وعلى طهارة السيدة مريم -عليها السلام -.

بناء الجحيم

وهو البناء الذي بناه قوم إبراهيم -عليه السلام-. وأشعلوا فيه النار، وألقوا فيه إبراهيم -عليه السلام- لأنّه حطم أصنامهم ﴿وَاتَّ مِنْ شَيْئِنِهِ لِإِزْهِيمَ ﴾٤١﴿إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾٤٢﴿إِذْ قَالَ لِأَيْهَ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴾٤٣﴿أَيْقِنًا إِلَهَهُ دُونَ اللَّهِ تَرِيدُونَ ﴾٤٤﴿فَمَا ظَنَّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾٤٥﴿فَنَظَرَ نَظَرَةً فِي الْأَنْجُومِ ﴾٤٦﴿فَقَالَ إِنِّي سَاقِيمٌ

(١) عزة الحلبي / جماليات المكان / ص ٢١٨

فَنَلَوْا عَنْهُ مُدِيرِينَ ﴿١٠﴾ فَرَأَعَ إِلَيْهِ الْمُهْنِمَ فَقَالَ أَلَا تَكُونُونَ ﴿١١﴾ مَا كُنْتُ لَأَنْطِقُونَ ﴿١٢﴾ فَرَأَعَ عَلَيْهِمْ ضَرِبًا يَالْيَمِينِ ﴿١٣﴾ فَاقْبَلُوا إِلَيْهِ
يَرْثِيُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ أَنَّبَدُونَ مَا نَحْسُونَ ﴿١٥﴾ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا نَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ قَالُوا أَبْتُوا لَهُ بَيْتًا فَأَلْقَوْهُ فِي الْجَحِيمِ ﴿١٧﴾ فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا
فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلَيْنَ ﴿١٨﴾ (الصفات: ٩٨ - ٨٣). لقد بنوا بناء خاصا لحرق إبراهيم به فأنجاه الله -
عزوجل- وحدثت المعجزة في هذا المكان ليظهر مكانا فريدا ﴿١٩﴾ قَالُوا حَرَقُوهُ وَنَصْرُوا إِلَهَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ
فَعَلِيلُكُمْ ﴿٢٠﴾ قُلْنَا يَنَارًا كُوْفَى بَرَدًا وَسَلَمًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ ﴿٢١﴾ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ ﴿٢٢﴾ (الأنبياء: ٦٨ -
٧٠) لقد فقدت النار خاصية الإحراق في هذا البناء فلم تكن بردا فقط بل كانت كما أمرها خالقها بردا
وسلاما ليس على أحد سوى إبراهيم ﴿٢٣﴾ قُلْنَا يَنَارًا كُوْفَى بَرَدًا وَسَلَمًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ ﴿٢٤﴾ (الأنبياء: ٦٩).

الأخدود

ولا نبتعد كثيرا عن بناء الجحيم الذي ألقى فيه إبراهيم -عليه السلام-، فالأخذود هو الشق العظيم المستطيل كالخندق، وجمعه أخذود^(١) قد ورد في قصة أصحاب الأخدود وسيلة ومكان عذاب وقتل للمؤمنين ، فقد أشعل فيه الكافرون ناراً عظيمة ليفتنوا المؤمنين عن دينهم لكنهم ثبتوا وضحوّا بأنفسهم في سبيل الله ولم يرهبوا الأخدود وما به من نار مشتعلة ﴿٢٥﴾ قُلْ أَعْجَبُ الْأَخْدُودَ ﴿٢٦﴾ أَنَّا رِذَاتِ الْوَقُودِ
إِذْ هُرَّ عَنْهَا قُوْدٌ ﴿٢٧﴾ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شَهُودٌ ﴿٢٨﴾ (البروج: ٤ - ٧) . لقد صور لنا القرآن شناعة هذا المكان بشناعة القائمين عليه فهم جلوس حوله ليشهدوا قتل وإحراق وتعذيب المؤمنين ليس لجرائم ارتكبوه بل لمجرد اعتقاد آمنوا به ﴿٢٩﴾ وَمَا نَقْمُدُ مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (البروج: ٨)، ومن

(١) الصابوني صفوة التفاسير/ ص ١٨٣ ج ٣

هنا كان العقاب من جنس العمل... عذاب الحريق لكنه عذاب دائم لا ينتهي أبداً ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْكُفَّارَ مِنْ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابٌ جَهَنَّمُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلْحَقِيقٌ﴾ (البروج: ١٠).

المحراب

يرمز المحراب للطهر والصفاء والألفة والراحة والأمان التي يستشعر فيها العبد باتصاله بخالقه، وهو مكان عبادة أكثر خصوصية من غيره من أماكن العبادة الأخرى؛ لأنّه يرتبط عادة بشخص واحد يمكث فيه لمناجاة ربه وعبادته منفرداً منقطعاً عن الناس. و يظهر دور المحراب في القصة القرآنية بجمالية خاصة ؛ لأنّه يرفع الستار عنه ويكشف لنا خصوصية من فيه بمشاعرهم وانفعالاتهم وتجردتهم الذي لا يكون أمام الناس أو أمام أحد من الخلق.

لقد مثل المحراب في القصة القرآنية مكان مناجاة ومكان نلق للرزق ومكان اختبار وابتلاء، فقد تتوعد دلالاته وفقاً لرؤيه القصة والسياق الذي ورد فيه .

ففي قصة مريم -عليها السلام - نجد أنّ المحراب ليس مكان عبادة وحسب بل كان مكان صنع المعجزات والمفاجآت، فهذا زكريا -عليه السلام- يفاجأ ويتعجب من دخوله عليها المحراب ووجود الرزق عندها على الرغم من أنّ أحداً لم يحضره لها ،فقد كان زكريا -عليه السلام- هو الكافل لها.

﴿فَنَبَلَّهَا رَبُّهَا بِقُبُولٍ حَسَنٍ وَأَبْتَهَا بَنَاتَ حَسَنًا وَكَفَلَهَا ذَكْرِيَا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا كَرْكِيَا الْمَحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ

يَعْرِمُ أَنَّ لَكَ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (آل عمران: ٣٧) هي ملازمـة لمحرابها وزكريا -عليه السلام- ملازمـة لفقد أحوالها في المحراب والرزق مستمر من عند الله لها في هذا المكان ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا كَرْكِيَا الْمَحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا﴾ (آل عمران: ٣٧) إنه رزق من غير حساب

﴿هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (آل عمران: ٣٧) لقد اهتز زكريا -عليه السلام- بما

شاهدء عند مريم في المحراب اهتز؛ لأنه أدرك قدرة الله العظيم وعرف الطريق إلى الرزق مهما كان هذا الرزق مستحيلاً، إله المحراب الذي يتجرد فيه العبد أمام خالقه فيدعوه ويناجيه ﴿هُنَالِكَ دَعَا

رَكْرِيَّا رَبَّهُ، قَالَ رَبِّي هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرْبَيْهَ طَيْبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ (آل عمران: ٣٨) هنالك في ذلك المكان

وعند لحظة الإيقان دعا زكريا بما يخفيه في داخله وبما يخجل أن يكشفه أمام أحد من الخلق ﴿ذُكْرٌ

رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَاً﴾ ﴿إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءَ حَفِيَّا﴾ (مريم: ٢ - ٣) نداء خفي عن الناس خفي داخل

المحراب يتجرد فيه زكريا أمام خالقه ﴿قَالَ رَبِّي إِنِّي وَهَنَ الْعَظُمُ مِنِّي وَأَشْتَعَلَ الْأَرْأَسُ شَيْئًا وَلَمْ أَكُنْ يُدْعَى إِلَيْكَ

رَبِّي شَيْئًا﴾ ﴿وَإِنِّي خَفَتُ الْمَوْلَى مِنْ وَرَاءِي وَكَانَتْ أَمْرَأَيْ عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلَيْتَ﴾ ﴿يَرْثُنِي وَيَرِثُ مِنْ إَلَّا

يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّي رَضِيَّا﴾ (مريم: ٤ - ٦). لقد كان لزكريا -عليه السلام- ما سأله فإذا رزق الله -

عزو جل- مريم -عليها السلام - دون أن تسأله وبغير حساب فكيف بمن يسأله ويلوح عليه في الطلب!

﴿فَنَادَاهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يَصْلِي فِي الْمِحَرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلْمَةِ مِنْ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَبَيْتًا مِنَ

الْمُكَلِّعِينَ﴾ (آل عمران: ٣٩). إن سلوك الشخصية في المكان استوجب البشري لها فقد بشرته

الملاكية بيحيى وهو قائم يصلى في المحراب ، هو قائم يصلى، مستمر في عبادته ودعائه لم يفتر ولم ييأس.

وعلى الرغم من الإيمان بالله واليقين عليه والإلحاح في سؤاله يتعجب زكريا من هذه البشرى

﴿قَالَ رَبِّي أَنَّ يَكُونُ لِي عَلَمٌ وَكَانَتْ أَمْرَأَيْ عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغَتْ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيَّا﴾ ﴿فَقَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبِّكَ هُوَ

عَلَيَّ هُنَّ وَقَدْ خَلَقْتَنِي مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُنْ شَيْئًا﴾ ﴿فَقَالَ رَبِّي أَجْعَلْ لِي مَا يَأْتِيَهُ قَالَ إِنَّكَ لَأَنْتَ كَلِمَ النَّاسِ ثَلَاثَ

لِيَالِي سَوِيَّا﴾ ﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحَرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَيَحْوَبُّكُرَةً وَعَشِيشَيَا﴾ (مريم: ٨ - ١١) عق و

كبير ووهن لكن ذلك لم يمنعه من مناجاة ربه داخل المحراب... ولكنه يحتاج خارج المحراب إلى آية وعلامة ﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَن سَيِّئُونَ بِكُوْرَةٍ وَعَشِيْبَا﴾ (مريم: ١١) ليكون أكثر اطمئناناً.

لقد قاد رزق مريم من الثمر في المحراب دون حساب قاد زكريا -عليه السلام- لأن يدعو ويناجي فيرزن بالغلام يحيى النبي الصالح، فظهر المحراب بصورة الباعث على الأمل، الأمل الذي تدعوا إليه قصة زكريا، فمهما كان الأمر صعبا فإن الإيمان وقوة الرغبة في الشيء ترفعه من حدود المستحيل إلى حدود الممكن .

وأما مريم العذراء فهي تمضي بصمت وسكونة ، اعتزلت قومها في محرابها ﴿وَدَكَرْ فِي الْكِتَبِ مَرِيمَ إِذَا نَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرِيقًا﴾ (مريم: ١٦) واتخذت من دونهم حجابا لنكرس نفسها كما نذرتها أمها امرأة عمران لخدمة بيت الله .

إن المحراب ما زال يحمل لمريم المزيد من المفاجآت ، والمزيد من الرزق لــه رزق أعجب من رزقها السابق إنه الولد ، وهي طاهرة عذراء ﴿فَأَخْنَثَتْ مِنْ دُونِهِمْ جَهَابًا فَأَرْسَلَنَا إِلَيْهَا رُوحًا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَّرًا سَوِيًّا﴾ (١٧) قالت إنّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قال إنّما أَنَا رَسُولُ رَبِّكَ لَا هُوَ لَكِ غُلَمٌ مَازِكِيَّا ﴿١٩﴾ قالت أَنّي يَكُونُ لِي غُلَمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَّرٌ وَلَمْ أَكُ بَعِيْتاً ﴿٢٠﴾ قال كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَى هَذِهِ لِنَجْعَلَهُ دَاءَ إِلَنَّا سِرْ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا﴾ (مريم: ١٧ - ٢١) وبهذا كان المحراب مكانا لاتصال العبد بخالقه بتفرد دون أن يطلع عليه أحد من الخلق ، وهذا الاتصال يهيء للعبد ما لا يتوقعه من رزق ليس الرزق المادي وحسب ، بل والمعنوي أيضا .

* المحراب في قصة داود عليه السلام

وفي قصة داود -عليه السلام- ظهر المحراب بالإضافة لكونه محل عبادة ،موقع ابتلاء واختبار لداود-عليه السلام-. فقد كان داود النبي الملك -عليه السلام- يخصص بعض وقته للتصريف في شؤون الملك وللقضاء بين الناس ويخصص وقتا آخر للخلوة والعبادة في المحراب وكان إذا دخل المحراب للعبادة والخلوة لم يدخل إليه أحد حتى يخرج هو إلى الناس^(١).

وتكشف لنا أحداث القصة عن طريقة دخول المتخاصمين إلى المحراب فقد تصوروه في وقت خلوته -عليه السلام- للعبادة، ولم يأتيها من باب المحراب، لذلك فزع منهم داود -عليه السلام- لكنهما سرعان ما طمأناه برغبتهما في أن يحكم بينهما بالعدل. وهكذا ظهر المحراب مكان عبادة ومكان حكم ومواضعا جرى فيه اختبار وامتحان نبي الله داود -عليه السلام-.

فهما رجلان متخاصمان لكن داود -عليه السلام - استمع من الطرف الأول وحكم قبل أن يستمع إلى الطرف الثاني، فعاتبه الله في ذلك ، فالحكم ينبغي عليه أن يسمع من كلا الطرفين قبل أن يحكم.

قال تعالى ﴿أَصِيرُّ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِيْلِ إِنَّهُ أَوَّلُبِّ (١٧) إِنَّا سَحَرْنَا لِجَبَالَ مَعَدْمُسِتْخَنَ بِالْعَشِيَّ (١٨) وَالظَّرِيرَ حَشُورَةَ كُلَّ لَهْرَأَوَابِ (١٩) وَشَدَّنَا مُلْكَهُ وَإِيتَنَهُ الْحِكْمَهُ وَقَصَلَ الْخَطَابِ (٢٠) * وَهَلْ أَتَنَكَ بَئْوَ (٢١) وَالظَّيرَ حَشُورَهُ كُلَّ لَهْرَأَوَابِ (٢٢) إِذْ دَخَلُوا عَلَىٰ دَاوُدَ فَزَعَ مِنْهُمْ فَأَلْوَالَاتَّخَفَتْ خَصَمَانِ بَعْنَ بَعْضِنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَلَاحَكُمْ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا الْخَصْمِ إِذْ تَسْوَرُوا الْمَحْرَابَ (٢٣) إِذْ دَخَلُوا عَلَىٰ دَاوُدَ فَزَعَ مِنْهُمْ فَأَلْوَالَاتَّخَفَتْ خَصَمَانِ بَعْنَ بَعْضِنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَلَاحَكُمْ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا شُطِطُ وَأَهْدَنَا إِلَى سَوَاءِ الْصِرَاطِ (٢٤) إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ قِيمٌ وَتَسْعُونَ بِنَجَاهَهُ وَلِيَبْعَجَهُ وَحْدَهُ فَقَالَ أَكْفَلْنَاهَا وَعَزَفَ فِي الْخَطَابِ (٢٥) قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ سُؤَالٌ تَبْحَثُكَ إِلَىٰ فَعَاجِمِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْخَلَطَاءِ يَبْغِي بِعِصْمِهِمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّلِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبِّهِ وَغَرَّ رَأْكَهُ وَأَنَابَ (٢٦) (ص: ١٧ - ٢٤)

البيت الحرام

إنّ كلمة بيت مأخوذة من البيوتية وهو المأوى الذي تأوي إليه وتسكن وتهداً أنت وزوجك وأولادك "ولذلك سميت الكعبة بيّنا؛ لأنها هي المكان الذي يستريح إليه كل خلق الله"^(١)

ويرتبط البيت الحرام بإبراهيم - عليه السلام - مع ولده إسماعيل فهما اللذان رفعا قواعده ورفعا بناءه ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا نَقْبَلُ مِنَ إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (البقرة: ١٢٧). إنّه المكان الذي أسكن إبراهيم - عليه السلام - ذريته فيه .. فكان وما زال مكاناً مقدساً مباركاً ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَرِّ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمَ رَبَّنَا لِيُقْبِلُوا الصَّلَاةُ فَلَأَجْعَلَ أَفْعَدَةً مِنْ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَأَرْزُقُهُمْ مِنَ الشَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ (إبراهيم: ٣٧) ، فالوادي على الرغم من أنّه مقفر من الزرع لكنه بجوار بيت الله الحرام، فإبراهيم تركهم تحت رعاية الله - عزوجل -.

لقد ظهر البيت الحرام في مشهد لاحق وهو مشهد إبراهيم - عليه السلام - وابنه إسماعيل - عليه السلام - وهو يرفعان قواعد البيت ويبيهان إلى الله بالدعاء ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا نَقْبَلُ مِنَ إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (١٢٧) ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَمَنْ ذُرِّيَّتَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَا سَكَّا وَبَثَّ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَابُ الرَّحِيمُ﴾ (١٢٨) ﴿رَبَّنَا وَأَبَعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتَلَوَّ عَلَيْنِهِمْ مَا أَتَيْتَكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَبِرْكَهُمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَرِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (١٢٩) (البقرة: ١٢٧-١٢٩).

لقد ارتبطت الأماكن المقدسة بالدعاء ومناجاة الله - عزوجل - والافتقار إليه ، وهي أماكن تعطي الشعور بالأمان والهدى والرعاية .

غيبة الجب / البئر

يظهر الجب في القصة القرآنية رمزاً للظلم والقسوة والانعزال والوحدة ،إنه المحنـة الأولى ليوسف الفتى الصغير الذي تأمر أخوته عليه؛ لأنهم أحسوا أنَّ أباهم يعقوب -عليه السلام- يحبه أكثر منهم فأرادوا التخلص منه بقتله ﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَلِخَوْنَهِمَا إِيَّاهُ لِلْسَّائِلِينَ ٧﴾ ﴿إِذْ قَالُوا لِيُوسُفَ وَلَخُونَهُمَا أَحَبُّ إِلَيْهِ أَبِيهِمَا مِنَ الْمَنْعِنَ عَصْبَتُهُ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ٨﴾ ﴿أَقْتَلُو لِيُوسُفَ أَوْ أَطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهَ أَيْكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ ٩﴾ ﴿قَالَ قَاتِلُ مِنْهُمْ لَا نَقْتُلُو يُوسُفَ وَالْقُوَّهُ فِي غَيْبَتِ الْجُبِّ يَلْقَطُهُ بَعْضُ السَّيَارَهِ إِنْ كُثُرَ فَنَعِيلَهُنَّ ١٠﴾ (يوسف: ٧ - ١٠).

وعلى الرغم من أنَّ الجب مكان مظلم مخيف ألقى فيه الفتى صغير لكنه كان المكان البديل عن القتل ، والمكان الذي يؤمل فيه أن يجده أحد ما ويهد له يد العون فيه .
لقد أجمع الأخوة أمرهم وراودوا أباهم عن أخيهم وحاکوا المكيدة حول أخيهم وأبيهم وأخذوا أخاهم معهم ثم أجمعوا أن يجعلوه في غيابات الجب ﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا يَدْعُهُ وَاجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيْبَتِ الْجُبِّ وَأَوْجِنَّا إِلَيْهِ لَتَبَتَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ١٥﴾ (يوسف: ١٥) . وغياب الجب هي قعر الجب وغوره ^(١)
لقد ألقوه فيه دونما شفقة لكن هذا الفتى الصغير يوسف الذي لا يملك من أمره حولا ولا قوة ألقى في روعه أنه سيخبرهم بفعلتهم هذه بعد حين ، وهذا الإيحاء والإلهام من الله لا بد له من أنه أعطى يوسف الأمل بالخلاص والثقة بالله بالنجاة ، وكان له ذلك لقد أرسل له الله بعض المارة ليりدوا ماء البئر فاستخرجوا يوسف منه واستبشروا به ؛ لأنهم أرادوا بيعه بضاعة يستقيدون من ثمنها ﴿وَجَاءَتْ سِيَارَهُ ١٦﴾ (يوسف: ١٦).

وهكذا يخرج يوسف من الجب ليشتريه عزيز مصر ويكرم مثواه ويكون ذلك سبباً في تمكينه في

الْأَرْضِ ﴿ وَقَالَ الَّذِي أَشْرَكَهُ مِنْ قَبْرَ لِأَمْرَاتِهِ أَكْثَرُهُمْ مُتَوْهُنُونَ سَوْمَ أَنْ يَنْفَعُنَا أَوْ نَنْخِذُهُ وَلَدَأْ وَكَذَلِكَ مَكَنًا لِيُوْسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعْلَمُهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ عَالِمٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾^(٦)

(يوسف: ٢١) لقد كان ظاهر هذا المكان الشر والأذى لكن حكمة الله - عزوجل- وقدرتها جعلت هذا المكان مكان انطلاق يوسف نحو مصر وملك مصر والتمكين في الأرض، بعد تجاوز بعض المحن وأهمها السجن .

الكهف

ويظهر الكهف في القصة القرآنية مأوى وملذاً لمن يلتجيء إليه، لقد وظفت هذا المكان في قصة أصحاب الكهف ليس لهم في إبراز رؤية القصة التي تقوم على أساس التمسك بالمبادئ حتى لو كان ذلك خلافاً للجماعة القوية، فأصحاب الكهف يمثلون الفئة القليلة الضعيفة، والكهف يمثل المكان المتواضع، هذا الإمكانيات المحدودة، ومع ذلك قدم حماية كبيرة، والفتية على صغر عمرهم وقلة عددهم، كانوا على حق وكانت لهم الغلبة و تخليد الذكر في النهاية.

والكهف مكان متوسط الارتفاع يقع غالباً بين الجبل والوادي، وغالباً ما ترتبط القدسية بذكر الكهف، فهو مكان رحب لنزول الوحي وتلقى الرسالة السماوية، فالرسول محمد - صلى الله عليه وسلم - تلقى رسالة الوحي في غار حراء، وموسى - عليه السلام - تلقى الرسالة السماوية في طور سيناء^(١).

وقد اجتمع في الكهف خصائص جعلته مأوى مناسباً لكل من يلتجيء إليه ناشداً الاختباء والهرب مما يلاحمه، متاماً منه توفير الحماية والأمن، فهو مكان بعيد عن متناول الناس .. مظلم لا يرى ما بداخله يلفه الغموض^(٢).

(١) محمد أبو زريق / المكان في الفن / ص ٧٠

(٢) عزة الحلبي / الزمن في القصة القرآنية / ص ١٥

لذا اختار الفتية المؤمنون الكهف ليكون ملذا لهم، ليكون المكان الذي يفرّون إليه بدينهم ويأتون فيه. فالكهف على ظلمته وضيقه يظل أكثر رحابة وأكثر دفناً من مدینتهم التي يلاحقهم ملكها وأهلها ليصدوهم عن دينهم أو ليعذبوهم قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ مَا يَأْتِنَا عَجَّابًا﴾ (الكهف: ٩ - ١٠)

١٠) لقد أوى الفتية إلى الكهف ناشدين الرحمة فيه والرشاد من عند رب العالمين، فهم ربما يجدون مخاطر داخل هذا الكهف، لكن اعتمادهم على الله بأن يجعله رحمة بهم ، كان أكبر من مخاوفهم تجاهه. وكان لهم ما يريدون ولكن ليس وفق ما يدبرون ويرتؤون بل وفق ما يدبر الله الأمور لقد ضرب الله على آذانهم في الكهف نهاية عن الاستغراق في النوم ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ مَا يَأْتِنَا عَجَّابًا﴾

﴿فَضَرَبَنَا عَلَيْهِ أَذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا﴾ (الكهف: ٩ - ١١) ، فالنوم هو أول الرحمات التي نزلت عليهم في هذا المكان؛ لأنّ فيه الراحة والسكينة فالنائم لا يقلق بشأن العالم المحيط ولا يفكر فيه بل تطوف روحه حيث تشاء وهو مقيم في مكانه.

﴿ثُمَّ بَعَثَنَا إِلَيْهِمْ أَئِمَّةً لِلْجِنِّينَ أَخْصَى لِمَا لَيْشُوا أَمَدًا﴾ (الكهف: ١٢) لقد أيقظهم الله من سباتهم وعبر القرآن بلفظة (بعثهم) وكأنهم أموات فأحياءهم.

ويعود بنا المشهد القرآني إلى ما قبل الفرار إلى الكهف لنعرف سبب التجائهم إليه ﴿تَحْنُنُ نَفْشُ عَائِنَكَ نَبَأْهُمْ بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فَتَيَّةٌ مَا مَنَّا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدَى﴾ (١٣) وَرَبِطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّ الْسَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنَدْعُوا مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذَا شَطَطَا﴾ (١٤) هَذُولَةٌ قَوْمًا أَخْحَذُوا مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَهُ لَوْلَا يَأْثُرُ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ بَيْنِ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ (١٥) وَإِذَا أَعْنَزْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ الَّذِينَ يَنْشِرُ لَكُمْ رِبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَهْبِطُ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مَرْفَقًا﴾ (١٦) *

وَرَأَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزَوَّرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْكَهْفِ يَنْشِرُ لَكُمْ رِبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَهْبِطُ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مَرْفَقًا *

الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ نَفَرُّهُمْ ذَاتَ الشِّمَاءِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ ذَلِكَ مِنْ إِيمَانِ اللَّهِ مَنْ يَهْدِي اللَّهُ فَهُوَ الْمُهَدَّدُ وَمَنْ يُضْلِلْ فَنَّ
 يُخْدِلُهُ وَإِنَّا مُرْسَلًا ﴿١٧﴾ وَخَسِبُهُمْ أَنْقَادًا وَهُمْ رُعُودٌ وَنَقِبُّهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَاءِ وَكُلُّهُمْ بَسِطٌ ذَرَاعِيهِ
 بِالْوَصِيدِ لَوْ أَطْلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّتَ مِنْهُمْ فَرَارًا وَلَمْلِثَتْ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴿١٨﴾ ﴿الكهف: ١٣ - ١٨﴾ لقد هيأ الله -
 عزوجل- للفتية المؤمنين الكهف على نحو عجيب بحيث يتم المحافظة على حياتهم طوال فترة نومهم
 (يُنَشِّرُ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَهْبِطُ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرْفَقًا) لقد هيأ - عزوجل- لهم مرافق الكهف ففي زاوية في
 سطح الكهف فجوة تميل الشمس عنها يميناً ويساراً حتى لا تؤذهم أشعتها أما عنهم فحركتهم ذات
 اليمين وذات الشمال وهم نائم داخل الكهف رحمة من الله في أجسادهم حتى لا تأكلها الأرض (ونقبُهُمْ
 ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَاءِ) أما كلبهم في تموضه وحركته في مدخل الكهف كالحارس الذي يصد عنهم
 الهوا (وَكُلُّهُمْ بَسِطٌ ذَرَاعِيهِ بِالْوَصِيدِ).

لو رأهم الناظر على هذه الحال وهم نائم فاتحي عيونهم يتقلبون لخافهم؛ لما جعل الله لهم من
 هيبة تبعد عنهم الأذى ^(١) (لَوْ أَطْلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّتَ مِنْهُمْ فَرَارًا وَلَمْلِثَتْ مِنْهُمْ رُعْبًا).

ويسيقظ أهل الكهف ويعيدهم الله من نومهم ليتساءلوا عن المدة التي قضوها في كفهم، فقالوا
 يوماً أو بعض يوم ،لكن الله - عزوجل- عنده علم الغيب، لقد لبثوا ثلاثة وتسعة سنين احتواهم فيها
 الكهف، كان فراشاً وثيراً لهم طوال هذه المدة، وبعد استيقاظهم لمسوا الشعور بالأمان فيه لكنهم
 يخافون المدينة وملكتها وأهلها فبعثوا أحد هم بالفصة التي معهم (ورفقهم) ليجلب لهم بعض الطعام
 وأوصوه بالحذر والتلطف كي لا يشعر به أحد ،وكانت إرادة الله بأن يكشف أمرهم ليتبين الناس قدرة
 الله - عزوجل- في الإحياء والإماتة لقد عثروا عليهم هذه المرة لكن أمواتاً داخلاً كفهم الذي آمنهم
 أحياه وسترهم أمواتاً. قال تعالى ﴿ وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَسْأَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَابِلُ مِنْهُمْ كَمْ لَيَنْتَهُ قَاتُلُ إِنْتَنَا

يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَيْسَتْمَ فَأَبْقَيْتُمُوهُ أَحَدَكُمْ بِوَرْقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلَيَنْظُرْ أَيْهَا أَذْكَرْ طَعَامًا
 فَلَيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلَيُسْتَأْطِفَ وَلَا يَشْعُرُنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٦﴾ إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُونَكُمْ
 فِي مَلَتِهِمْ وَكَانُ تُفْلِحُوكُمْ إِذَا أَبْكَاهُمْ ﴿١٧﴾ وَكَذَلِكَ أَعْتَنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّهُ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَآرِبَ فِيهَا إِذَا
 يَتَرَكَّزُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا أَبْنُوا عَلَيْهِمْ بُنْيَانًا رَبِّهِمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ عَلَّمُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَخَذُوكُمْ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا
 سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَأَيْتُمْ كُلَّهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كُلَّهُمْ رَجُلًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ
 كُلَّهُمْ قُلْ رَبِّي أَنْظَمْ بِعِدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُحَارِرُ فِيهِمْ إِلَّا مِنْهُ ظَاهِرًا وَلَا سَتَقْتَفِي فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿١٨﴾ وَلَا
 يَقُولُنَّ لِشَأْنٍ عَلَيْهِ فَاعْلُمْ ذَلِكَ غَدًا ﴿١٩﴾ إِلَّا أَنْ يَشَاءُ اللَّهُ وَأَذْكُرْ رَبِّكَ إِذَا نَسِيَتْ وَقُلْ عَسَىٰ أَنْ يَهْدِيَنَّ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا
 رَشَدًا ﴿٢٠﴾ وَلَيَشُوَّفُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مائَةٌ سَيِّنَاتٍ وَازْدَادُوا سَيِّنَاتٍ ﴿٢١﴾ قُلْ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَشُوَّهُ لَهُ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
 أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا ﴿٢٢﴾ (الكهف: ١٩ - ٢٦)

الصرح

كما جاء في لسان العرب الصرح هو "كل بيت واحد منفرد يبني منفردا، ضخماً طويلاً في السماء وقيل هو القصر وقيل هو كل بناء عال شامخ مرتفع والجمع صروح^(١).

لقد وظف القرآن الكريم هذا المكان في قصتين الأولى مع فرعون لتجسيد إمعانه في الكفر والاستكبار ،والثانية مع سليمان -عليه السلام- لتجسيد فضل الله وإنعامه، وتوظيف هذا المكان في خدمة الدعوة إلى الله.

أما فرعون الذي نصب نفسه إليها "ما علمت لكم من إله غيري" واغترّ بملكه حتى قال: "أليس لي ملك مصر وهذه الأنهر تجري من تحتي" فقد طلب من وزيره هامان أن يبني له صرحاً ليطلع إلى نواحي السماء فيرى إله موسى.لقد عبر في اختياره لهذا المكان "الصرح" عن استهزائه بموسى ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَهْمَنْ أَبْنِي صَرْحًا لَعَلَّيْ أَتَلْعَبُ الْأَسْبَدَبَ﴾^(٢) ﴿أَسْبَدَ السَّمَوَاتِ فَأَطْلَعَ إِلَيْهِ إِلَهُ مُوسَى﴾^(٣) (غافر: ٣٦)

- ويمكن أن يكون دافع فرعون هو شعوره بالقلق والاضطراب من دعوة موسى فأراد أن يوهم قومه بأنه لا إله غيره^(٤) فقال: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَكَاهُكَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِيْ فَأَوْقَدْنِي يَهْمَنْ عَلَى الْطِينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا لَعَلَّيْ أَطْلَعَ إِلَيْهِ مُوسَى وَلَفِي لَأَظْنَهُ مِنْ الْكَنْدِينَ﴾^(٥) (القصص: ٣٨) إن ذكر

فرعون لمكون الصرح وهو الطين تهوي وتصغير وتحقير لموسى -عليه السلام- فصرح مكون من طين كما يظن يكفي للوصول لإله موسى^(٦) ولم "يقل اطبح لي الأجر واتخذه، بل قال أوفد؛ لأنّ هذه

(١) لسان العرب / مادة: صرح

(٢) مصطفى عليان/بناء الشخصية في القصة القرآنية/ص ٧٩

(٣) عزة الحلبي/ جماليات المكان/ ص ٢٣٧

العبارة أحسن طباقاً لفصاحة القرآن الكريم وعلو طبقته وأشبه بكلام الجبار، وأمر هامان وهو وزيره، ورد فيه بالإيقاد على الطين فنادي باسمه (بيا) في وسط الكلام، دليل التعظيم والتجلب^(١).

وفي قصة سليمان - عليه السلام - مع ملكة سبا وظف الصرح اختبارا ثانيا لهذه الملكة في سبيل دعوتها إلى الله فملكة سبا ذات عرش وملك عظيمين لهذا كان الصرح وسيلة عظيمة مناسبة لدعوتها للإيمان. ﴿إِنِّي وَجَدْتُ اَنْمَرْأَةً تَمَلِّكُهُمْ وَأُوتِتَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَمَا عَرَضْتُ عَلَيْهِمْ﴾ (٢٣) (النمل: ٢٣)

لكن ملكها لم يرجعها إلى المنعم المتنصل بل عبدت وقومها الشمس دون الله ﴿وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَمُهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾ (٤٤) (النمل: ٤٤).

وهكذا بعد أن اجتازت ملكة سبا الاختبار الأول وهو اختبار العرش جاء الاختبار الثاني وهو اختبار الصرح ﴿قِيلَ لَهَا أَذْنُلِي أَصْنَعُ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً﴾ (٤٥) ونكفت عن ساقئها قال إله، صبح ممرداً مدين قوارير ﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (٤٦) (النمل: ٤٦)، هندسة معمارية لا مثيل لها وكيف لا

وسليمان يعمل تحت إمرته الجن والغفاريت والرياح والطيور والحيوانات . قال تعالى : ﴿وَلَسْتَمَنَ الَّتِيْخَ عَاصِفَةَ تَجْرِي بِأَمْرِ رَبِّهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَرَكَ كَافِهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَلَيْمِينَ﴾ (٨١) وَمِنْ أَشَيَّطِينِ مَنْ يَغُصُّونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذِلْكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَفَظِينَ (٨٢) (الأنبياء: ٨١ - ٨٢).

لقد طلب من ملكة سبا دخول الصرح وترك لها متعة الاستكشاف ولدة المفاجأة ... إنّه صرح مرد من قوارير... لقد حسبت أرض الصرح ماء فرفعت ثيابها لتسير فوقها، فيخبر سليمان - عليه السلام - ملكة سبا أنه صرح مرد من قوارير (زجاج) ... هي صاحبة نعمة وملك عظيم لكنّها أيقنت

(١) الكشف / ج ٤ / ص ٥٠٧

(٢) اللجة: الماء الغمر الكثير / صفوة التفاسير / الصابوني / ج ٣ / ص ٨٠٤

(٣) قصر مملس من الزجاج الصافي / صفوة التفاسير / الصابوني ج ٣ / ص ٨٢

أن ما شاهدته عند سليمان ليس من سليمان بل هو من قوة أقدر وأعظم من سليمان ، إله الله القادر ، فما كان منها إلا أن أسلمت مع سليمان وليس له . ﴿قِيلَ لَهَا أَدْخُلِ الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقِيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَاحِبُ مُحَمَّدٍ مِّنْ قَوَّارِيرِ قَاتَّ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ ﴾ (النمل: ٤)

). وبهذا كان الصرح المكان الذي استشعرت فيه ملكة سبا بالإيمان ، فكان ذلك المكان نقطة تحول في حياتها وفي موقفها تجاه دعوة سليمان -عليه السلام- ، فأخرجتها من الكفر إلى الإيمان ، ومن الشاك الذي خالجها في المكان الأول (العرش) إلى اليقين والاطمئنان.

السجن

يرتبط السجن بمعاني الانعزال ومصادر الحرية ،والضيق النفسي .والسجن من أماكن الإقامة الإجبارية، وهو يشكل نقطة انتقال من الخارج إلى الداخل، ومن العالم إلى الذات بالنسبة إلى السجين يخلف وراءه عالم الحرية وتبدأ معاناه تشكّل في أدناها مصادر حريته الخاصة ^(١) فأقل صور الحرية هي حرية الحركة والانتقال "إن العلاقة بين الإنسان والمكان - من هذا المنحني- تظهر بوصفها علاقة جدلية بين المكان والحرية، وتصبح الحرية في هذا المضمار، هي مجموعة الأفعال التي يستطيع الإنسان أن يقوم بها دون أن يصطدم بحواجز أو عقبات، أي بقوى ناتجة عن الوسط الخارجي، لا يقدر الإنسان على قهرها أو تجاوزها^(٢) .

وقد ظهر السجن في القصة القرآنية بما يحمله من دلالات سلبية أداة للتهديد والتخييف ففرعون بنذر موسى -عليه السلام- من عاقبة اتخاذ إله غيره ويتوعده بالسجن ﴿فَلَمَّا آتَهَا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾ (الشعراء: ٢٩)

وقد سارعت امرأة العزيز في اقتراح السجن عقوبة ليوسف أمام زوجها حينما أفياه لدى الباب لتبعد الشبهات عن نفسها ﴿وَاسْتَبَقَ الْبَابَ وَقَدَّتْ قَعِصَةً، مِنْ دُبُرٍ وَأَفْيَا سَيِّدَهَا لَدَّا الْبَابِ قَالَتْ مَا جَرَأَهُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابُ الْيَمِّ﴾ (يوسف: ٢٥) وعلى الرغم من اتهام امرأة العزيز ليوسف لكنها امرأة عاشقة حريصة على حياة من تحب وتخشى عليه الموت فتشير بعقوبة مأمون ﴿إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابُ الْيَمِّ﴾ (٢٥) (يوسف: ٢٥) فالسجن على الرغم من كونه عقوبة قاسية لكنه يظل مكانا لا تزهد فيه الروح- غالبا-.

(١) حسن بحراوي / بنية الشكل الروائي / ص ٥٥

(٢) منها عوض/ المكان في الرواية/ص ٢٩٤ / نقل عن : بوري لوتمان/ جماليات المكان/ ص ٦٨

(٣) سيد قطب / التصوير الفني في القرآن الكريم/ ص ٢٠٦

ومضى أمر امرأة العزيز مع يوسف هذه المرة ولم يدخل السجن لما تبدى من براهين ثبتت براءته.

﴿ قَالَ هِيَ رَوْدَتِي عَنْ نَفْسِي وَشَهَدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَبِيقُصُّهُ قَدَّ مِنْ قُبْلِ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَذَّابِينَ ﴾ (٢٦)
 وَإِنْ كَانَ قَبِيقُصُّهُ قَدَّ مِنْ دُبْرِ فَكَذَّبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ ٢٧ ﴾ فَلَمَّا رَأَهَا قَبِيقُصُّهُ قَدَّ مِنْ دُبْرِ قَالَ إِنَّهُمْ كَيْدُكُنْ إِنْ كَيْدُكُنْ ﴾
 عَظِيمٌ ﴾ ٢٨ ﴾ يُوشَّفُ أَغْرِيَنْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِدَائِيكَ إِنَّكَ كُنْتَ مِنَ الْخَاطِئِينَ ﴾ (يوسف: ٢٦ - ٢٩)

وبعد، لم تتردع امرأة العزيز بل جاهرت بمعصيتها أمام نسوة المدينة بعد أن سمعت بحديثهن عنها مع فتاها، فأرسلت إليهن وأخرجت يوسف أمامهن لتتوسّع لنفسها فعلها وأعادت طلبها عليه ولكنها هذه المرة حزمت أمرها بأن يكون السجن مصيره إن لم يستجب لطلباتها ﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِيْسَةِ أَمْرَاتُ الْعَزِيزِ تُرْوِدُ فَنَّهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حَبًّا إِنَّ الْأَنْرَهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ (٢٩)
 فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَ وَاعْتَدَتْ لَهُنَّ مَنْ مَكَّا

وَأَنَّتْ كُلَّ وَجْهَةٍ مِنْهُنَ سِكِّينًا وَقَالَتْ أَخْرُجْ عَلَيْهِنَ فَمَا رَأَيْتَهُ أَكْبَرْهُهُ وَقَطْعَنَ أَيْدِيهِنَ وَقُلَّنَ حَشَّ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾ (٣٠)
 قَالَتْ فَذَلِكُنَ الَّذِي لَمْ تُشْنِفِ فِيهِ وَلَقَدْ رَوَدَهُمْ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمُولَيْنَ لَمْ يَقْعُلْ مَا أَمْرَهُ لَيْسْ جَنَّ وَلَيْكُونَنَّ مِنَ الْمُنْفَرِينَ ﴾ (٣١) (يوسف: ٣٠ - ٣٢).

ولم يكن أمام يوسف إلا أن يختار السجن على الفاحشة ﴿ قَالَ رَبِّ الْيَسْجُنْ أَحَبُّ إِلَيَّ مَا يَدْعُونَيْ إِلَيْهِ وَلَا أَنْصَرِيفُ عَنِّي كَيْدُهُنَ أَصْبُ إِلَيْهِنَ وَلَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ (٣٢) (يوسف: ٣٣)، لقد تحول السجن على الرغم مما يحمله من دلالات سلبية كالقهر والعقاب والتسلط والانغلاق والوحدة ومصدرة الحرية والانعزال عن العالم وأهم من ذلك كله تشويه السمعة؛ لأنه سيدخله بتهمة الاعتداء على الطهر، لقد تحول السجن

على الرغم من كل ذلك إلى مكان محبوب لدى يوسف؛ لأنَّه يساوي الفرار من الفاحشة ﴿قَالَ رَبِّي

السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونِي إِلَيْهِ﴾ (يوسف: ٣٣)

لقد أجمع النسوة بقيادة امرأة العزيز على سجن يوسف بعد أن أبى وتمَّ من الاستجابة

لطلبهن ﴿ثُمَّ بَدَأَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوْا أَلَا يَكُنْ لِيَسْجُنْ نَمْحَقَ حِينٍ ﴽ٣٥﴾ (يوسف: ٣٥).

*يوسف في السجن

إنَّ دلالة المكان تغنى في الإسهاب بالحديث عن أوصافه فالسجن بما يحمل من دلالات فقدان الحرية والانغلاق والتعذيب وكل ما يجري داخل قصبانه يعني عن الوصف "الطبوغرافي" للمكان/ السجن، لأنَّ المهم التركيز على القرائن الملزمة للمكان التي تكشف عن دلالات مكثفة تعلن عما داخل هذا الفضاء^(١).

فنحن لا نجد وصفاً لقضبان السجن وجدرانه في قصة يوسف -عليه السلام-، بل ينقلنا القرآن الكريم إلى مشهد في داخل السجن؛ لأنَّ المهم الآن تصرف الشخصية في المكان لا شكل المكان المجرد، المهم انعكاس المكان ودلالته على الشخصية وتأثيره فيها .. لقد دخل السجن مع يوسف فتیان فقص عليه كل واحد منهم رؤيته لكنَّ يوسف الحصيف استثمر وجودهما معه في السجن واستثمر طلبهما في تأويل رؤياهما بأن ينطلق بالدعوة التي هي هاجسه وهمه الأول والأخير، على الرغم من كونه في السجن لكنَّه لا يفگر بالمكان الذي هو فيه بل يفگر فيما هو أسمى وهو الدعوة إلى الله.

قال تعالى ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ الْسِّجْنَ فَتَبَيَّنَ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَعْصَرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَحْمَلُ فَوْقَ رَأْسِي خَبْرًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ بَيْنَتَاوِيلِهِ إِنَّا نَرَنَاكَ مِنَ الْمُخْسِنِينَ ﴽ٢٦﴾ قَالَ لَيَأْتِي كَمَا طَعَامٌ ثُرِزَ قَانِهِ إِلَّا نَبَأْتُكُمَا تَأْوِيلِهِ

(١) حسن براوي / بینة الشكل الروائي / ص ٦١

فَبَلْ أَن يَأْتِيَكُمْ ذِلِّكُمَا مِمَّا عَلِمْتُمْ رَبِّيْ إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةً قَوْمًا لَا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَهُمْ بِالآخِرَةِ هُمْ كَفِرُونَ ﴿٢٧﴾ وَاتَّبَعُتُ مِلَّةً أَبَاءَيِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَن نُشْرِكَ بِاللهِ مِنْ شَيْءٍ وَذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٨﴾ يَصَدِّحُ بِالسِّجْنِ مَا زَيَّبَتْ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرًا مِمَّا أَرَى اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٢٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمِّيَ شُمُورًا أَشْمَوْهَا أَبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَنٍ إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ أَمْرًا لَا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الَّذِينَ أَقْرَئُوكُمْ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ يَصَدِّحُ بِالسِّجْنِ أَمَا أَحَدُكُمْ كَافِسٌ رَبِّهِ حَمْرًا وَأَمَا الْأَخَرُ فَيُضَلِّبُ فَتَأْكُلُ الظَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْفِيَانٌ ﴿٣١﴾ (يوسف: ٣٦ - ٤١)

ويطرح بعض الدارسين السؤال الآتي: السجن بوصفه مكان إقامة إجبارية، هل يحقق اللقاء والتعارف وتلاقي المعرفة أم هو مكان تتغير فيه القيم والمبادئ، ومعرفة درجة الثبات والصمود والقوه؟^(١) لقد منح السجن ليوسف ممارسة نشاطه الدعوي فيه ونشر فكره وعقيدته ، وكان هذا التمكين في الأرض، فمنه عرفه الملك، ومنه أثبتت براءته ومنه استلم خزائن الأرض ومنه التقى مرة أخرى بأخوه وأهله.

هذا ما ورد في قصص القرآن عن السجن باللفظ ذاته، ولكن بالتدبر في أماكن آخر نجد أنها اشتربت مع السجن في صفاته من التعذيب -نفسي أو مادي- والوحدة والانغلاق ومصادرة الحرية دون أن يطلق عليها لفظة السجن ومنها بطن الحوت الذي حبس فيه يونس -عليه السلام- وهو أعجب مكان يمكن أن يحبس به أحد وقد تحدثت سابقاً عن هذا المكان - بطن الحوت- في حديثي عن البحر.

لقد مثل بطن الحوت التربية الإلهية لليونس من الله - عزوجل- واجتمع عليه وفي هذا المكان الانغلاق الذي لا سبيل للانفلات منه، والظلمة الشديدة ظلمة بطن الحوت وظلمة البحر وظلمة الليل.. إنه مكان سبب لليونس الألم النفسي والألم الجسدي لكنه نادى مولاه في تلك الظلمات ليخرجه منها

(١) فهد حسين/ المكان في الرواية البحرينية/ ص ١٣٠

﴿ وَذَا الْنُونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَضِّبًا فَظَنَّ أَنَّ لَنْ تَقْدِرَ عَلَيْهِ فَكَادَ فِي الظُّلْمَتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَّ سُبْحَنَكَ إِنِّي كُنْتُ إِنَّ

الظَّالِمِينَ ﴿٨٧﴾ (الأنبياء: ٨٧) وكانت هذه العبارة هي مفتاح الخروج من ذلك المكان.

قال تعالى مخبرا عن رسوله يومنس: ﴿ وَبِأَيْنِ أَفْلَأَ تَقْلُوبُنَّ ﴾ ﴿١٣٨﴾ وَلَنْ يُؤْسِ لِمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبْقَى إِلَى الْفَلَكِ
الْشَّحُونَ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْخَنِينَ ﴿١٤١﴾ فَالنَّقْمَةُ الْمُحْرُثُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَيْحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلِّيَثُ فِي بَطْنِهِ
إِلَى يَوْمِ يُبَعَّثُونَ ﴿١٤٤﴾ (الصفات: ١٣٨ - ١٤٤) وقال تعالى ﴿ وَذَا الْنُونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَضِّبًا فَظَنَّ أَنَّ لَنْ تَقْدِرَ
عَلَيْهِ فَكَادَ فِي الظُّلْمَتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَّ سُبْحَنَكَ إِنِّي كُنْتُ إِنَّ الظَّالِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَأَسْتَجَبْنَا لَهُ وَمَجَّنَّنَهُ مِنَ
الْغَيْرِ وَكَذَلِكَ نُشِّحِي الْمُغَيْبِينَ ﴿٨٨﴾ (الأنبياء: ٨٧ - ٨٨).

ومن الأماكن أيضاً التي اشتربت مع السجن في صفات التعذيب ومصادر الحرية مصر بالنسبة لبني إسرائيل في عهد فرعون الطاغية.

لقد مثل هذا المكان رغم اتساعه وانفتاحه سجناً كبيراً تعرض فيه بنو إسرائيل للقتل والتعذيب والإهانة.

﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَى الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شَيْئًا يَشْتَرِصُفُ طَائِقَةً مِنْهُمْ يَدْبِعُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَخِيهِ نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ
كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾ (القصص: ٤)، ولقد عبر موسى عن أسر بنى إسرائيل عند فرعون في أكثر
من موضع بمخاطبته لفرعون ﴿ أَنَّ أَرْسَلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ ﴿١٧﴾ قَالَ الْمَرْتَبِكَ فِنَا وَلِيْدًا وَلَيْثَ فِنَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾
وَقَعَلَتْ فَعَلَتَكَ الَّتِي فَعَلَتْ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾ قَالَ فَعَلَهَا إِذَا وَأَنَا مِنَ الْمُسَالِكَنَ ﴿٢٠﴾ فَقَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَآخِفُكُمْ فَوَهَبَ لِي
رِبِّ حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾ وَقَلَكَ نَعْمَةً تَنْهَا عَلَى أَنْ عَبَدَتْ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَارَبُ الْعَالَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبِّ
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا يَنْهَا مَمَّا إِنْ كُنْتُ مُوْقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَعِمُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبِّكُمْ وَرَبِّيْ إِبْرَاهِيمَ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ

رَسُولُكُمُ الَّذِي أُرْسَلَ إِلَيْكُمْ لِمَجْنونٍ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا يَنْهَا إِنْ كُنْتُ تَقْلُوْنَ ﴿٢٨﴾ (الشعراء: ١٧) –

٢٨) وَقَالَ ﴿فَأَنِي أَهُوَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولًا رَبِّكَ فَأَرْسَلْنَا مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تَعْدِ بِهِمْ قَدْ حِشْنَاكَ بِثَابِتَكَ مِنْ رَبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَىٰ مَنْ آتَيْتَهُمْ أَهْمَدَىٰ ﴿٤٧﴾ (طه: ٤٧) لكن فرعون وملأه أبوا واستكروا ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا أَقْتُلُوْا أَفْتَلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا فِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿٢٥﴾ (غافر: ٢٥) فأصابهم الله بالعذاب والرجز وعندما هاود فرعون في فك أسر بنى إسرائيل وإطلاق سراحهم ﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الْرِّجْزُ قَالُوا يَمْسُوْقَيْ أَدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَاهَدَ عِنْدَكَ لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الْرِّجْزَ لَتُؤْمِنَ لَكَ وَلَتُرِسَّلَ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٣٦﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الْرِّجْزَ إِلَيْهِ أَجْلَلُهُمْ بِنَغْفِيْهِ إِذَا هُمْ يَنْكُتُونَ ﴿٣٧﴾ فَانْقَمَّنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي أَيْمَانِهِمْ كَذَّبُوا بِعَيْنِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴿٣٨﴾ (الأعراف: ١٣٤ – ١٣٦).

البيت (المسكن / الدار)

والبيت كما يصفه باشلار "هو ركتنا في العالم، إنّه كما قيل مراراً، كوننا الأول، كون حقيقي بكل ما للكلمة من معنى وإذا طالعناه بألفة فسيبدو أبأس بيت جميلاً..."^(١) والبيت هو المكان الذي حمل في طياته صفة الألفة وابعاث الدفء العاطفي، ويسعى لإبراز الحماية والطمأنينة في فضائه^(٢) وهو مكان الذكريات الأولى والملاذ الذي نلجا إليه^(٣).

وهذا ما نجده في قول النملة في قصة سليمان -عليه السلام- حينما طالعت سليمان وجنته فهبت في قومها منبهة مذحرة ﴿وَحَسِرَ لِسْلَيْمَنَ مُحْمَدٌ مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسَ وَالظَّيْرِ فَهُمْ يُوَزَّعُونَ﴾^(٤) حَقَّ إِذَا آتَوْا عَلَى وَادِيَ النَّمَلِ قَالَتْ نَمَلَةٌ يَكَائِنُهَا النَّمَلُ أَدْخُلُوا مَسَكِنَكُمْ لَا يَحْطُمَنَّكُمْ سُلَيْمَانٌ وَمُحْمَدٌ وَهُرَّ لَا يَشْعُرُونَ﴾^(٥) (النمل: ١٧ - ١٨).

فالبيت هو الملجا الذي سيحميهم من ضعفهم الشديد أمام سليمان وجنوده.

ويتحول بيت نوح بفضل دعائه إلى مكان تحل فيه المغفرة لمن يدخله وهو مؤمن وهذه ميزة قد لا تمنح لبيت أحد آخر ﴿رَبِّ أَغْفِرْ لِي وَلِوَلَدِي وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِي مُؤْمِنًا وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا زَرَدَ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارَأُ﴾^(٦) (نوح: ٢٨).

ويوجه الله - عزوجل- خطابه لنبيه موسى بأن يتخذ وقومه في مصر بيوتاً وأن يجعلوها قبلة، أي أن يبعدوا الله في بيوتهم ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْ مُوسَى وَأَخِيهِ أَنْ تَبُوءَ الْقَوْمُ كُمَا إِمْضَرَ مُؤْمِنًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبَلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾^(٧) (يوس: ٨٧)

(١) جاستون باشلار/ جماليات المكان، ترجمة غالب هلسا/ ص ٤٢

(٢) فهد حسين/ المكان في الرواية البحرينية/ ص ١٠٥

(٣) كرم طبنجة/ جماليات المكان في القصة العربية/ ص ٤٣

وقد لا يأمل الإنسان بيته دنيوياً يوفر له الحماية والأمن ، بعد تفشي الظلم وشدة المعاناة ، لذا يرجو الله بأن يكون له بيته في جواره وكنفه وحمايته فقد يفقد البيت كل خواصه ويتحول إلى سجن أو مكان قهر مثل ما حصل مع امرأة فرعون حيث استغاثت الله وقالت مستغيثة ربه : ﴿قَاتَ رَبِّ أُبْنَىٰ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِيَ مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَّلَهُ وَنَجَّيَ مِنْ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ (التحريم: ١١)

لقد اختارت الجار قبل الدار كي تستشعر الرحمة والأمان اللذين فقدتهم في دارها الدنيوية .

وقد يمنح البيت الحماية والأمان لساكنه لفترة محدودة ثم لا يدوم ذلك كما حصل مع يوسف - عليه السلام - ، فالبيت الذي ضمه صغيراً وأكرمه واحتضنه عوضاً عن برودة الجب وظلمته ﴿وَقَالَ

الَّذِي أَشَرَّتِهِ مِنْ مَصْرَ لِأَمْرَأَيْهِ أَكْثَرِي مَئُونَةِ عَسَوْ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَنْجَدَهُ وَلَدَأْ وَكَذَلِكَ مَكَّنَا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ﴾ (يوسف: ٢١) لم يكن كذلك حين غدا شاباً مفعماً بالحيوية والجمال ، فقد تعرض فيه لمحنة كبيرة ، محنة الطهارة والعفة .. من التي ربته وأكرمه صغيراً.. إله لموقف عظيم ، حين تراوده سيدته في بيته ، فهي تملك المكان وتحيط به ، وقد غلت أبوابه ، وكم باب لهذا البيت حتى يوصف بأنّ له أبواباً؟ ولعلها كانية عن إحكام إغلاق المنافذ على يوسف حتى تهيئ المكان لفعل الفاحشة ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشَدَّهُ وَ

مَا تَبَتَّهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ بَعْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾ وَرَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فَيَتَهَا عَنْ فَقْسِهِ وَغَلَقَتْ الْأَتْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَادَ اللَّوْلَانَهُ رَبِّيْ أَخْسَنَ مَوَائِيْ إِنَّهُ لَا يَقْبِلُهُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ هَمَتْ بِهِ وَهُمْ يَهَا لَوْلَا أَنْ رَعَا بُرْهَنَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنَّهُ الشَّوَّهَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾ وَاسْتَبَقَ الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبْرِهِ وَلَقِيَ سَيِّدَهَا لَدَّا الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بَاهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابُ أَلِيمٍ ﴿٢٥﴾ قَالَ هِيَ رَدَّتْنِي عَنْ شَقِّيْ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قَدَّ مِنْ قُبْلِهِ فَصَدَّقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَذِيلِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قَدَّ مِنْ دُبْرِهِ فَكَذَّبَتْ وَهُوَ

٢٧) فَلَمَّا رَأَهَا قَيْصِرٌ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنْ إِنَّ كَيْدَكُنَ عَظِيمٌ ٢٨) يُوسُفُ أَغْرِضَ عَنْ هَذَا

وَاسْتَغْفِرِي لِذَنِيْكَ إِنَّكَ كُنْتَ مِنَ الْخَاطِئِينَ ٢٩) (يوسف: ٢٢ - ٢٩). وهكذا يصور القرآن الكريم

مشهد الصراع بين العفة والفاحشة، وكأنه مشهد حي ماثل أمام عيوننا نكاد نرى ونسمع ما يجري داخل هذا البيت ، وبين جدرانه وخلف أبوابه .. يوسف يهرب من الفاحشة وامرأة العزيز تصر عليها، ويجرى هاربا نحو الباب فتلحقه وتقد قميصه من دبر ليكون دليلا على براءة يوسف أمام سيده، فتقائلاً بعد كل ذلك التغليف للأبواب ، وإذ بعزيز مصر واقف عند باب واحد دونما إحكام تغليف أمامه.

ثم لا تستسلم امرأة العزيز وكأن المكان الذي هو بيتها يهيء لها كل السبل كي تحصل على ما تريده، فتعد متكاً داخل بيتها بعد أن سمعت بمكر نسوة المدينة وحديثهم عن مراودتها لفتاها يوسف وعشيقها له ... فجمعتهن وأعدت لهن المجلس المناسب داخل بيتها، فجدا المكان متواطئا مع امرأة العزيز، ثم أعطت كل واحدة سكيناً وأخرجت يوسف عليهن "فلما رأينه أكبرنه وقطعن أيديهن وقلن حاشا الله ما هذا بثرا إن هذا إ لا ملك كريم " وعندما تأمر النسوة مع امرأة العزيز وأعادت مراودتها له دون حياء وتوعده بالسجن إذا امتنع عمّا تريده فأثر السجن على الفاحشة.

وتتوالى بعد ذلك في قصص القرآن صور العذاب والدمار التي حلّت بمساكن الأقوام الكافرة، فمهما كانت فارهة أو منيعة، فإنها لم تغن عنهم من الله شيئاً ولم تصمد أمام العذاب ..

قال تعالى واصفا العذاب الذي حل ببيوت قوم صالح المنيعة المنحوتة من الجبال، وأي أمان

أكثر من ذلك ! علو ومناعة وحصانة لكنها لم تؤمن لهم أدنى حماية: ﴿ وَلَقَدْ كَذَبَ أَمْحَبُ الْجِرَارَ الْمُرْسَلِينَ

٤٦) وَإِنَّهُمْ مَا يَتَنَاهُ فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ٤٧) وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا أَمِينَ ٤٨) فَأَخْذَهُمُ الصَّيْمَةُ مُؤْسِعِينَ ٤٩) فَمَا

أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ٤٥) (الحجر: ٨٠ - ٨٤) وجاء وصف بيوتهم في موضع آخر ﴿ أَتَرَكُنَّ فِي

مَا هَنْهَا آمِينَ ٤٦) فِي جَنَّتٍ وَعَيْنٍ ٤٧) وَرَزْعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ٤٨) وَتَنْجِحُونَ مِنْ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَرِهِينَ ٤٩) فَأَنْقُوا

اللَّهُ وَأَطِيعُونَ ﴿١٥﴾ وَلَا تُطِيعُوا أَئِرَ السُّرِيفِينَ ﴿١٦﴾ الَّذِينَ يَقْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٧﴾ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨﴾ مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ قَاتَلَنَا فَأَتِ إِيمَانَكَ إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُصَدِّقِينَ ﴿١٩﴾ قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ مَا شَرَبَ وَلَكُنْ شَرِبَ يَوْمَ مَعْلُومٍ ﴿٢٠﴾ وَلَا تَنْسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذُكُمْ عَذَابٌ يَوْمَ عَظِيمٍ ﴿٢١﴾ فَعَقَرُوهَا فَاصْبَحَ حُوَنَّدِينَ ﴿٢٢﴾ فَأَخْذُهُمُ الْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذَّةٌ وَمَا كَانُ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾ وَلَمْ رَبَّكَ لَهُمُ الْعَرِيزُ الرَّجِيمُ ﴿٢٤﴾ (الشعراء: ١٤٦ - ١٥٩) لقد أخذهم العذاب بسبب فسقهم وكفرهم ولم تنجمهم الفارهة الحصينة فأصبحوا فيها جثنا هامدة ﴿فَعَقَرُوا الْأَنَاقَةَ وَعَكَتُوا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَاتُلُوا إِصْكَلِحَ أَثْنَانًا إِمَّا تَعْذَّبًا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٥﴾ فَلَذَّتْهُمُ الرَّجِفَةُ فَاصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَحِشِينَ ﴿٢٦﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ وَقَالَ يَنْقُومُ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَّحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا يَحْبُّونَ النَّصْحَيْنَ ﴿٢٧﴾ (الأعراف: ٧٧ - ٧٩)، وأصبحت بيوتهم خاوية لا حياة فيها ﴿فَأَنْظُرْ كَيْفَ كَانَ عِنْقَبَةً مَكْرِهِمْ أَنَادَ مَرْزَّهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْعَيْنَ ﴿٢٨﴾ فِيلَكَ بِيُوْتِهِمْ خَاوِيْكَهُمْ بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذَّةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾ وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ أَمْنَى وَكَانُوا يَنْقُونَ ﴿٣٠﴾ (النمل: ٥١ - ٥٣). وكذلك وصف الله مساكن قوم هود بعد أن أنزل الله بهم العذاب فبقيت المساكن ولم يبق ساكنوها ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْ بَيْنَهُمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ شَمِطِرَانٌ بَلْ هُوَ مَا أَسْتَعْجَلْمُ بِهِ رِبِّيْعٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٣١﴾ شَدَّرَهُمْ شَنِعٌ بِإِمْرِ رَبِّهِمْ فَاصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسْكُونٌ كَذَلِكَ بَعْزِيْالْقَوْمَ الْمُعْجَرِمِينَ ﴿٣٢﴾ (الأحقاف: ٢٤ - ٢٥). وهذا ما حل أيضاً بقوم شعيب فأصبحوا بعد تكذيبهم لنبيهم جاثمين في دارهم بعد أن نزل عليهم العذاب ﴿وَقَالَ اللَّهُ أَلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَيْنَ أَتَبْعَثُمْ شَعِيبًا إِنَّكُمْ لَذَّادًا لَخَسِرُونَ ﴿٣٣﴾ فَأَخْذَهُمُ الرَّجِفَةُ فَاصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَحِشِينَ ﴿٣٤﴾ الَّذِينَ كَذَبُوا شَعِيبًا كَانَ لَمَّا يَقْنُوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَبُوا

شَعِيبًا كَانُوا هُمُ الْخَسِيرُونَ ﴿٩٦﴾ فَنَوَى عَنْهُمْ وَقَالَ يَقُولُ لَهُمْ أَبَلَغْتُكُمْ رِسَالَتِي وَنَصَّحْتُكُمْ فَكَيْفَ مَا سَيِّئَ عَلَى قَوْمٍ كَفِيفِنَ ﴿٩٧﴾ (الأعراف: ٩٠ - ٩٣) كأئمهم لم يغنووا ولم يعيشوا فيها من قبل.

واستحق بيت واحد في قرية كاملة النجاة، بيت اتصف بالإيمان والطهارة إنه بيت لوط - عليه السلام - ﴿فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا إِغْرِيَّةً بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ (الذاريات: ٣٦) بيت شهدت له الملائكة بالإيمان فاستحق أهله النجاة وحدهم باستثناء امرأة لوط، وكتب له الصمود والبقاء بينما انهارت غيره من البيوت ^(١).

وهكذا ظهرت صورة البيت في القصة القرآنية لتحمل بعدين البعد الأول وهو البعد المألوف من كون المسكن يوفر الحماية والأمان لصاحبه ،والبعد الثاني فقدان البيت لهذه الخصيصة وعدم إغناه عن أهله شيئاً ولا أدنى درجات الحماية وتأمين الحياة.

وعبر لنا القرآن الكريم عن مصير المال (من مسكن ومتاع..) الذي يغتر به صاحبه فيكرر بالله فيخسف به ليكون عبرة لغيره وهذا ما حدث في قصة قارون الذي تعالى وتكبر وظن أن ماله وجاهه ومسكنه من علمه وقوته فخسف الله به وبداره الأرض. قال تعالى ﴿فَفَسَقَنَا إِلَيْهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَمُؤْمِنٍ فِي شَيْءٍ يَصْرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ﴾ (القصص: ٨١)

لقد حاولت الباحثة في الفصل السابق أن تقدم صورة المكان في القصة القرآنية، وأن تربطه قدر الإمكان برؤيا القصة وفكريتها ،ولا تتم هذه الصورة إلا بدراسة عنصر المكان في القصة القرآنية مرتبطة ومتقاعلا مع غيره من عناصر القصة ،وهذه ما ستحاول الباحثة تقديمها في الفصل الآتي الذي يدرس علاقة المكان،بسائر عناصر القصة حتى تبدو جمالية هذا العنصر بانسجامه وتفاعلاته مع سائر العناصر.

الفصل الثالث

علاقة المكان بسائر عناصر القصة

مقدمة الفصل الثالث

يبحث هذا الفصل عن التماугم والانسجام بين المكان وسائر عناصر القصة القرآنية ، فجمال العنصر لا يظهر منعزلاً عن سياقه ، وقوة تأثير القصة تكون بقوة بنائها الذي يتكون من عناصر متماسكة، متالفة، يؤدي كل منها دوره في هذا البناء، ويساند بعضها بعضاً ليتحقق المغزى المقصود من هذه القصة على أكمل وجه وأجمل صورة.

والمكان في القصة ليس بعدها جغرافياً أو هندسياً وحسب ، بل هو عالم نابض بالحياة بما يحمله من أفكار ودلائل وعلاقات قائمة به أو معه^(١). لكنَّ بعد الجغرافي أو الهندسي قد يسهم في التأثير بعلاقات المكان، فبناء المكان الداخلي وشكله الخارجي قد يجعل ردود فعل الشخصيات في القصة متأثرة به إلى حد ما.

فમة المكان في بعض القصص دفعت الشخصيات للتصرف وفق اتجاه معين ك أصحاب الجنة وصاحب الجنتين وقوم صالح وسيأتي توضيح ذلك في هذا الفصل.

ولَا يكفي عند الوقوف على مكان في نص ما أن نتخيل شكله، وإنما ينبغي البحث عن الترابطات التي يشيرها حوله وفيه، فهو جزء من فضاء أوسع^(٢) تظهر فيه الشخصيات وتتمو الأحداث التي تسهم بدورها في تشكيل البناء المكاني في النص، فالمكان يتشكل من خلال أبطاله والشخصيات التي تتحرك فيه وتخترقه، ومن خلال الأحداث التي يقوم بها الأبطال أو تجري فيه^(٣).

وبهذا التصور يتجاوز المكان "قيمه كإطار جغرافي وحسب ليدخل في جدلية مع الأشخاص ونفسياتهم، والأحداث ودلائلها، فيكون وصف الطبيعة والمنازل والأثاث، وسيلة لرسم الشخصيات وحالاتها النفسية، وبذلك يصبح المكان عنصراً بنائياً ودلائياً في القصص، مساهمًا في تحديد طباع الشخصيات وأمزجتهم، كما يحمل أبعاداً سياسية واجتماعية، ويحمل رؤية الكاتب ووجهة نظر

(١) كرم طباجة/ جماليات المكان في القصة/ ص ١٦٥

(٢) عبد الرحيم مرادشة/ الفضاء الروائي/ ص ١٤٦

(٣) حسن بحراري/ بنية الشكل الروائي/ ص ٢٩

الشخصيات"^(١). وكل ذلك يمكن توضيحه من خلال دراسة المكان وصورته، وطبيعة الأحداث التي جرت عليه ،وعلاقته بالشخصيات .

وفي جدلية المكان مع العناصر القصصية/الروائية الآخر (زمان، أحداث، شخصيات) فإنه بقدر ما يصوغ المكان هذه العناصر، يكون هو أيضاً من صياغتها، وتلتزم كل العناصر المكونة للنص القصصي / الروائي وتكلل الوحدة العضوية للعمل، وتصبح الأجزاء المختلفة مرآياً يعكس بعضها بعضاً لتقديم الصورة المحسدة لهذا النص^(٢). فعناصر العمل القصصي غير منفصلة عن بعضها ،ولا قيمة جمالية فنية لأحددها دون غيرها ،وهذا الانسجام بين عناصر العمل القصصي يجعله متماساً ،وتجعل فكرته ورؤيته متغلغلة في كلّ أجزائه.

إذن يمكننا أن ندرس المكان من زاويتين الأولى تأثير هذا العنصر في سائر العناصر ،والثانية تأثير سائر العناصر في هذا العنصر ،وأثر ذلك كله في رؤية القصة ومقولتها الكلية.

وفي صدد الحديث عن علاقات البناء الفني يقول عبد الملك مرتاض: "... لا يفكر الكاتب في الزمن، وهو يكتب منعزلاً عن الحيز، ولا في الحيز منعزلاً عن الزمن، ولا في بناء النسيج اللغوي منفصلاً عن الحدث الذي يضطرب فيه، ولا في بناء الشخصية ورسم ملامحها، أو طمس معالمها، وإيذاء صورتها، والتعميمية على شكلها بمعزل عن الحدث تضطلع بإنجازه، ولا عن اللغة التي تتحدثها، أو يتحدث بها عنها، أو يتحدث بها إليها، ولا عن الزمن الذي يحتويها، ولا عن الحيز الذي يؤديها، فتوزيع هذه العناصر وتجزئتها لا يعدو أن يكون ضرباً من التيسير الإجرائي..."^(٣)

إنَّ المكان مرتبط بعلاقات مع سائر عناصر العمل الفني ، لكن ما هي هذه العلاقات؟ إنَّ جميع العناصر تتحد وتفتاعل في نسيج متناسق لخرج لنا النُّص في صورته النهائية، لكن كيف يتحقق الانسجام بين المكان وبين سائر عناصر العمل الفني؟

(١) ليلي درغون/المكان والزمان في يوميات نائب/مجلة الحياة/١٩٩٧/٥٨/٤٤/ص

(٢) حسني محمود/بناء المكان/ علامات ج ١٩٩٩ /٣٤ / ص ١٩٦

(٣) عبد الملك مرتاض/في نظرية الرواية/ ص ٢٢٣

ستحاول الباحثة في هذا الفصل أن تبين العلاقات القائمة بين المكان والأحداث وال الشخص والزمان ، و مدى تأثير المكان فيها و تأثيرها فيه، والجمالية التي يكتسبها المكان إثر علاقته مع سائر العناصر، ومدى الانسجام والتاليف فيما بينها، وأثر ذلك كله في رؤية القصة والأفكار التي تحملها.

إنّ علاقة عناصر القصة مع بعضها علاقة التحام ، ففي حقيقة الأمر ليس من السهل تجزئته القصة إلى عناصر الحديث عن كل عنصر على حدة ؛ لأنها تتداخل ووتتشابك فيما بينها ، لكن الباحثة تحاول أن تبرز عنصر المكان باتصاله بكل عنصر على حدة على الرغم من كونها كلاً لا يتجرّأ فالشخصيات تجري معها الأحداث في مكان وزمان ما ، وما هذا الفصل إلا لغاية التحليل والدراسة ، وهو تفكير لإعادة التركيب ، لتتضح آليات هذا العمل الذي ظهر بصورة النهاية ، شكلاً مكتملاً الهندسة والتصميم .

أولاً : علاقة المكان مع الأحداث

المكان هو الإطار الذي تقع فيه الأحداث وتتحرك فيه الشخصيات، ويمكن أن تستشف أبعاداً ودلالات عن الأحداث والشخصيات من خلال المكان كما يمكننا معرفة مدى تأثير الأحداث في المكان أو تأثير المكان وتدخله في الأحداث وأيهمما له السيطرة على الآخر.

و "حيث لا توجد أحداث، لا توجد أمكنة"^(١) فهل الفضاء المكاني مجرد حيز وموضع للأحداث التي تجري فيه، أم أنه موضع بذاته تتبت فيه أحداث محددة ما كان لها أن تكون في غير ذلك المكان؟^(٢).

لقد وجد الدارسون أنَّ المكان – غالباً – يقع في علاقة تأثر وتتأثر في سائر عناصر العمل الفني فيقدر ما يصوغ الأحداث والشخصيات يكون هو أيضاً من صياغتها^(٣)، ليس هذا وحسب بل إنَّ له دوراً في تشكيل الخطاب في العمل الفني، يعطي مفتاحاً للقارئ لولوج داخل أعمق العمل الفني ومعرفة أبعاده^(٤).

وما من حركة ولا حدث إلا وهو مرتبط بالمكان وهو أعمق وأهم من أن ينحصر بظرف ووعاء؛ لأنَّ كل مناحي الحياة تشهد على حضوره، "وتدفع إلى الإقرار بأنه جزء لا يتجزأ من كل الموجودات وكلَّ وجوه حركتها وسلوكها".^(٥)

إنَّ ارتباط أحداث القصة القرآنية بأماكنها التي جرت فيها هو ارتباط مقصود من منزل الذكر الحكيم، فتعالى الله -عزَّ وجلَّ- عن اختيار لفظة في كتابه الكريم من غير مقصود. لذا سأحاول مجتهدة

(١) حسن بحراوي / بينة الشكل الروائي / ص ٣٥

(٢) عبد الحميد المحاذين / التقنيات السردية / ص ٩٦ - ٩٧

(٣) غالب هلسا / المكان في الرواية العربية / ص ١٣

(٤) فاديya السقا / جماليات المكان في روايات هاني الراهب / ص ٣٨

(٥) عبد الصمد زايد / المكان في الرواية العربية / ص ٧

النظر في أماكن القصة القرآنية والأحداث التي جرت فيها دون سواها من الأمكنة والدلالات التي اكتسبتها الأحداث في وقوعها بأماكنها المخصوصة.

علاقة المكان بالحدث في القصة القرآنية

أ - المكان يظهر مفارقة في الأحداث

قصة يوسف / السجن

تعرض قصة يوسف - عليه السلام - نموذجاً من المحن والابتلاءات التي قد يتعرض لها الإنسان في حياته، وقد كان يعقوب كلّ ضيق فرج من الله عز وجل، وقد تناسب السجن مع مقوله القصة التي تعرض عاقبة الصبر على الابتلاءات ، فالسجن مكان القهر والعقاب والتسلط والوحدة والانكسار، فكيف يمكن أن تكون ردة الفعل إزاء؟

لقد ارتبط السجن بحدث عظيم في حياة يوسف حيث حدث قد لا يصبر عليه كثير من الرجال ، إنّه حدث مراددة امرأة العزيز له ، وكان يوسف يقف أمامنا مشدوهاً مما يراه من سيدته، لكنه يتماسك ويقاوم الفاحشة ولا يخضع لذاتها وامتهانها للطهارة ، إنّه درس في تحدي النفس وشهواتها.

لقد كان السجن المادي ملذاً ليوسف على الرغم من قسوته ووحشته وضيقه.. أمّا أخوة يوسف فقد سجنهم حقد هم وحسدهم بين جدران حريرتهم، وأمّا يعقوب - عليه السلام - فقد غدا سجينًا لحزنه على يوسف .. وأمّا امرأة العزيز فقد غدت سجينـة لشهواتها.

كلهم في سجن لكنّ يعقوب - عليه السلام - يعلم من الله ما لا يعلمه أبناؤه فهو على الرغم من حزنه لكنّ شعاع الأمل لم ينقطع وإحساسه بأنّ يوسف على قيد الحياة قوي.

أمّا يوسف - عليه السلام - فقد دخل السجن ليحوله إلى مكان دعوة، فعرض فكره وعقيدة التوحيد أمام صاحبيه، ثمّ كان سجنه السبيل لمقابلة الملك واستلام خزائن الأرض والتمكين فيها.

فالسجن لم يكن المكان المغلق بالنسبة ليوسف بل كان أكثر افتاحاً من القصر ذاته ،ففيه بدأت دعوته -عليه السلام- ومنه انطلق نحو الآخرين ناشراً عقيدته ومبادئه.

بـ المكان يعبر عن قسوة الحدث وشدته

قصة يوسف/ الجب

يرتبط الجب أيضاً بمقولة قصة سيدنا يوسف-عليه السلام- التي تعرض صورة الابتلاءات المتالية، وقوة تحمل وصبر الشخصية التي تخرجها من ذلك الضيق الذي تتعرض له، فالجب هو أول مكان يبتلي فيه يوسف -عليه السلام- ، وهو أول مدرسة لهذه الشخصية يتعلم فيها الصبر والتجدد، ليخرج منه إلى أماكن آخر ليست أوفر حظاً من هذا المكان إلى أن يصل في النهاية إلى المكان الذي يرتاح فيه.

لقد نظر أخوه يوسف إليه بعين مظلمة فلم يروا فيه إلا فتى صغيراً محبوباً عند أبيهم، لذا قرروا التخلص منه، وكانوا أول أمرهم يريدون قتلـه لكنـ قائلاً منهم أوعزـ إليهم إنـ كانواـ ولاـ بدـ يريدـون التخلصـ منـ يوسفـ فـليلـقوـهـ فيـ ظـلـماتـ الجـبـ حتـىـ يـلتـقطـهـ بـعـضـ السـيـارـةـ.

لقد رأى بعض الدارسين أن فعلـهمـ هذاـ دـلـيلـ علىـ رـغـبـتهمـ وـتـعـمـدـهـمـ فـيـ إـبـقـائـهـ عـلـىـ قـيـدـ الـحـيـاةـ؛ لأنـ الجـبـ فـيـ مـقـومـاتـ حـيـاةـ تـسـمـحـ فـيـ الحـفـاظـ عـلـىـ حـيـاتـهـ حـتـىـ تـأـتـيـ السـيـارـةـ فـتـأـخـذـهـ بـعـدـاعـنـ أـبـيـهـمـ فـيـخـلوـ لهمـ وجـهـ^(١). ومـهـماـ تـكـنـ نـيـتـهـ فقدـ اـخـتـارـوـاـ لـيـوـسـفـ مـكـانـاـ مـظـلـمـاـ يـتـنـاسـبـ معـ ظـلـمـةـ فعلـهـمـ فـلـمـ يـسـتوـعـ فعلـهـمـ هـذـهـ مـكـانـ منـيرـ، بلـ كـانـ إـلـقاـوـهـمـ فـيـ غـيـابـتـ الجـبـ دـلـيلـ عـلـىـ ظـلـمـةـ قـلـوبـهـمـ التـيـ لـمـ تـسـعـ لـأـخـيـهـمـ، وـاتـسـعـ لـهـ الـبـئـرـ الضـيقـ الغـائـرـ المـظـلـمـ.

(١) أحمد عطـاـ / الـبـنـاءـ الفـنيـ فـيـ القـصـةـ الـقـرـآنـيـةـ / صـ ١٥٩

لقد مثل الجب أول حدث مؤلم يمر فيه يوسف، فلم يكن يدرى -عليه السلام- أن ذهابه مع أخوه يعني استقراره في قعر البئر .. من حضن أبيه الدافئ إلى بروادة قعر البئر.. بروادة القعر وبرودة الخوف الذي أحس به بعد أن تامر عليه أخيه، أي شعور أحس به ذلك الطفل وهو ملقى في قعر بئر ينتظر رحمة تنتشه منه، ليرى ضوء الحياة من جديد.

لقد تناسب الجب الذي مثل القلق والخوف والانزعال مع رؤية القصة ،قصة يوسف خطاب لكل صاحب ابتلاء أن بعد الضيق والظلمة الاتساع والنور.

وكذلك كان الحال مع يونس -عليه السلام- فاختيار بطن الحوت ليحبس فيه يونس يزيد من شدة العقوبة ،فبطن الحوت يمثل الظلم والضيق والخوف والقلق، وكل هذه الأمور زرعت في يونس -عليه السلام- الإنابة والإقرار في الذنب، وقد تقدم الحديث عن ذلك .

جـ- المكان وسيلة لخدمة الحدث : الاختبار

العرش

تمثل قصة سيدنا سليمان - عليه السلام - نموذج الإيمان المترن بالملك، وكيف تسخر القوة والمال لخدمة الدعوة، فكان من المناسب مع فكرة القصة اختيار أماكن عظيمة كالعرش والصرح لتوضيح هذه الصورة.

لقد كان العرش أداة الاختبار الأولى التي أراد سليمان من خلالها أن يبين لملكة سبا أن قدرة الله وعلمه فوق كل أحد، وأنه - عزوجل - قد منّ عليه من فضله وعلمه من علمه.

إنّ تغيير بعض ملامح العرش كان ضرورة لإحكام الاختبار الذي ستخوضه ملكة سبا ﴿قَالَ تَكْرُوا لِمَا

عَرَشَهُ أَنْتُنَّ أَنْتُنَّ أَمْرٌ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ﴾ (النمل: ٤)

كما أنّ اجتياز بلقيس لهذا الاختبار ونجاحها فيه قدم للحدث الثاني وهو حدث الصرح ﴿فَلَمَّا جَاءَتْ فِيلَ

أَهْدَكَذَا عَرَشَكَ قَاتَ كَانَهُ هُوَ وَأُوتِنَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ (النمل: ٤٢) لقد اعترف سليمان - عليه السلام -

بعلمها لكنه سبقها فيه، وفضلّ عليها بإسلامه.

الصرح

لقد دخلت ملكة سبا قصراً عظيماً ممرداً بقوارير، إنّ الدهشة التي أصابت ملكة سبا عند دخولها الصرح دليل على أنها - على عظمتها ملکها - لم تر مثله في حياتها.

فالصرح هو ذروة الأماكن في القصة؛ لأنّه المكان الذي أكّد صدق سليمان - عليه السلام - فما آتاه الله خير مما آتاهم، فهذا الملك مسخر لخدمة الدعوة، وهذا الإتقان في صنع المكان جذب ملكة سبا، وقادها هذا الجمال للإيمان.

د- الحدث أكسب المكان اعتجازاً وفرادة

الكهف

تقديم قصة أصحاب الكهف فكرة الثبات على الحق وإن خالفت الأكثريّة، والتثبت بالمبادئ، والقيم التي نؤمن بها حتى نحافظ عليها. لقد فرّ الفتية من مدينتهم حفاظاً على دينهم فاختاروا الكهف ليتواروا به عن العيون، وليرؤمن لهم الحماية التي يرجونها.

لقد ضمَّ المكان (الكهف) حدثاً غريباً ومعجزةً عظيمةً ، أولى الفتية إِلَيْهِ فضرب الله على آذانهم في ذلك الكهف عدداً من السنين، وحافظ لهم على حياتهم من أي شيء يمكن أن يضرهم ، وهياً لهم مرافق الكهف، فالشمس تميل عن الكهف شروقاً وغرباً ، والكلب باسط ذراعيه بالوصيد ويقبّلهم الله في نومهم وهكذا حتى شاء الله بعد ذلك أن يكتشف أمرهم ﴿وَإِذَا عَزَّلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهُ فَأُولَئِكُمْ إِلَى الْكَهْفِ يَنْشَرُ لَكُمْ رِيْكُمْ مِّنْ رَحْمَتِهِ وَيَهْبِطُ لَكُمْ مِّنْ أَمْرِكُمْ مِّرْفَقًا﴾ ١٦ * وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَ تَرَوْهُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِبُهُمْ ذَاتَ الشِّمَاءِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِّنْهُ ذَلِكَ مِنْ عَائِدَتِ اللَّهِ مَنْ يَهْدِي اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ يَجِدَ لَهُ وَلَيَأْمُرَ شِدَّادًا﴾ ١٧ * وَخَسِبُوهُمْ أَيْقَانًا لَا وَهُمْ رُفُودٌ وَنَقْبَلُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الْشِّمَاءِ وَكَلَّهُمْ بَسِطٌ ذَرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوْ أَطَلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلْثِتَ مِنْهُمْ مَعْبَرًا﴾ (الكهف: ١٦-١٧)

لقد تناسب المكان مع الحدث فهؤلاء الفتية يريدون الاختباء والكهف يخفي ما بداخله ويعزله
عما حوله .. لكنه لم يكن عزلاً مأولاً فقد كان النوم الذي أنزله الله عليهم أعظم كهف يعتزلون فيه
ليس عن قومهم وحسب بل وعن أي شيء آخر في الكون.
اختار الله لهم النوم ليكون كهفهم الحقيقي ليعيشوا في داخله دون أن يحتاجوا إلى أحد ، أو يكتشف
أمرهم أحد.

المحراب

قد تتعطل الأسباب-التي هي بأمر الله- فتخرج الأمور عن حدودها المألوفة ، وحين يتحول مكان العبادة إلى مكان تحدث فيه المعجزات فإنه ولاشك سيبدو فريدا بحاجة إلى التفحص..

نعم، لقد كان المحراب مصدر رزق ولكنه رزق غير مألف إله رزق خارج عن حدود إدراكنا؛ لأنه تجاوز السنن التي أفناناها .. فالرزق كان يساق لمريم المتبتلة المنقطعة لعبادة ربها دونما حساب وقد وصل حد الرزق إلى أن تلد غلاما نبيا دون أب.

أما زكريا النبي الشيخ الذي وهن العظم منه وكانت امرأته عاقرا فierzقه الله وهو قائم يصلى في المحراب بيحيى الابن النبي البار.

إن القصة دعوة لعدم اليأس مهما كان الأمر مستحيلا، ودعوة للإيمان بأحلامنا والاتكال على الله في تحقيقها ، والمحراب مكان لا يتوقع حصول الرزق فيه،لذا عجب زكريا -عليه السلام- الرزق عند مريم لكن إجابة مريم عليها السلام " هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب" أحبت في دخله الأمل والرغبة في تحقيق ما يحلم به.

و- قدرة الحدث على تغيير صورة المكان ووظيفته

*قصة يوسف / البيت (بيت امرأة العزيز)

إن الانسجام بين مغزى القصة والأماكن التي ظهرت فيها يحقق الجمال الفني ، ويؤثر في المتلقي ، فقصة يوسف - عليه السلام - تدعو إلى الصبر على المحن الذي يعقبه الفلاح والسرور ، لذا فإن أماكن هذه القصة كانت تسير في هذا المنحى منحى الابلاء كالسجن والجب وحتى البيت لم يكن مختلفا عن السجن أو الجب لقد ارتبط البيت بحدثين هامين وجوهرين في حياة يوسف - عليه السلام - الحدث الأول شراء عزيز مصر له واحتضانه له في بيته ﴿ وَقَالَ اللَّهُ أَشَرَّنَا مِنْ مِصْرَ لِأَمْرَأَنَا أَكَنْ رِمَّيْ مَثْوِنَهُ عَسَوْ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَنْجَذَهُ وَلَدًا ﴾ (يوسف: ٢١) .

أما الحدث الثاني فهو حدث مراردة امرأة العزيز له واتهامها له بأنه أراد بها سوءا.

لقد تناسب المكان مع طبيعة الحدثين فالبيت يصنف على أنه سكن ومؤوى، ومكان راحة ودفء، لكنه قد ينقلب إلى عكس ذلك وفق الأحداث التي تجري مع الشخصية في هذا المكان وهذا ما حصل مع يوسف - عليه السلام - فالأحداث التي جرت معه بين جدران ذلك المنزل حولته إلى مكان مخيف لا أمان فيه ولا استقرار لذا آثر السجن عليه.

لقد ألقى به بيته أبيه في الجب وألقى به بيته عزيز مصر في السجن ، لكنّ الجب أخرجه إلى بيته العزيز ، والسجن أخرجه إلى الملك وإلى خزائن الأرض!

و-صمود المكان أمام الحدث

قصة نوح / السفينة

تحمل قصة نوح -عليه السلام- رؤية عظيمة وهي دعوة الإنسان إلى بذل كل جهد يستطيعه في سبيل الوصول إلى أهدافه والصمود على المبادئ التي يؤمن بها مهما انقضّ الناس من حوله أو استهزأوا به. فإن آمن الإنسان بما يدعو إليه فلا يضره أذى المستكبرين ولا استهزاء المستهزئين، فنوح -عليه السلام- لبث في قومه يدعوهم إلى الإيمان ألف سنة إلا خمسين عاماً ومع ذلك لم يؤمن معه إلا قليل ناهيك عن الأذى الذي تعرض له عليه السلام من المعارضين عن دعوته.

لكنه صبر على كل ذلك حتى أمره الله بصنع السفينة، هذه السفينة التي تتناسب ظهورها مع رؤية القصة، فالإنسان في حياته بما يتعرض له من صعوبات كأنه يعيش في بحر متقلب الأمواج وهو يحتاج إلى سفينة تحمله إلى مبتغاه. وكأن السفينة رمز لخيط النجاة الذي يجب أن يبحث عنه الإنسان في حياته ويتمسك به في سبيل الوصول إلى أهدافه. أمّا عاقبة التكبر فهي الذل وقد ناسب المكان /السفينة هذه المقوله أيضا، فالسفينة هذا المكان المتواضع الصنع سيوفر حماية كبيرة للفئة القليلة المؤمنة فقط. ولن تجد الفئة المقابلة أيّاً من مكونات هذا المكان (الواح ودسر) حتى تتجوّبه. فالسفينة على بساطة مكوناتها قدمت عملاً عظيماً للمؤمنون على قلتهم كانوا هم الفائزون.

وترتبط السفينة في قصة نوح -عليه السلام- بحدثين رئيين الأول حدت الدعوة، والثاني حدث إغراق الكافرين بالطوفان.

أما حدث الدعوة فقد أمر الله - عزوجل- نوحاً بأن يصنع السفينة أمام ناظري قومه بعد تعنتهم وتكذيبهم لدعوته، لتكون السفينة حسراً في قلوبهم بعد استهزائهم بنوح.

لقد دعا نوح على قومه بالهلاك بعد أن كنبوه وتوعدوه بالرجم ﴿قَالَ رَبِّي إِنَّ قَوْمِي كُذَّابُونَ ﴾ ﴿فَاقْتَحَمُّ بَيْنَهُمْ﴾

﴿وَلَيَنْهَا فَتَحَمَّ وَتَجْعَفُ وَمَنْ تَعَيَّ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (الشعراء: ١١٧ - ١١٨).

ثم يسدل الستار عن مشهد الدعوة ليرفع الستار عن مشهد الطوفان ﴿فَدَعَاهُمْ أَنَّهُ أَنْجَى مَغْلُوبَ فَأَنْصَرَ﴾ (١٠)

﴿فَنَحَّا أَبْوَابَ أَسْمَاءَ إِلَيْهِ مُتَّبِعِينَ﴾ (١١) وَفَجَّرَا الْأَرْضَ عَيْنَوْنَا فَالْقَمَّ الْمَاءُ عَلَيْهِ أَمْرٌ قَدْ مُرِرَ (١٢) أَوْ حَمَّنَهُ عَلَى ذَاتِ الْوَاحِ وَدَسَرَ (١٣)

﴿تَعْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفَّارًا﴾ (القرآن: ١٤ - ١٥)

لقد أغرق القوم الكافرون ونجي نوح والمؤمنون على ذات الواح ودسر ، مكان ليست به تلك المكونات العظيمة (مجرد الواح ومسامير) لكنها أنجت من حدث عظيم بأمر الله، حدث الغرق ، وسارت في وسط الأمواج برعاية وحماية الله - عزوجل - "تجري بأعيننا". وهكذا تناسب المكان المتواضع الصنع مع استكبار قوم نوح الذين أبوا أن يتساوا مع الفقراء الضعفاء في العقيدة ، وحقيقة هذا التناسب أنكم على استكباركم لن تجدوا حتى الواحا ودسرا لتجروا عليها.

**حدث غرق ابن نوح وعلاقته بالسفينة

على الرغم من حدوث الطوفان أمام نظر ابن نوح ، وعلى الرغم من مشاهدته للسفينة وعلى ظهرها نوح والمؤمنون ، ومناداة نوح لابنه للركوب لكنه أبي واستكبار ولم يحط بحقيقة ما يجري ولم يظن أن هذه السفينة قد يمكنها أن تكون أكثر أمانا من الجبل لذا قال: ﴿قَالَ سَأَوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنْ الْمَاءِ﴾ (هود: ٤٣) ، لكن الحقيقة ﴿قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ﴾ فكانت

النتيجة ﴿وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغَرَّبِينَ﴾ (هود: ٤٣) لقد صمدت السفينة لكن الجبل لم يصمد!

إن سفينة نوح - عليه السلام- لم تكن وسيلة نقل مألوفة تنقلنا من مكان لآخر وحسب .. بل مثلت الجسر الذي يحمل من ركبها من مكان الموت إلى مكان الحياة ، من مكان فقد أهم مكونات الحياة وهو الأمن إلى مكان استقرار وأمان (واستوت على الجودي)^(١) استواءً أمن واستقرار بعد أن كانت تجري بهم في موج كالجبال .

(١) والجودي جبل عند ملتقى الحدود السورية- التركية، على الضفة الشرقية لنهر دجلة. / أطلس القرآن-ص ٢٠

ز- المكان يكسب الحدث عظما

الجنة / جنة آدم

المكان وعاء الحدث، فالأحداث لا بد لها من مكان يحتويها لتجري فيه وتبيّن أثرها فيه أو أثره فيها. وبقدر ما يتفق المكان مع مغزى القصة تكون القصة مؤثرة، فقصة آدم - عليه السلام - حديث عن ثمرة الطاعة والمعصية، وتدريب الخليفة على تحمل المسؤولية ، والجنة هي مكان تلك التربية، لأنها المكان الأمثل الذي يصلح لأن يغرى به أي أحد فيحتاج لمجاهدة نفسه ليمنع نفسه عن نهي الله له عن أمر ما فيها، فكل ما فيها جميل مغر، ثم إنّه المكان الذي يصلح ليكون وسيلة مكافأة وعقوبة في الوقت ذاته ، فالمعصية ترتب عليها الخروج من الجنة، وأي مكان يمكن أن يعاقب شخص بحرمانه أكثر من الجنة!

لقد توالت الأحداث في قصّة آدم - عليه السلام - في الجنة منذ خلق الله - عزوجل- آدم فيها، ثم أمره للملائكة بالسجود له ، وعصيان إبليس لأمر الله - عزوجل-، ونهي الله لآدم الأكل من الشجرة وووسعة الشيطان لآدم وزوجه وخروجهم جميعاً من الجنة.

حدث عظيم جرى في الجنة إنّه خلق آدم - عليه السلام - ﴿وَلَذَا قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِّنْ حَلْمٍ مَّسْنُونٍ﴾ (الحجر: ٢٨) خلقه - عزوجل- بيديه ﴿قَالَ يَأَيُّلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا

خَلَقْتُ بِيَدِي أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ (ص: ٧٥) فتشرف آدم بالخالق الذي خلقه بيديه ، وتشرف بالمكان الذي خلقه فيه (الجنة).

إنّ الجنة التي خلق فيها آدم ستتابع فيها أحداث بعد حدث الخلق كلها مرتبطة فيها ، فقد أمر الله - عزوجل- الملائكة بالسجود لآدم بعد أن ينفح فيه من روحه ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُمْ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ (الحجر: ٢٩) .

ثم ماذا ؟ لقد سجد الملائكة أجمعون وعصى إبليس ربه في الجنة فضّلت الجنة حدث الطاعة وحدث العصيان في موقف واحد ﴿فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ أَبْرَأَ أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ﴾ (الحجر: ٣٠ - ٣١).

إنّ حدث عصيان إبليس لربه في الجنة أخرجه منها ﴿قَالَ فَأَخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾ ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ﴾ (الحجر: ٣٤ - ٣٥).

لقد لعن الله - عزوجل- إبليس وطرده من رحمته ومن الجنة ، وهذا نشأ الصراع الذي لن ينتهي حتى يوم القيمة بين الشيطان والإنسان ، ذلك الشيطان الذي يريد غواية ابن آدم وإخراجه من الجنة كما أخرج أبويه من قبل. قال تعالى: ﴿يَبْعِيْدُهُمْ مَادَمَ لَا يَقِنُّنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا بِإِسْهَمَا لِرِبَّهُمَا سَوْءَتِيْمًا﴾ (الأعراف: ٢٧)

إذن ارتبطت الجنة بأكثر الأحداث أهمية وهو حدث الخلق الأول، وفيها حسد إبليس آدم وعصى الله - عزوجل- وأخذ على نفسه عهداً بأن يضل آدم وذراته.

حـ. الحـدـث يـكـسـب المـكـان قـدـاسـة

وأي قداسة لمكان أكثر من كلام الله - عزوجل- لعبده دون وحي أو ترجمان أو أي وساطة فيه !.

لقد كلم الله - عزوجل- موسى -عليه السلام- تكليما ، وكلفه بحمل الرسالة رسالة التوحيد وأمانة الدعوة إلى فرعون وملئه.

تلقي موسى -عليه السلام- وحي الرسالة بعد قضائه الأجل في مدين وسيره بأهله نحو مصر حين ناداه الله - عزوجل- في طور سيناء وحاوره وكلفه بالذهاب إلى فرعون.

قال تعالى ﴿ وَهَلْ أَتَنَاكَ حَدِيثُ مُوسَى ﴾ ① إِذْ رَأَى فَقَالَ لِأَهْلِهِ أَمْكُنُ أَنِّي إِنِّي أَنْسَتُ فَارِقاً لِّيْلَةَ الْعَلَيْلِ أَنِّي أَنْسَتُكُمْ مِّنْهَا بَقَبَّيْنِ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى ﴾ ② (طه: ٩ - ١٠)

لقد أراد موسى -عليه السلام- قبسا من نار فأعطاه الله - عزوجل- قبسا من نور لا ينطفئ .
أراد -عليه السلام- الأنس والهداية من عند النار فأعطاه الله رشدا وهداية إلى طريق الحق والتوحيد ﴿ فَلَمَّا آتَاهُنَّهَا نُودِيَ يَنْمُوسَى ﴾ ⑪ إِنِّي أَنْأَرْبُكَ فَأَخْلُعُ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْأَوَادِ الْمُقَدَّسِ طَوَى ﴾ ⑫ وَأَنَا أَخْرُبُكَ فَأَسْتَمِعُ لِمَا يُوحَى ﴾ ⑬ إِنِّي أَنَا اللَّهُ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَلَا إِلَهَ لِذِكْرِي ﴾ ⑭ إِنَّ السَّاعَةَ إِذَا هِيَ آتَيْتَنِي أَكَادُ أُخْفِيَهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى ﴾ ⑮ فَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَنَهُ فَنَرَدَى ﴾ ⑯ (طه: ١١ - ١٦)
وهكذا ضمن هذا المكان قداسة ما بعدها قداسة، وأجرى الله - عزوجل- فيه لموسى معجزتين حتى يثبته ويحمل حجته إلى فرعون وملئه ﴿ وَمَا تِلْكَ بِسِيمِينَكَ يَنْمُوسَى ﴾ ⑰ قَالَ هِيَ عَصَمَى أَتَوْكَعُ عَلَيْهَا وَأَهْشِ يَهَا عَلَى عَنَّمِي وَلِي فِيهَا مَارِبُ أُخْرَى ﴾ ⑱ قَالَ أَلْقَهَا يَنْمُوسَى ﴾ ⑲ فَالْقَنَهَا إِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى ﴾ ⑳ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخْفَضْ سَعِيدُهَا سِيرَتَهَا أَلْأَوْلَى ﴾ ㉑ وَأَضْمَمُ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَمْرُجْ بَصَمَاءَ مِنْ عَيْرِ سُوْءَ مَائَةَ أُخْرَى ﴾ ㉒ إِنِّي بَكَ مِنْ مَا إِيْتَنَا الْكُبْرَى (٢٣: ١٧) (٢٣)

وقد جاء تحديد الوادي المقدس تحديداً مفصلاً أكثر في سورة القصص ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الْأَيَّلَ وَسَارٌ بِأَهْلِهِ مَاءَنْسٌ مِنْ جَانِبِ الظُّورِ كَارَأَ قَالَ لِأَهْلِهِ أَمْكَثُوا إِنِّي مَاءَسْتُ نَارًا لَعَلِيَّ مَا تَكْمِنُهَا إِنْهِي أَوْ حَذَرْهُ مَنْ

أَنَّارٌ لَعَلَّكُمْ تَضَطَّلُونَ ﴿٦﴾ فَلَمَّا آتَاهُنَّا نُورًا مِنْ شَطِّي الْوَادِيَيْنِ فِي الْمَقْعَدِ الْمُبَرَّكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنَّ يَمْوِسَى إِنْفَتَ أَنَّا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمَيْنَ ﴿٢٩﴾ (القصص: ٢٩ - ٣٠)

لقد بدأت وظيفة المكان "الدلالة الدينية عند وصول موسى إلى النار، فيرتقي المكان من مجرد كونه ديكوراً فنياً يسهم في تحضير الجو القصصي إلى مكان احتضن أهم حدث في حياة موسى كلها فقد حظي بتكليم الله له فيه".^(١)

ط - مساهمة الحدث في تغيير صورة المكان

إلى أي مدى يمكن للحدث أن يغير المكان؟ وهل يمكن للمكان أن يعود إلى سابق عهده بعد تغييره؟ وهل تستقيم صورة المكان بعد هلاك أهله؟

في كثير من قصص القرآن الكريم نجد أنّ يد الحدث تلعب دوراً كبيراً في تغيير المكان، فتحوله من مكان رغد وجمال وأمن، إلى مكان خراب ووحشة وعذاب...

لقد تحولت الجنان بکفر أهلها وتکذیبهم إلى محل وقط وخراب، فهذه سبأ يضرب الله بها

مثلاً لجمال المكان الذي حباها به وكيف انقلبت صورة المكان إلى صورة مخيفة. ﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَأٍ

فِي مَسْكَنِهِمْ إِعْيَادٌ جَنَّاتٍ عَنْ يَمِينٍ وَشَمَائِلٌ كُلُّوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَلَا شَكُورًا لَهُ بَلَدٌ طَيْبٌ وَرَبٌّ عَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَاعْرَضُوا

(١) سليمان مخلف / تحليل الخطاب القصصي / ص ٢٣٣

فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلًا أَعْرَمْ وَدَلَّلَهُمْ بِحَنَّتِهِمْ جَنَّتِينَ دَوَاقِيْ أَكْلِيْ حَمْطِيْ وَأَثْلِيْ وَشَقِيْ وَمِنْ سَدِرِ قَيْلِيْ ⑯ ذَلِكَ جَزَّتِهِمْ
بِمَا كَفَرُوا وَهُلْ بَعْرِيْ إِلَّا الْكُفُورُ ⑰ (سبا: ١٥ - ١٧).

وكذلك صاحب الجنتين وأصحاب الجنة تحولت جنانهم تلك إلى أماكن مخيبة مدمرة وخارية لا جمال ولا أمان فيها.

وهو لاء عاد الذين ضرب الله بهم مثلا في مسكنهم ⑯ أَنَّمَا تَرَكَيْ فَعَلَ رِبُّكَ يَمَادِ ⑰ إِنَّمَا ذَاتَ الْأَعْمَادِ ⑷
الَّتِي لَمْ يَجْعَلْ مِنْهَا فِي الْأَيْلَانِدِ ⑸ (الفجر: ٦ - ٨) ثم يتحول مسكن عاد الذي لا مثيل له إلى خراب لا حياة فيه ⑯ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلًا أَوْ دَيْنِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطَرُنَا بَلْ هُوَ مَا أَسْتَعْجَلْنُمْ بِهِ، رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ⑯
٢٤ ⑯ تُدْمِرُ كُلَّ شَقِيْ وَأَنْرِيْهَا فَاصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسْكِنُهُمْ كَذَلِكَ بَعْرِيْ الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ⑸ (الأحقاف: ٤ - ٢٥).
.)

وأما ثمود الذين تفتقروا في نحتم البيوت في الجبال آمنين وفارهين غدت أيضا هذه البيوت خاوية على عروشها لا حياة فيها ⑯ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عِنْقَبَةً مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ⑯
٥١ ⑯ فَتَلَكَ بِيُوْتِهِمْ خَاوِيْكَةً بِمَا ظَلَمُوْإِنْ ٥٢ فِي ذَلِكَ لَأَبَةً لَقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ⑸ (النمل: ٥١ - ٥٢).

وفي قصة لوط - عليه السلام - تنقلب صورة المكان رأسا على عقب بعد إزال العذاب عليهم وتختفي ملامحه ⑯ فَلَمَّا جَاءَهُمْ أَمْرٌ فَاجْعَلْنَا عَلَيْهَا سَافَهَهَا وَأَنْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِيلٍ مَضْوِدٍ ⑯
٨٣ ⑯ مُسَوَّمَةً عِنْدَ رِيْلَكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بَعِيدٌ ⑸ (هود: ٨٢ - ٨٣).

ثانياً: العلاقة بين المكان والشخصيات

ترتبط الشخصية في المكان الذي تعيش فيه أو تتصل به عبر أحداث معينة ،والشخصية تحدث تغيرها في المكان كما يحدث المكان تغييره في الشخصية.

ويقتن المكان في البناء الحكائي بالشخصيات التي تظهر فيه وتفاعل معه، فالمكان كما يرى أرسطو "موجود ما دمنا نشغله ونتحيز فيه وكذلك يمكن إدراكه عن طريق الحركة والتي أبرزها حركة النقلة من مكان إلى آخر ، وهو مفارق للأجسام المتمكنة فيه وسابق عليها ولا يفسد بفسادها"^(١) ولا معنى للمكان إلا حين يعيش أي حيّن يصبح جزءاً من تجربة الحياة في المجتمعات البشرية^(٢).

وبهذا الفهم فإن المكان لا قيمة فعلية لوجوده أو لا إحساس بوجوده إلا بمعاينته الشخصيات له ومعايشتها فيه، أو إن المكان في الطبيعة يظل مكاناً محايضاً إلا إذا أقحمنا أنفسنا فيه أو اقتحم هو أنفسنا كي نلعب فيه أدواراً أو يلعب فينا أدواراً فتتجلى دلالات ورؤى منبثقة منه وفيه.

وفي العمل الفني يتفاعل المكان مع الشخصية ويدخل في تكوينها من الناحية الفكرية والنفسية و يؤثر في تغيير أحوالها وانتقالها من حال إلى حال ، كما أنه يسهم في خلق المعنى داخل القصة ولا يكون دوره محايضاً أو سلبياً وإنما يتعامل العمل الفني مع المكان إما بكونه عابراً ضمن سرد الأحداث ومن خلال الحوار ، أو يكون المكان حالة مرجعية تعمق النظر إلى الواقع المعيش ، وقد يعبر المكان عن موقف الشخصيات في العمل الفني والعالم المعيش^(٣) .

ويمكن أن نحلل الشخصية وندرسها عبر علاقتها في المكان وتأثير أحدهما في الآخر، فقد يجعل المكان الشخصية تنسجم مع العالم المحيط بها ، وقد يجعلها تتعزل عنه ، ويمكن أن يقدم المكان

(١) عبد الرحيم مرادشة/ الفضاء الروائي/ ص ٢٨

(٢) خالد حسين/ المكان في الرواية الجديدة/ ص ٧٦

(٣) فهد حسين/ المكان في الرواية البحرينية/ ص ٣

للشخصية أكثر من ذلك فقد يمد لها يد العون في بعض المآذق كما فعل الكهف مع الفتية الذين التجأوا إليه ، وقد يساند المكان ذاته الشخصية أو يعاديها كما فعل البحر مع موسى وفرعون.

إن "العلاقة بين الإنسان والمكان تتم وفق قانون الفعل ورد الفعل إذ بقدر ما يؤثر المكان ويحفر في الإنسان خصائصه وملامحه، فإنه ينحفر - المكان- بالإنسان وفعالياته المستمرة، فالضغط المكاني يقابل بفعل معاكس، وهذا يتفاعل الأمران وفق علاقة جدلية مستمرة^(١).

وهذه العلاقة المتبادلة ما بين الإنسان والمكان تترك أثراً لها عليهما، فكلاهما متأثر بالأخر ومؤثر فيه، فالمكان قد يوفر للإنسان الشعور بالراحة والهدوء والانتماء والهوية، ويكتسبه بعض الطباع البشرية والنفسية، والإنسان قد يؤثر في المكان ويفرض عليه بعض التغييرات ويضفي عليه القيم التاريخية والثقافية والدينية^(٢).

إن إحساس الشخصية بالمكان ورد فعلها تجاهه تكون وفق ما يقدمه المكان لهذه الشخصية، ووفق ما يعنيه هذا المكان للشخصية، وما تحمله الشخصية عن هذا المكان من رؤى وأفكار، وما يجري للشخصية في هذا المكان من أحداث، وما تتعرض له من مواقف، وبالتالي فقد توصف الأماكن وفق علاقة الشخصية بها، بأنها أماكن معادية وقد توصف بأنها أليفة، كما يمكن وصف الشخصية وسلوكها وفق طبيعة المكان فالأماكن المغلقة يمكن أن يكون لها آثارها الإيجابية أو السلبية في الشخصية وكذلك الأماكن المفتوحة يمكن أن يكون لها آثارها أيضاً الإيجابية أو السلبية في الشخصية.

كما أن إحساس الإنسان بالمكان يختلف من إنسان إلى آخر، وقد يتغير إحساس الإنسان نفسه من حالة إلى أخرى ومن وقت إلى آخر، فقد يكون المكان أليفاً ومحبوباً عند إنسان ما ، وقد يتحول هذا المكان عند نفس الإنسان وفق معطيات جديدة إلى مكان مكره ومعاد ومرفوض^(٣). ويمكن أن نمثل على ذلك ببيت عزيز مصر الذي ضم يوسف إلى أن غداً شاباً يافعاً فتحول هذا المكان إلى مكان يتهدد يوسف حتى ألقى به في السجن.

(١) خالد حسين / المكان في الرواية الجديدة/ ص ٤٩

(٢) نبيه القاسم / الفن الروائي / ص ٥٥

(٣) المرجع نفسه/ ص ٥٣

إن الشخصية هي محور القصص القرآني ومحور الأحداث ، فهي تتأثر بها وتوثر فيها، فهي مناط التكليف ومعتمد التغيير ^(١). وتفاعل المكان مع الشخصيات يسهم في إبراز الرؤية التي تحملها الشخصيات ، والمغزى الذي تسعى القصة لإيصاله للمنافق.

*علاقة الشخصية بالمكان في القصة القرآنية

أـ المكان موضع اختبار وابتلاء للشخصية

* الجنة / جنة آدم

تصبو النفوس للجنة ؛ فهي المكان الذي ضمّ الجمال والجلال والسعادة التي لا شقاء بعدها ، وقصة سيدنا آدم ارتبطت بالجنة ، المكان الذي خلق الله فيه آدم ، وأعدّه فيه لتحمل رسالة الاستخلاف في الأرض. إنّ الجنة رمز للنعم الذي قد يسلب بسبب المعصية .

لقد مثل هذا المكان للإنسان (آدم) وللشيطان (إبليس) نقطة تحد، فالثاني (إبليس) يريد إخراج آدم من الجنة؛ لأنّه كان السبب - في نظره - في فتنته وغضبه عليه بأن أمره بالسجود لأدّم فأبى واستكبر فاستحق بذلك أن يطرد من الجنة وتصبح محرمة عليه ﴿فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ

أَجْمَعُونَ﴾ ^{٧٣} ﴿إِلَّا إِنِّي لَسْتُ بِرَّا وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ ^{٧٤} ﴿قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدِي أَسْتَكْبِرَتْ أَنْ كُنْتَ

مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ ^{٧٥} ﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ حَلَقْتِي مِنْ تَارٍ وَحَلَقْتُهُ مِنْ طِينٍ﴾ ^{٧٦} ﴿قَالَ فَأَخْرُجْ مِنْهَا إِنَّكَ رَاجِعٌ﴾ ^{٧٧} ﴿وَلَنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ

الْدِينِ﴾ ^{٧٨} ﴿قَالَ رَبِّي فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يَعْنَيُونَ﴾ ^{٧٩} ﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ﴾ (ص: ٧٣ - ٨٠). لقد حاول إبليس

جاهدا إخراج آدم من الجنة فأغرى آدم بالجنة نفسها؛ لأنّه يعلم مدى حب آدم ورغبته في الخلود فيها ﴿وَقَالَ مَا نَهِنَّكَارِي كُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَلِيلِينَ﴾ (الأعراف: ٢٠)، إذن

تمثل الجنة لإبليس تحديا وفتنة مع آدم فقد خرج منها بسبب آدم وهو بدوره يريد إخراج آدم منها.

لقد تكبر إبليس في الجنة وقد بين - عزوجل- أن الجنة ليست مكاناً للمتكبرين ﴿فَالْفَاهِقُ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَكَبَّرَ فِيهَا فَأَخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾ (الأعراف: ١٣) ﴿فَالْفَاهِقُ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَحِيمٌ﴾ ٢٤ وَإِنَّ عَيْنَكَ الْعَنَةُ إِلَّا يَوْمُ الْدِينِ﴾ (الحجر: ٣٤ - ٣٥).

ولم يكتف إبليس بأن أخرج آدم من الجنة بل توعد ذريته بالإغواء والإضلal ﴿فَالْفِيَّا أَغْوَيْتِنِي﴾ لآفسدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ١٦ ثم لا ينتهي من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيديهم وعن شماليهم ولا يهدى أكثرهم شنكرين ﴿الْأَعْدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ (الأعراف: ١٦ - ١٧). لم يتبع إبليس بل توعد آدم وذريته بالفتنة فقطع الله أمله بالعودة إلى الجنة، وتوعده بجهنم جراء لل العاصين ﴿فَالْأَذْهَبَ فَمَنْ يَعْكِبْ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَرَأْ كُلُّ جَرَأَ مَوْفُورًا﴾ (الإسراء: ٦٣). أما آدم - عليه السلام- فحبه للجنة ولما في الجنة من نعم، وتعلقه بها ورغبتها في الخلود فيها هو الذي أغراه للاستجابة لإبليس ، فالجنة بالنسبة لآدم مكان رغد وسكن لا يعرى فيه ولا يجوع ولا يعطش ولا يشعر بحر أو برد، إنّه مكان لا شقاء فيه ﴿وَقُلْنَا يَتَادُمْ أَسْكُنْ أَنَّتَ وَرَوْجَكَ الْجَنَّةَ وَكَلَّا مِنْهَا رَغْدًا حَيْثُ شِئْتَمَا﴾ (البقرة: ٣٥) ﴿فَقُلْنَا يَتَادُمْ إِنَّ هَذَا عَدُوُّكَ وَلِرَوْجِكَ فَلَا يَخْرِجُنَّكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى﴾ ١٧ إِنَّ لَكَ أَلَا يَمْجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرِي ١٨ وَإِنَّكَ لَا تَنْظُمُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى ١٩ فَوَسُوسْ إِلَيْهِ الْشَّيْطَنُ قَالَ يَتَادُمْ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخَلِيلِ وَمُلِئِ لَأَيْلَنِ﴾ (طه: ١١٧ - ١٢٠). لقد مثلت الجنة لآدم مكان ابتلاء واختبار أيضاً ، فأمر الله - عزوجل- له بآلا يأكل من الشجرة ما هو إلا تدريب على الطاعة ورياضة للنفس لتعليمها الإرادة والسيطرة على الذات، لكن آدم لم ينجح في هذا الاختبار ﴿فَأَكَلَّا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرْقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ، فَغَوَى﴾ (طه: ١٢١).

إنّ حركة آدم - عليه السلام- وزوجه بعد أن بدت سؤالهما في الإسراع إلى ورق الجنة لستر عوراتهما ، حركة تدل على ثقهما بهذا المكان الذي لا عري فيه، لكنّ المكان كان مشروطاً

بالطاعة ليمنح ما يمنه لهم، وبعد المعصية ما كان للجنة أن تكون لآدم، لقد أخرج منها آدم وزوجه لكنه سرعان ما تاب، وكانت توبته هي السبيل ليعود إليها بعد أن يهبط إلى الأرض ويكون الخليفة فيها ﴿ثُمَّ أَجْبَرْنَا رَبِّهِ فَنَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴾١٦٢﴿ قَالَ أَهِيَّتُ مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضَكُمْ لِيَعْصِيَنِي عَدُوٌّ فَإِنَّا يَأْنِسَنَّكُمْ مِنْيَ هُدَىٰ فَمَنْ أَتَبَعَ هُدَىٰ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾ (طه: ١٢٢ - ١٢٣)

بنو إسرائيل ودخولهم إلى الأرض المقدسة

قد تكون إقامة الشخصية بالمكان إقامة جبرية فلا تملك من أمرها شيئاً فيه، تتعرض فيه لأسكل من الاضطهاد والتنكيل، فيؤثر هذا المكان المعادي في تكوين الشخصية، فتقعدو شخصية سلبية لا تملك روح المقاومة، ولا القدرة على المواجهة والتغيير، وهذا ما نجده في قصة بنى إسرائيل الذين أتوا الدخول إلى الأرض المقدسة، هذا المكان الذي اصطحبهم موسى - عليه السلام - إليه ليكون نقطة تحول إيجابية في حياتهم، مكان مقدس لا ظلم فيه ولا قهر.

فبعد أن أنجى الله - عزوجل - بنى إسرائيل من فرعون الذي استضعفهم وأذاقهم الذلة والهوان، بدأ صوتهم يعلو بعد أن كان مستكيناً خافتًا لكنه علو في غير موضعه، إنه علو بالباطل علو بالشرك والكفر وهو لم يمض كثير على المعجزة التي أراهم الله إياها من مجاوزتهم البحر ونجاتهم وغرق فرعون وجنوده حتى طلبو إليها يعبدونه شركاً مع الله. ﴿وَأَرْزَقْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا

يُسْتَعْصِمُونَ مَشْرِقَ الْأَرْضِ وَمَغَرِبَهَا أَلْقَى بَرْكَانَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلْمَتُ رَبِّكَ الْحَسَنَى عَلَى بَيْنِ إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ ﴾١٦٣﴿ وَجَنَّزَنَا بَيْنِ إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَنْجَاهُمْ عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى أَجْعَلْنَا إِلَيْهَا كَمَا لَهُمْ إِلَيْهَا كَمَا لَهُمْ إِلَيْهَا كَمَا لَهُمْ إِلَيْهَا قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾١٦٤﴿

(الأعراف: ١٣٧ - ١٣٨).

لقد كانت هذه هي المحطة الأولى لموسى - عليه السلام - مع بني إسرائيل بعد أن حررهم من ذل العبودية، لقد خرج بهم من مصر من العبودية والظلم ليسير بهم إلى الأرض المباركة ليبدأوا حياة مباركة لا ذل فيها ولا هوان لكنهم بدأوا ينكصون على أعقاب كفرهم فكان رده - عليه السلام - ﴿قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ يَجْهَلُونَ ﴾٢٧﴿ إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَّبِرُّو مَا هُمْ فِيهِ وَنَطَّلُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾٢٨﴿ قَالَ أَعْيُرُ اللَّهَ سَمْعَكُمْ لِأَنَّهَا وَهُوَ فَضْلُكُمْ عَلَى الْمُنَاهِيْنَ ﴾٢٩﴿ وَإِذَا أَبْجَدْتُكُمْ مِنْ مَالِ فَرْعَوْنَ يَسْمُونُكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يَقْرَئُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَّهٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾٣٠﴾ (الأعراف: ١٣٨ - ١٤١).

وهكذا تمضي أحداث كثيرة بين موسى - عليه السلام - وبني إسرائيل إلى أن يأمرهم نبيهم بدخول الأرض المقدسة ﴿يَقُولُ أَدْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَنَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْدُدُوا عَلَى أَذْبَارِكُمْ فَنَنْقِبُوا أَخْسِرِينَ ﴾٣١﴿ قَالُوا يَأْمُوْسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَلَنَا لَنْ نَدْخُلُهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَخْلُونَ ﴾٣٢﴿ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا أَدْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ عَلَيْهِنَّ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾٣٣﴿ قَالُوا يَأْمُوْسَى إِنَّا لَنْ نَدْخُلُهَا أَبْدًا مَادَمُوا فِيهَا فَإِذَهَبْتَ أَنَّ وَرَبِّكَ فَقَدْتِلَا إِنَّا هُنَّا قَاعِدُونَ ﴾٣٤﴿ قَالَ رَبِّي إِنِّي لَا أَمِلُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَاقْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمَ الْفَسِيقِينَ ﴾٣٥﴿ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَنْهَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَسِيقِينَ ﴾٣٦﴾ (المائدة: ٢١ - ٢٦).

لقد أذن الله - عزوجل - لبني إسرائيل بدخول الأرض المقدسة بعد إيمانهم بموسى - عليه السلام - ، وأظن أنه لو كانت شخصية ذات نفسية أخرى غير نفسية بني إسرائيل لسارعت إلى طاعة أمر الله - عزوجل - وأمر نبيه ، فكيف يكون الإنسان بلا مأوى ويرفض المأوى؟ لا يكون ذلك لأحد إلا إذا كان مثل نفسية بني إسرائيل التي استساغت طعم الذل والجبن والخنوع ورفض المقاومة وإن كانت في سبيل الكرامة . ﴿إِنَّا لَنْ نَدْخُلُهَا أَبْدًا مَادَمُوا فِيهَا فَإِذَهَبْتَ أَنَّ وَرَبِّكَ فَقَدْتِلَا إِنَّا

هُنَّا قَعْدُونَ ﴿٢٤﴾ (المائدة: ٢٤). إِنَّهُ سُوءُ الْأَدْبِ وَالْخُلُقِ فِي التَّعْالَمِ مَعَ رَبِّهِمْ وَنَبِيِّهِمْ فَاسْتَحْقَوْا

بذلك أن يحرموا من دخولها ليس هذا وحسب بل يعيشوا حياة التيه والتشرد والذلة ﴿قَالَ فَإِنَّهَا

مَحَرَّمٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعُينَ سَنَةً يَتَهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسُ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٦﴾ (المائدة: ٢٦) لقد

فشلوا في اختبار الله لهم فشلوا في الطاعة والثبات على الإيمان، فكانوا كما وصفهم الله - عزوجل- قوماً فاسقين ، و حرموا المكان المقدس الذي فيه أنعمهم واستقرارهم .

ملکة سبا والمكان*

عرش ملكة سباً بالنسبة لها، فهو كرسي ملكها وعظمتها من عظمتها؛ لذا اختاره ليكون وسيلة دعوة لها للإيمان بالله - عزوجل-.

لقد أحضر عرشها وغيره بعضاً من ملامحه ليختبر علمها وذكاءها وطبيعة فهمها، فكانت صاحبة فطنة وذكاء ﴿قَالَ نَذِرُوا لِمَا عَرَثَهُ أَنْتَ تُؤْخِذُ أَنْتَ تَعْلَمُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ﴾ ﴿فَلَمَّا جَاءَهُ قِيلَ أَنَّكَذَّأَرْ شَكِّ﴾

قالَتْ كَاتَةٌ هُوَ وَأُولَئِنَا الْعَلَمُ مِنْ قِبْلَهَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ ﴿فَلَمَّا كَانَتْ كَاتَةٌ هُوَ وَأُولَئِنَا الْعَلَمُ مِنْ قِبْلَهَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ ﴿النَّمَلٌ: ٤٢ - ٤١﴾ . وقد وصفت إجابتها (أنه هو) بأنها في غاية الذكاء والحرزم ^(١) أما مثال العرش بين يدي سليمان بهذه السرعة مستقراً دون أن يتعرض لأذى فقد زاده شكرأ الله - عزوجل- وتواضعأ بين يديه.

﴿فَلَمَّا رَأَاهُ مُسْتَقِرًا عَنْهُ، قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَلْتُو فِي أَشْكُورَامْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي عَنِّي كَرِيمٌ﴾ ﴿النَّمَلٌ: ٤٠﴾ .

و بعد اجتياز ملقة سباً الاختبار الأول - اختبار العرش اختار سليمان - عليه السلام- الصرح ليكون محطة الاختبار الثاني، لا بد أن سليمان - عليه السلام- كان على ثقة بأن هذا المكان لم تر ملقة سباً مثله في حياتها، فمهما يكن عندها من علم ومال فإنها لم تبلغ مبلغ النبي الله سليمان - عليه السلام- الذي دعا ربه بأن يهبه ملكا لا ينبغي لأحد من بعده وسخر له الجن والشياطين يعملون تحت أمره ﴿يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ تَحْرِيرٍ وَتَمْثِيلٍ وَجَفَانٍ كَلْجَوَابٍ وَقُدُورٍ رَاسِيَتٍ أَعْمَلُوا إَلَى دَأْوَدْ شَكَرٌ وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِي الشَّكُورُ﴾ ﴿سبا: ١٣﴾ . لقد قادت عظمة المكان ودقة صنعه ملقة سباً إلى الإسلام ؛ لأنها أيقنت أن ملك سليمان هذا ليس بسبب قوته ولا علمه ... إنها قدرة الله وعلمه سبحانه وتعالى ﴿قِيلَ لَهَا أَدْخُلِ الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حِسْبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقِيهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُمَرَّدٌ مِنْ قَوَافِرٍ قَالَتْ رَبِّي إِنِّي طَلَمْتُ نَفْسِي وَأَشَلَمْتُ مَعَ سَلِيمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿النَّمَلٌ: ٤٤﴾

(١) ابن كثير / تفسير القرآن / ج ٣ / ص ٣٥٢

علاقة الشخصية بالمكان

بــ المكان مساند / غير مساند للشخصية

يقدم المكان في بعض قصص القرآن الكريم أدوارا فاعلة ومؤثرة في سير الأحداث التي تتعرض لها الشخصيات. ويمكن ملاحظة العلاقة بين الشخصيات القصصية القرآنية وبعض الأماكن الطبيعية كالجبل والبحر التي كان لها ظهور ودور في أحداث القصة. إن بعضها استطاع أن يقدم للشخصية المساندة والدعم، وبعضها الآخر لم يقدم المساندة، بل في بعض القصص كقصة فرعون كان المكان فيه معادياً مهلكاً للشخصية.

فالبحر في قصة سيدنا موسى -عليه السلام- أدى دوراً إيجابياً معه في قصته منذ طفولته إلى لحظة غرق عدوه وانتصاره عليه فقد حمل البحر موسى وإن فسر البحر بأنه نيل مصر لكن لاتساعه أطلق عليه البحر - وهو رضيع ليقيه في مكان معاد ظاهرياً آمن باطنياً ألقاه بين يدي سافك دماء الأطفال والرجال - فرعون - الذي تربى موسى في قصره وكان هو الذي تصدى لظلمه وجبروته.

لقد ارتبط موسى -عليه السلام- بعلاقة حميمة مع البحر، فقد مدّ البحر يد العون مرة أخرى لموسى -عليه السلام-، وليس موسى وحده بل للمؤمنين معه، لقد تبع فرعون وجنوده موسى والذين آمنوا معه حتى أصبح البحر من أمامهم وفرعون وجنوده من ورائهم، فقال من مع موسى : "إنا لمدركون" ، لكن موسى الواثق بربه قال: "كلا إن معي ربى سيهدين" ، لقد هدأ ربه ليضرب بعصاه البحر فينفلق حتى يصبح كل فرق كالجبل العظيم. قال تعالى ﴿فَلَمَّا نَزَّلْنَا الْجَمَعَانِ قَالَ أَصْحَّبُ مُوسَى إِنَّا لَمْ نَدْرُكُنَ﴾ (٦١) ﴿قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِي رَبٌّ سَيِّدُنَا﴾ (٦٢) فَأَوْجَسَتَا إِلَى مُوعِّدِهِ أَخْضِرِيْبَ بِعَصَابَ الْبَحْرِ فَنَفَّقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَاظِرِ

الْعَظِيمِ (٦٣) (الشعراء ٦١: ٦٣) لقد ظن موسى -عليه السلام- أن الأمر انتهى بعبوره مع المؤمنين إلى الضفة الأخرى فأراد أن يضرب البحر بعصاه مرة أخرى ليغلقه ويعود كما كان .. لكن البحر لم

ينه دوره لقد أنجى بأمر الله المؤمنين دون قارب ولا سفينة وسيهلك الكافرين -فرعون وجنوده-، فجاء أمر الله لموسى أن يترك البحر على حاله ﴿ وَتَرُكُ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُنُدٌ مُغْرَقُونَ ﴾ (الدخان: ٢٤) .

والسماء كذلك الأمر في كثير من القصص القرآني كانت الغطاء الذي يؤمن الحماية للمؤمنين ويحمل العذاب للكافرين.

ففي قصة نوح -عليه السلام- أصبحت السماء أبواباً مشرعة تتهمر منها المياه لتهلك الكافرين ﴿ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ ۖ إِلَّا مَنْ هِيَ بِرِّبِّهِ مُنْهِيٌّ ﴾ (القمر: ١١) ، وحين أهلك الكافرون عادت السماء لتكون أمراً

على المؤمنين قال تعالى: ﴿ وَقَيلَ يَأْرُضُ آبَائِي مَاءً كَمَا نَسَمَةً أَقْلَعَيْ ۚ وَغَيْضَ الْمَاءِ وَقُضِيَّ الْأَمْرُ ۚ وَأَسْتَوَتْ عَلَى الْجَوْدِيِّ ۖ وَقَيلَ بَعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ (هود: ٤٤) .

أما قوم هود فقد ظنوا أن السماء تحمل لهم الخير فقالوا حينما رأوا تلبد الغيوم في السماء :

﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقِيلًا أُوذِيَّهُمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُطْرَأٌ بَلْ هُوَ مَا أَسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (الأحقاف: ٢٤) ، لكن الحقيقة كانت تدميراً وعداً لهم فلم يكن المكان عند حسن ظنهم بل كان اليد التي أزلت العذاب بهم.

وإن كانت السماء قد جلبت الريح المدمرة لقوم هود، فقد أمطرت السماء مطر السوء على قوم لوط ، لقد أمطروا حجارة فيها عذاب أليم قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَاجَعْنَا عَنْلَاهُمْ سَاقِهَا وَأَنْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِيلٍ مَنْصُوبٍ ﴾ (٨١) مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَيْلَكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بَعِيدٌ ﴾ (٨٣) (هود: ٨٢ - ٨٣)

أما السماء مع إبراهيم -عليه السلام- فقد كانت مكاناً مسانداً لإقامة الحجة العقلية على قومه المكذبين الذين كانوا يعبدون الأوثان ، فهذه السماء ذات القمر والشمس والنجوم وكل ما فيها ما هي

إلا أجرام من خلق الله - عزوجل- فإن كانت عظيمة لكونها ليست بعظم الخالق فهي تغيب وتتأفل لكنَّ الله لا يغيب حي قيوم لا تأخذه سنة ولا نوم.

وإذا ما جئنا إلى الجبل الذي هو رمز للمنعة والحماية والتحصين والقوة وجدها قد تخلى عن هذه الصفات في لحظة ما وفق علاقته مع الشخصية التي ظهر معها.

ففي قصة نوح -عليه السلام- وفي مشهد الغرق الأخير ظنَّ ابن نوح أنَّ الجبل سيؤمن له الحماية فقال: ﴿قَالَ سَائِرٌ إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُ مِنْ الْمَاءِ﴾ (هود: ٤٣)، لكنَّ الجبل لم يؤمن له ما

أراد

؛ لأنَّه ﴿قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ (هود: ٤) لقد تعطلت قدرة الجبل ،فغدا سلبياً محايدها لم يقدم أي مساندة تأمل بها ابن نوح.

وكذلك الحال مع قوم ثمود الذين تحصنوا بالجبل وظنوا أنَّهم آمنون فيها ﴿وَكَانُوا يَنْحُثُونَ مِنَ

الْجَبَالِ مُبْرَأَةً مَأْمَنَةً﴾ (الحجر: ٨٢) لكنَّ هذا الشموخ وهذه القوة لم تصمد أمام قوة الله -

عزوجل- ﴿وَأَخْذَنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا أَصْحِحَّهُمْ فَأَضَبَّهُوا فِي دِيرِهِمْ جَنِشِيمَ﴾ (٧) (هود: ٦٧) .

إنَّ تصوير القرآن الكريم لبيوت قوم ثمود المنحوتة في الجبال ،تأكيد لعلاقة الشخصية الوطيدة بالمكان فهو مكان منيع جعل الشخصية التي تسكن فيه تشعر بالقوة والعظمة لكنها سرعان ما خارت قواها بعد أن وقف المكان بداء مع الشخصية التي تسكن فيه فتخلَّى عنها في أصعب لحظة في حياتها وهي لحظة نزول العذاب فلم يقدِّم لها أدنى حماية يمكن أن ترجوها.

ج- أماكن السكن : (بيوت، قرى، مدن، أرض، جنة...) وعلاقتها بالشخصية

يتمثل البيت أو السكن مكان الراحة والاستقرار والأمان والدفء، لذا فلا بد للإنسان من مأوى يحتضنه، يركن فيه بعد عبء نهار طويل، لكن إلى أي مدى منح المسكن الشخصية هذه الصفات في قصص القرآن الكريم؟

لقد مثلت أماكن السكن في معظم القصص القرآني في علاقتها مع الشخصية جانبين، جانب النعيم والرخاء، وجانب العذاب والدمار.

فربما أنّ أقواماً كثيرون يعيشون في دعة وغنى وترف في ديارهم ، وعظمة في نحت بيوتهم في الجبال قوة وإحكاماً ، لكن تحول هذا الاستغناء إلى تكبر وكفر وإفساد، فسلوك الشخصية في المكان لم يكن مسالماً .

يُونَاقْ فَرِهِينَ ﴿١٦٩﴾ (الشعراء: ١٤٦ - ١٤٩).

فـكـانـتـ النـتـيـجـةـ أـنـ أـصـبـحـتـ هـذـهـ الـقـرـىـ وـالـبـيـوـتـ خـاـوـيـةـ عـلـىـ عـرـوـشـهـاـ لـأـ حـيـاـةـ فـيـهـاـ ﴿وَأَخْذَ اللَّهَيْرَ﴾
ظـلـمـوـاـ الصـيـحـةـ فـأـصـبـحـوـاـ فـيـ دـيـنـهـمـ جـاهـيـمـينـ ﴿٦٧﴾ كـانـ لـمـ يـغـنـوـفـهـاـ أـلـاـ إـنـ تـمـوـدـأـ كـفـرـوـرـهـمـ الـأـبـعـدـ إـلـىـ الشـمـوـدـ ﴿٦٨﴾
(هـوـدـ:ـ ٦٧ـ -ـ ٦٨ـ)ـ ،ـ وـهـكـذـاـ يـتـحـولـ المـكـانـ الـذـيـ هوـ مـصـدـرـ دـعـةـ وـغـنـىـ وـحـمـاـيـةـ وـأـمـنـ لـلـشـخـصـيـةـ
إـلـىـ مـكـانـ عـذـابـ وـدـمـارـ؛ـ لـأـنـهـمـ اـسـتـكـبـرـوـاـ عـلـىـ خـالـقـ الـمـكـانـ الـذـيـ مـكـنـهـمـ فـيـهـ وـسـخـرـهـ لـهـمـ فـكـانـ الـجـزـاءـ
مـنـ جـنـسـ الـعـلـمـ بـأـنـ يـفـقـدـ هـذـاـ الـمـكـانـ أـسـبـابـ الـمـنـعـةـ وـالـحـمـاـيـةـ الـتـيـ جـعـلـهـاـ الـخـالـقـ فـيـهـ لـتـخـرـ عـطـتهـ
أـمـامـ قـدـرـةـ اللهـ عـزـ وـجـلـ .ـ ﴿وَكـافـرـوـاـ يـتـحـمـلـونـ مـنـ لـيـلـبـالـ مـوـتـأـءـ أـمـيـنـيـنـ﴾ ﴿٨١﴾ فـأـخـذـتـهـمـ الـصـيـحـةـ مـضـبـيـحـيـنـ ﴿٨٢﴾ فـمـاـ أـغـنـيـهـمـ مـاـ كـانـوـاـ يـكـسـبـوـنـ ﴿٨٣﴾ (ـ الـحـجـرـ:ـ ٨٢ـ -ـ ٨٤ـ)ـ .ـ

وقد تكون علاقة الشخصية بالمكان علاقة سيطرة وامتلاك فقوم لوطن أرادوا إخراج لوطن من قريتهم التي هي قريته لكنه فقد أهلية بقائه فيها لطهارته وإيمانه ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُنَا النَّحْشَةَ مَاسَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ بَرِزَ الْعَالَمِينَ ﴾٨٠ ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُنَّ أَرْجَالَ شَهْوَةٍ مِنْ دُونِ الْأَنْسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ ﴾٨١
﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمٍ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرُجُوهُمْ مِنْ قَرِيرَتِهِمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَنْظَهُرُونَ ﴾٨٢ .(الأعراف: ٨٠ - ٨٢)

إن التهديد بفقد المكان، وسيلة ضغط اتخذتها بعض الشخصيات لتخويف الأطراف المقابلة، فارتبط الإنسان بالمكان الذي يعيش فيه ارتباط فطري بحيث يصبح التهديد بالإبعاد عن المكان من أقسى أساليب العقوبة، لذا نجد هذه الفكرة قد تكررت في بعض قصص القرآن الكريم، كقصة لوط وشعيب.

ويمكن أن تتحول علاقة الشخصية من الشعور بامتلاك المكان إلى الشعور بالسلط وبالسيطرة وبسط النفوذ على المكان وأهله، فهذا فرعون الذي قال عز وجل عنه: ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنَ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَقُولُ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَرُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبَصِّرُونَ﴾ (الزخرف: ٥١) لقد امتلاء فرعون بشعور السيطرة وبسط النفوذ بعد امتلاكه المكان حتى قال: ﴿فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى﴾ (النازعات: ٢٤) ، إنّ شعوره بالقدرة على تغيير المكان وأهله ومنهم أو منعهم جعله ينصّب نفسه إليها، ويعبد بنى إسرائيل ويجعلهم تحت سخرته فكانت دعوة موسى وهارون -عليهما السلام - إلى فرعون لتخلصهم من العذاب والسجن الكبير الذي يعيشون فيه ﴿فَأَنِّي هُوَ فَقُولًا لَّا إِلَهَ إِلَّا نَحْنُ﴾ (طه: ٤٧) . إنّ علو فرعون في مصر وإفساده فيها عبر عنه القرآن الكريم بأنه علا في الأرض مع أنه

فرعون على مصر وحسب ليوحى هذا التعبير باتساع علو فرعون ﴿إِنَّ قَرْعَوْنَ عَلَىٰ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ

أَهْلَهَا شَيْئًا يَسْتَصْعِفُ طَالِيفَةً مِنْهُمْ يَذْبِحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَخِيءُ نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴾٤﴿ (القصص:

٤) لقد دفع شعور فرعون بامتلاك المكان إلى استعباد من فيه وحبسهم حتى غدا هذا المكان ضيقا علىبني إسرائيل فكانت دعوة موسى -عليه السلام -دعوة للبحث عن الحرية والخلاص بدءا من المكان الذي يحيا الإنسان .

*علاقة المكان بالشخصية

د-المكان فتنـة للشخصية

يتأثر سلوك الشخصية بالمستوى الاجتماعي الذي تحيـا فيه ،ويعبـر المكان الذي تربط به الشخصية إلى حد كبير عن مستواها الاجتماعي والاقتصادي ، وتعرض بعض قصص القرآن الكريم جانبا من تأثير المكان الغـني في سلوك الشخصية ،وما هو السلوك الصحيح الذي ينبغي أن تمارسه الشخصية إذا رزقها الله -عز جـلـ- الغـنى خاصة للمـكان ، وخير مثال على ذلك قصتا صاحبـ الجنـتين وأصحابـ الجـنةـ، اللـثـانـ تـكـشـفـانـ عنـ قـدـرـةـ المـكـانـ عـلـىـ التـأـثـيرـ فـيـ الشـخـصـيـةـ وـفـقـ مدـىـ اـسـتـجـابـةـ الشـخـصـيـةـ لـتـأـثـيرـاتـ، فـقـصـةـ صـاحـبـ الجنـتينـ يـتـحـولـ المـكـانـ فـيـهاـ إـلـىـ مـكـانـ فـتـنـةـ للـشـخـصـيـةـ فـتـنـةـ الـمـالـ وـالـغـنىـ، فـلـقـدـ أـصـابـ صـاحـبـ الجنـتينـ الـكـبـرـ وـالـغـرـورـ ﴿ وَكَانَ لَهُ ثَرَفَقَأَ لِصَحِّهِ، وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَّا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعْزَزُ نَفَرًا ﴾ ﴿٣٤﴾ (الكهف: ٣٤) بل تحول هذا الاغترار بالمال

والتفاخر على الآخرين إلى اعتقاد وسلوك ﴿ وَدَخَلَ حَتَّمَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ، قَالَ مَا أَظْنَ أَنْ تَبِدَ هَذِهِهِ أَبْدَأَ ﴾ ﴿٣٥﴾ (الكهف: ٣٥ - ٣٦) لقد

كفرـ الرـجـلـ وـأنـكـرـ السـاعـةـ وـظـنـ أـنـهـ يـمـلـكـ مـكـانـ لاـ يـفـنـىـ!

وهنا كانت الصدمة التي جعلته يقلب كفيه دلالة الخسران والخيبة، لقد أرشده صاحبه لما

ينبغي أن يعتقد ويقوله لامتلاكه مثل هذا المكان ﴿وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِن تَرَنِ أَنَا أَقْلَى مِنْكَ مَالًا وَلَدًا﴾ (الكهف: ٣٩) لكن الكبر والجحود أعمياه فكانت النتيجة ﴿وَأَحِيطَ بِشَرِيفِهِ فَأَصَبَّ يَقْلِبَ كَفَيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَّةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا إِنِّي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّيْهِ أَحَدًا﴾ (٤٤) (الكهف: ٤٢) لقد تغير المكان (خاوية على عروشها) فتغير اعتقاد الشخصية وسلوكها (يا ليتني لم أشرك رب بي أحدا).

وفي قصة أصحاب الجنة أراد أصحابها أن يحرموا المساكين من أي رزق وثمر فيها،

وتحولت نيتهم إلى عزيمة وقسم ﴿إِنَّا بِنَوْتَهُمْ كَمَا بَنَوْنَا أَخْبَرَ لِجَنَّةَ إِذْ أَسْمَوْا بِنَمَّهَا مُتَصِّلِّينَ﴾ (١٧) (القلم: ١٧).
لقد فتنهم المكان واستولى عليهم البخل فكانت النتيجة ﴿مَطَافَ عَلَيْهَا طَافٍ مِّنْ زَيْدٍ وَهُنَّ تَأْبِيُونَ﴾ (١١) فاصبحت
كالصريح ﴿كَالصَّرِيم﴾ (القلم: ١٩ - ٢٠).

ومثل ما حصل من ندم وحسرة عند صاحب الجنتين بعد أن رأى جنته خاوية على عروشها، ندم أصحاب الجنة وعلموا أنهم هم الذين حرموا حقيقة ثمرهم وجنتهم، بل حرموا رضا الله عليهم أيضا، فعادوا لأنفسهم واستغفروا الله مالك الملك الذي يعطي ويعن ويغزو ويدعو أن يبدلهم ربهم مكانا خيرا من مكانهم الذي هلك ﴿فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَصَاحْلُونَ﴾ (٢٧) ﴿بَلْ نَحْنُ مُخْرُومُونَ﴾ (٢٨) ﴿فَالْأَوْسَطُمُ الْأَقْلَى كُلُّوْلَا تُسْبِحُونَ﴾ (٢٩) ﴿فَأَلْوَاسْبَحْنَ رَبِّنَا إِنَّا كُلُّا ظَالِمِينَ﴾ (٣٠) ﴿فَاقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلَمَّوْنَ﴾ (٣١) ﴿فَالْأُولَوْنَ إِنَّا كُلُّا طَاغِينَ﴾ (٣٢) ﴿عَسَى رَبُّنَا أَنْ يُبَدِّلَنَا خَيْرَ مِنْهَا إِنَّا إِلَّا رَبَّنَارَغْبُونَ﴾ (٣٣) (القلم: ٢٦ - ٣٢).

علاقة المكان بالشخصية

هـ - المكان عقوبة(سجن) للشخصية

يظلّ المكان مرغوباً عند الشخصية ما دام يعطيها حقوقها ويؤمن لها الحرية والحماية التي تصبو لها ، و بتخلّي المكان عن هذه الصفات فإنّ الشخصية بدورها ستتخلّى عن المكان وتتحول العلاقة بين المكان والشخصية إلى علاقة كراهية وعداء .

إنّ أدنى الحقوق التي يمكن أن ترجوها الشخصية من المكان هي حرية الحركة والانتقال ، وبسلب هذا الحق يكون المكان قيداً للشخصية تشعر الشخصية إزاءه بداء ونفور .

فحركة الإنسان في المكان هي دلالة التواصل بينهما ، والجسد هو الذي يقوم بها ، وبمقدار حركة الإنسان تتحدد حريته ، ولهذا يظل الإنسان في صراع وعراك مع المكان ، هو يريد المزيد من العمل ليؤكد حريته ، والمكان لمحدوبيته يضع القيود أمام حركة الإنسان ، وتكون النتيجة في بعض الحالات لصالح المكان فيتراجع الإنسان ويعرف بضعفه ، وأحياناً يتغلب الإنسان على المكان فيفرض وجوده عليه ، وفي هذا الصراع يكون لشعور الإنسان بالمكان الدور الكبير في تحديد هذا الصراع وتوجيهه وحسمه ، فكلما شعر الإنسان بالاتساع شعر بالحرية والقدرة على التحرك والعمل والانطلاق ، وكلما شعر بالضيق والازدحام شعر بالعجز والضعف وعدم القدرة على الحركة^(١) .

" إنّ الحرية هي التي تهب الإنسان القدرة على تشكيل المكان وإقامة معماريته ، واستلاط الحرية هو الذي يعطي المكان القدرة على إعادة صياغة شخصية الآخر ، وبناء معماريته من جديد"^(٢) .

لكن إلى أي مدى ينطبق الرأي السابق على الشخصية ، فهل استلاط الحرية في المكان يعيد صياغة الشخصية؟ وهل كلّ الشخصيات تكون استجابتها واحدة لهذا الاستلاط؟ هذا ما سأحاول الإجابة عنه في قصة يوسف وموسى ويونس عليهم السلام .

(١) نبيه القاسم / الفن الروائي / ص ٥٤

(٢) شاكر النابلي / جماليات المكان في الرواية العربية / ص ٣١٨

* قصة يوسف /الجب

قد يفرض على الشخصية مكان لا قدرة لها على احتمال قسوته فتخرّقواها فيه، وتعلن استسلامها أمام شدته، وقد يتحول ذلك المكان الذي تُجبر عليه الشخصية محطة تحول في حياتها، ونقطة انطلاق نحو أفق أوسع .

وهذا ما نجده في قصة يوسف -عليه السلام- ، فقد اختار أخوته الجب مكاناً يلقونه فيه بدلاً عن قتلهم، وهم بهذا الفعل يتخلصون من يوسف الذي استثار بمحبة أبيهم ، دون أن يشعروا بعذاب الضمير في حال قتلهم.

لقد فكروا بالمكان الذي يبعدون يوسف فيه عن أبيهم و ينفونه فيه بحيث لا يمكنه تخلص نفسه منه ، إله السجن الذي لا كالسجون بل أكثر وحشة وعزلة وخوفاً وألمًا...

هم يعلمون أن فعلهم هذا ينافي الصلاح لذا حاولوا تخدير قلوبهم و عقولهم فقالوا : "وتكونوا من بعده قوماً صالحين" ، يريدون قتل يوسف وهم ينونون التوبة بعد قتلهم !! لكن صوتاً منهم ما زال يحمل بذرة خير فقال "لا تقتلوا يوسف" إننا لنكاد نشعر بالنقفات الجميع نحوه يرمونهم بنظرات الغضب لكنه سارع ليرضي حقدم الذي لم يستطع مجابته ﴿ قَالَ فَأَيْلُ قَاتِلُهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَالْقُوَّافُ

غَيَّبَتِ الْجُنُّ يَلْقِطُهُ بَعْضُ الْسَّيَّارَةِ إِنْ كَنْثَمْ فَتَعْلَيْنَ ١٠ (يوسف: ١٠) . إنها ظلمات البئر التي ستختفي

يوسف في جنباتها وستواريه عن أنظار أبيهم وأنظارهم فيخلو لهم وجه أبيهم بعد أن يلقطه بعض السيارة ويدهبو به بعيداً عنهم .. لم يقتلوه جسدياً بل قتلوا محبة أخيهم من قلوبهم .. قتلوه حينما رموه في قعر البئر ليلاً في مصيره المجهول كظلمات الجب ، وخلفوه وحيداً وأبعدوه عن أبيه ، قتلوه.. حينما قتلوا الأخوة والرحمة من قلوبهم فكانت قلوبهم أشدّ ظلمة من ظلمات الجب.

وهكذا مضوا لتنفيذ مكidyهم دونما تأخّر فراودوا أباهم عنه وأخذوه معهم وهمّوا بوضعه في الجب بالإجماع فأوحى الله ليوسف وأوقع في قلبه أنه سينجو بل سيكون في موقف يذكر أخوته

بفعلتهم المخزية هذه ﴿ كَلَّمَا ذَهَبُوا إِلَيْهِ وَاجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيَّبَتِ الْجُنُّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتَنْتَهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ

لَا يَشْرُونَ ﴿١٥﴾ (يوسف: ١٥) لم نر أو نسمع استجاء من يوسف لأخوه حتى يكفوا عن رميه

في البئر لقد رأى يوسف التصميم والعزم في عيونهم فائز الصمت وانتظر الحين الذي سيخبرهم فيه بما فعلوا معه في ماضيهم.

لقد أعطى الجب ليوسف درساً في الصبر والتحمل بل أعطاه أكثر من ذلك، لقد كانت ظلمات البئر هي الطريق الذي أنار ليوسف حياة جديدة ،حياة مؤداها التمكين في الأرض، لقد كان البئر بوابة لأرض جديدة مصر التي أعطته الفرصة في النهاية ليواجه أخيه في فعلتهم التي لم ينسها يوماً ﴿وَجَاءَتْ سِيَّارَةٌ فَارْسَلُوا إِلَيْهِمْ فَادْلَى دُلْوَهُ قَالَ يَبْشِرَنِي هَذَا غَلَمٌ وَاسْرُوهُ بِضَعَةً وَاللهُ عَلَيْهِ عِلْمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾١٦﴾ وَشَرَوْهُ شَمَنٍ بِخِسْدَرَهُمْ مَعْدُودَهُ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الْزَّهَدِينَ ﴾١٧﴾ وَقَالَ الَّذِي أَشْرَنَهُ مِنْ قِصْرٍ لِأَمْرَأَيْهِ أَكْرِمِي مَثْوَهُ عَسَى أَنْ يَنْقَعَنَا أَوْ نَنْقَذَهُ وَلَدًا وَكَذَلِكَ مَكَنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلَعِلَّهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللهُ عَالِمٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾١٨﴾ (يوسف: ١٩ - ٢١) لقد

كان البئر على ظلمته وعمق قعره أكثر أماناً من أيدي أخيه، فقد نقله إلى بيت كريم بيت العزيز الذي أكرم مثواه بل وفكر في اتخاذه ولدًا له.

وهكذا ظهر الجب في قصة سيدنا يوسف رمزاً للألم والخوف والظلم ،ومع ذلك حمل في طياته دعوة للأمل الذي يجب ألا يفقده الإنسان مهما كان المكان الذي هو فيه مظلماً، ومهما تعرض من محن فقد تكون هذه المحن دروس تقوية يتعلمها الإنسان في حياته ليتسلمه قيادة أمور عظيمة بعد ذلك!

*يوسف - عليه السلام- في السجن

ويتابع السجن الدور الذي بدأه الجب ويسير معه في سلسلة الابتلاءات التي تتعرض لها الشخصية فتثبت وتثبت جداره في احتمال المسؤولية وأي مسؤولية أعظم من أمانة الرسالة والدعوة إلى الله عزّ جلّ.

لقد قدم الله - عزوجلـ نموذجاً فريداً في التعامل مع السجن في يوسف - عليه السلام- وضع في مأزق شديد وآخيار صعب اختيار بين الفاحشة والسجن فاختار السجن عليه السلام.

لقد سجن يوسف الفاحشة قبل أن يسجن نفسه في السجن، سجن على الرغم من الدلائل الواضحة والقاطعة على براءته.

فكان هذا المكان - السجن - ليوسف أصعب مكان يوضع فيه، ليس لمجرد انغلاق جدران هذا المكان عليه؛ بل لأنّه اتهم ظلماً بأنه راود سيدته التي أحسنت مثواه هي و سيده في بيتهما .. هو سجن الفاحشة بقبوله دخول السجن وهم سجنوا الفضيلة بإدخاله فيه.

لقد شكل السجن المحنّة الأخيرة في حياته - عليه السلام - فبعدها كتبت له السيادة والتمكين في الأرض. ولكن كيف عاش يوسف في السجن؟ هل كان السجن مقيداً ليوسف؟ هل انطوى يوسف على نفسه داخل جدران السجن؟ هل استسلم وضعف بعد دخوله السجن؟

وتنقلنا القصة القرآنية إلى مشهد يوسف - عليه السلام- وهو داخل السجن لم يسدل الستار عن هذه المرحلة بل قدمت لنا لنرى كيف عاش يوسف في السجن وكيف كانت علاقته بالمكان وبمن فيه.

﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَّانٌ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْأَخْرُ إِنِّي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خَبْرًا نَّأَلُ الْطَّيْرَ ﴾

﴿ مِنْهُ بَيْتَنَا إِنَّا وَيْلٌ لِمَنِ ارْتَدَكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ ﴿٢٦﴾ **﴿ قَالَ لَا يَأْتِي كُمَا طَاعَمْ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا بَأْتَكُمَا قَبْلَ أَنْ يَأْتِي كُمَا ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَفِرُونَ ﴾** ﴿٢٧﴾ **﴿ وَأَتَبْعَثُ مِلَةَ مَابَاءَتِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ**

﴿ وَيَقُولُ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ وَذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ ﴿٢٨﴾

يَصْحِحُ السِّجْنَ أَزِيَابٌ مُتَفَرِّقُونَ حَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَحْدُ الْقَهَّارُ ﴿٢٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُوْنِهِ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمِيتُهُمْ أَنْتُمْ وَإِبَاءُوكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَنٍ إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ أَمْرٌ أَلَا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَاهُ ذَلِكَ الَّذِينَ أَقْتَلُمْ وَلَكُنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿يوسف: ٣٦ - ٤٠﴾

لقد دخل السجن مع يوسف فتيان آخران فكانا رفقاء في حبسه وتوسما فيه العلم والإحسان فطلبوا منه أن يفسر لهم الرؤيا الخاصة بكل منهما ، وهنا يفاجئنا عليه السلام - بدعوته للسجنين إلى الإيمان بالله وحده لا شريك له .. لقد قيد السجن حركة يوسف لكنه لم يقيد فكره .. ففكره حر لا يخضع لجدران ولا لأوثان.. لم يقيد السجن لسانه عن الدعوة إلى الله بجد وإخلاص.

وهكذا يتحول السجن الذي أعد أصلا لعزل الإنسان وشل قدرته الخلاقة إلى فضاء منتج ومحفز ^(١).

إن يوسف -عليه السلام- أحسن استثمار هذا الموقف داخل السجن فهم شركاء في زنزانة واحدة وفي محبة واحدة فكرر قوله (يا صاحبي السجن) ليشعرهم بوحدة الابتلاء الذي يمررون فيه فيكون ذلك أدعي لاستجابتهم.

لقد حاورهم يوسف -عليه السلام- وبين لهم أن السجن الحقيقي هو سجن الفكر والمعتقد بأن سجن الإنسان نفسه باتباع هواه وهو آباءه.

لقد قهر يوسف -عليه السلام- جدران الشرك التي أحاطت بالعقل واستطاع أن يفعل ما لا يفعله الطلقاء.

وبعد عرضه لبضاعته أول لها رؤياهما لكنه ظل يذكرهما بأن صحبتهم هي صحبة السجن..

السجن مكان العقوبة والقهر مكان الظلم ليوسف وتشويه السمعة **يَصْحِحُ السِّجْنَ أَمَّا أَحَدُ كُمَافِسِقِي**

رَبِّهِ خَمْرًا وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُضَلُّ فَتَأْكُلُ الظَّرِيرُ مِنْ رَأْسِهِ قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَشَفِّيَانِ ﴿٤١﴾ وَقَالَ اللَّهُ ذَنَّ أَنَّهُ

(١) حسن بحراوي / بينة الشكل الروائي / ص ٦٤

تَاجِ مِنْهُمَا أَذْكُرْتُ فِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنْسَهُهُ الشَّيْطَانُ ذَكَرَ رَبِّهِ، فَلَمَّا بَيْتَ فِي السِّجْنِ بَضْعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾ (يوسف: ٤٢).

ثم أمضى يوسف - عليه السلام - في السجن بضع سنين حتى جاء أمر الملك بإخراجه بعد تأويل رؤياه، لكنه - عليه السلام - أبى الخروج من السجن ولم يحفل بهذه الفرصة التي جاءته؛ لأنَّه على الرغم من كرهه للسجن ورغبته في الخلاص منه بعد هذه المدة الطويلة التي قضتها في السجن ظلماً لكتبه حریص على لا يخرج من السجن كما دخل إليه متهمًا بجريمة الفاحشة ، فاثر البقاء حتى يتبيّن الملك حقيقة الأمر وتثبت براءته. يقول صاحب الكشاف: "إِنَّمَا تَأْتَى يُوسُفُ فِي إِجَابَةِ الْمَلِكِ، وَقَدْ سُوِّلَ النَّسُوهُ لِيُظْهِرَ بِرَاءَةَ سَاحِتِهِ عَمَّا قَرِفَ بِهِ وَسُجِنَ فِيهِ؛ لِئَلَّا يَتَسَلَّقَ بِهِ الْحَاسِدُونَ إِلَى تَقْبِيحِ أَمْرِهِ عَنْهُ، وَيَجْعَلُوهُ سَلَماً لَحْظَةً مِنْزِلَتِهِ لِدِيهِ، وَلِئَلَّا يَقُولُوا مَا خَلَدَ فِي السِّجْنِ سَبْعَ سِنِينَ إِلَّا لِأَمْرِ عَظِيمٍ وَجَرْمٍ كَبِيرٍ حَقَّ بِهِ أَنْ يَسْجُنَ وَيَعْذَبَ وَيَسْتَكْفَ شَرَّهُ" ^(١) ﴿٥٠﴾ وَقَالَ الْمَلِكُ أَتَوْفِي بِهِ، فَلَمَّا

جَاءَهُ أَلْرَسُولُ قَالَ أَتَرْجِعُ إِلَى رَبِّكَ فَسَأَلَهُ مَا بَالَ النِّسْوَةِ الَّتِي قَطَعْنَ أَيْدِيهِنَّ إِنَّ رَبِّي يَكْيِهِنَ عَلَيْمٌ ^(١) (يوسف: ٥٠)

وثبتت براءة يوسف - عليه السلام - ﴿٥١﴾ قَالَ مَا خَطَبُكَ إِذْ رَوَدْتِنَّ يُوسُفَ عَنْ نَقْسِيِّهِ، قُلْ حَسْنَ اللَّهُ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قَالَتِ امْرَأُتُ الْعَزِيزِ الْقَنْ حَسَّصَ الْحَقُّ أَنَّارَ رَوْدَتَهُ عَنْ نَقْسِيِّهِ، وَإِنَّمَا لِمَنِ الصَّدِيقِينَ ﴿٥٢﴾ ذَلِكَ لِعِلْمٍ أَنِّي لَمْ أَخْتُمْ بِالْغَيْبِ وَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهِيدِي كَيْدَ الْمُغَايِبِينَ ^(١) (يوسف: ٥٢) وخرج يوسف - عليه السلام - من السجن ليسلِّمَ خزائن الأرض ويكون هذا الحادث سبباً في تمكينه في الأرض والتقائه بأخوه وذكرهم بما فعلوه به وهو فتى صغير لا حول له ولا قوة.

(١) الكشاف / ج ٢ / ص ٤٥٠

* مصر بوصفها سجناً لبني إسرائيل *

مهما كان المكان واسعاً فإنه سيغدو في عين ساكنه ضيقاً إذا حدّ من حركته أو تحكم في أفعاله، فالمكان يتسع ويضيق وفق علاقة الشخصية به.

و "تظلّ حرية حركة الإنسان داخل المكان هي أبسط صور الحرية وأكثرها ضرورة في الوقت ذاته، ولذلك كان تقييد هذه الحركة بالسجن أو تحديد الإقامة هو أكثر أشكال القهر قسوة، وهكذا يمكن القول إنّ العلاقة بين الإنسان والمكان – من هذا المنحني – تظهر بوصفها علاقة جدلية بين المكان والحرية، وتصبح الحرية في هذا المضمار هي مجموعة الأفعال التي يستطيع الإنسان أن يقوم بها دون أن يصادم بحواجز أو عقبات أي يقوى ناتجة عن الوسط الخارجي، لا يقدر على قهرها أو تجاوزها"^(١).

فقد يتحول المكان رغم اتساعه إلى سجن كبير؛ لأنّ الشخصية فقدت حريتها فيه بل في قصة بني إسرائيل مع فرعون حيث كان يمارس عليهم ما يمارس في السجون الحقيقية من امتحان وذلة وتعذيب وقتل وسفك دماء.

إنّ سيطرة المكان على الشخصية حولها إلى شخصية جبانة لا تقدر على المواجهة، فكان لابدّ من السعي نحو التخلص من ذلك المكان وهذا ما قام به موسى -عليه السلام-.

فخروج موسى -عليه السلام- مع بني إسرائيل من مصر كان خلاصاً لهم من الذلّ والعبودية، خلاصاً لهم من استبداد الحاكم الذي سلبهم حقوقهم في الحرية والحياة.^(٢)

لم يكن بمقدور بني إسرائيل مواجهة فرعون ليس لأنه حاكم مستبدّ وحسب بل لأنّهم لا يملكون القدرة على المواجهة فقد اعتادوا الجبن والذلّ . وسلوكهم عقب خروجهم من أرض مصر دليل على ترسّخ تلك الصفات فيهم ، فالعلة لم تعد بوجود فرعون أو عدمه بل العلة غدت في أنفسهم فنراهم يرفضون الدخول إلى الأرض المقدسة ؛ لأنّهم لا يملكون الشجاعة لمواجهة القوم الذين وصفوهم بأنّهم جبارون .

(١) مها عوض /المكان في الرواية الفلسطينية/ ص ٤٤ /نقلًا عن: بيوري لوتمان /مشكلة المكان الفني / ترجمة سيفا القاسم / ألفا / ع ٦/٩٨٦ ص ٨٢

(٢) نضال دويكات/ قصة موسى مع فرعون بين القرآن والتوراة/ ص ٤٠

*بطن الحوت

قد يكون المكان الذي نحيا فيه على الرغم من قسوته أفضل بكثير من أي مكان آخر لأن ما نقوم به في ذلك المكان عظيم، وهذا ما تقدمه قصة يونس -عليه السلام- الذي ضاق ذرعاً بالمكان الذي يحيا فيه بسبب تكذيب قومه له وشدة عنادهم، ففرّ منه وترك الدعوة فيه دون أمر من الله، وكانت النتيجة بطن الحوت، فبطن الحوت رمز للضيق وللظلمة وللأسر. فكيف تعاملت الشخصية -سيدنا يونس- مع ذلك المكان؟

لقد ارتبط اسم النبي يونس -عليه السلام- بالحوت الذي سجن فيه ﴿فَأَضْرِبْ لِمَكْرُ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ﴾

﴿الْحُوتُ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْطُومٌ ﴾٤٦﴿أَوْلَا أَنْ تَدْرِكَهُ نَعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَيْذَا الْعَرَّاهُ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴾٤٧﴿فَاجْبَهُهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾٤٨﴾

(القلم: ٤٨ - ٥٠) لقد نادى ربه -عليه السلام- وهو في ذلك المكان وهو في حالة نفسية صعبة يشعر بالضيق والغثيان والألم ، يستغفر ربه ويسبح بحمده كي يخرج من ذلك المكان الذي لا يمكن لبشر أن يتخيّل نفسه محبوساً فيه، فكان التسبيح هو مفتاح خروجه من مكان ضيق مظلم لا توجد فيه مقومات الحياة ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَيْحِينَ ﴾٤٩﴿لَلَّا يَتَبَدَّلُ إِلَى يَوْمِ يُبَعَّثُونَ ﴾٥٠﴾ (الصفات: ١٤٣ - ١٤٤)، لقد

وصف القرآن الكريم حال يونس -عليه السلام- قبل أن يلتقمه الحوت .. فقد فرّ من قومه غاضباً ولم

ينتظر أمر الله في ذلك فاستحق اللوم والعتاب من الله ﴿وَلَئِنْ يُؤْسَ لِمَنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾٥١﴿إِذْ أَبْقَى إِلَى الْفَلَكِ الْمَشْوُرِينَ ﴾٥٢﴾

﴿فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدَخَّنِينَ ﴾٥٣﴿فَالنَّقْمَةُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِمٌ ﴾٥٤﴾ (الصفات: ١٣٩ - ١٤٢) وقال تعالى ﴿

وَذَا الْأَنْوَنِ إِذْ ذَهَبَ مُغَصِّبًا فَلَمَّا أَنَّ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ ﴾٥٥﴾ (الأنبياء: ٨٧). وهكذا اجتمع ليونس -عليه السلام-

في ذلك المكان الضيق النفسي والمادي .. مكان مغلق مظلم بين أحشاء كائن آخر .. أي خوف وحزن شعر بهما يونس -عليه السلام- لقد نادى ربه من بين الظلمات ظلمة بطن الحوت وظلمة قعر البحر

وظلمة الليل وظلمة شعوره بالذنب ﴿فَنَادَىٰ فِي الظُّلْمَاتِ أَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَّكَ مُبْحَثَنَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ ^(٨٧ - ٨٨) (الأنبياء: ٨٧ - ٨٨) لقد استطاع هذا المكان (بطن الحوت) أن يجعل يonus يعيد ترتيب أموره فأدرك خطأه واستغفر وسبح ربه ورجع إليه تائباً منياً.

*علاقة المكان بالشخصية

و- المكان محل مفاجآت ومعجزات للشخصية

الحراب

لم يكن الحراب في القصة القرآنية موضع اتصال مع الخالق وحسب، بل كان مكاناً للمفاجآت والمعجزات التي لم تتوقعها الشخصيات.

وأول الشخصيات التي تربطها بالحراب هي مريم العذراء التي انعزلت في هذا المكان عن البشر، فكان يمثل الحراب لها مكان سكينة وأمان واتصال بالخالق - عزوجل -، مكان لا دنس فيه ولا خوف ،مكان كان يأتيها رزقها فيه دون حساب من عند الله - عزوجل - ﴿كُلَّمَا دَحَلَ عَلَيْهَا زَرْجِيَّا﴾

﴿الْمِرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا زَرْجِيًّا قَالَ يَمْرِئُمْ أَنَّ لَكَ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (آل عمران: ٣٧)

﴿عِمَرَانَ: ٣٧﴾ هي منذورة لهذا المكان لخدمته وعبادته فيه منذ أن كانت جنيناً في بطن أمها

﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمَرَانَ رَبِّي إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُهَرَّبًا فَنَقَبَّلَ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ أَسْيَعُ الْعَلِيُّمُ﴾ (٥٠) ﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّي إِنِّي

وَضَعَتْهَا أُنْثِي وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ اللَّهُ كَلَّا لَذِنْقًا وَلِيَ سَمِّيَتْهَا مَرِيمًا وَإِنِّي أُعِيدُهَا إِلَكَ وَذُرِّيَّتْهَا مِنَ الشَّيْطَنِ﴾

﴿الْأَرْجَيْرِ﴾ (٣٧) فَنَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقُبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا بَنَاتًا حَسَنًا وَكَلَّفَهَا زَرْجِيَّا﴾ (آل عمران: ٣٥ - ٣٧) لقد

كانت خدمة مريم للحراب مفارقة لما جرت عليه العادة ،فالذكور - عادة - هم من يقومون على خدمة أماكن العبادة لكن الله قبل مريم ووقي لأمها بنذرها ،وهكذا ارتبطت مريم بالحراب حتى قبل ولادتها.

وفي الحراب الذي هو بيت لعبادة الله وتحقق فيه أمن وسكينة مريم - عليها السلام - حدث ما يفاجئها ويختيفها وهو المكان الذي لا خوف فيه ولا اعتداء .. لقد شاهدت أمامها رجلاً سوياً، وهي وحدها في هذا المكان فتوجست خيفة منه واستعاذت بالله منه ... فبين لها أئمها رسول من ربها جاء ليهب لها بأمر الله غلاماً زكيّاً .. وهذا عاشت مريم - عليها السلام - في صراع؛ هي عذراء طاهرة

غير متزوجة عابدة الله لا تعصيه في حرام ... لكن قدرة الله - عزوجل- فوق الأسباب والقوانين

التي أفهَا البشر ﴿وَذَكْرُ فِي الْكِتَبِ مَوْرِمٌ إِذَا نَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرِقَيَا﴾ ﴿٢٦﴾ فَأَنْجَدَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا

فَأَرْسَلَنَا إِلَيْهَا رُوحًا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ ﴿٢٧﴾ قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا﴾ ﴿٢٨﴾ قَالَ إِنَّمَا أَنْذَرَ رَسُولُ رَبِّكَ

لِأَهْبَلِكَ غُلَمًا زَكِيًّا﴾ (مريم: ١٦ - ١٩). لقد "اصطفى الله مريم مرة بعد مرّة ، ففي المرة

الأولى كانت لعبادته في أول عمرها ، فشرّفتها وطهرّها من الوساوس والأكاذار والكفر والمعصية ومسيس الرجال والأفعال الذميمة ، وخصّتها بأنواع اللطف والهداية والعصمة ، وأسمعها كلام الملائكة شفاها ، وكفل لها رزقها وأمر معيشتها... وكان اختيارها واصطفاؤها في المرة الثانية لجلالتها وزهدها على نساء العالمين لولادة عيسى - عليه السلام -^(١)

أمّا زكريا - عليه السلام - فقد تأثر بمشاهدة الرزق عند مريم كلما دخل عليها المحراب فعلم أنّ الإخلاص لله - عزوجل- في الدعاء والعبادة هو سبيل الرزق مهمًا كان هذا الرزق صعباً

﴿كُلُّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا كَارِيًّا الْمِحَرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَمْرِمُمْ أَنَّ لَكَ هَذَا قَاتَتْهُ مُؤْمِنَةً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ يُغْنِي

حِسَابٍ﴾ (آل عمران: ٣٧) هنالك في ذلك المكان قام زكريا يدعو الله - عزوجل- ويتجرد

أمامه يكشف فقره وضعفه ومسكته وتضرره بين يديه ﴿كَمَا هِيَ عَصَمَتْ رَبِّكَ عَبْدَهُ

زَكَرِيَّا﴾ ﴿١﴾ إِذَا نَادَى رَبَّهُ نِدَاءَهُ حَقِيقَيَا﴾ ﴿٢﴾ قَالَ رَبِّي إِنِّي وَهَنَ الظُّلْمُ مِنِّي وَأَشْتَعَلَ الْرَّأْسُ سَكِينًا وَلَمْ أَكُنْ

يُذْعَلُ إِلَيْكَ رَبِّي شَقِيقًا﴾ ﴿٤﴾ وَإِنِّي خَفَتُ الْمَوْلَى مِنْ وَرَاءِي وَكَانَتْ أَمْرَأَيْ عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيَّا﴾ ﴿٥﴾ يَرِثُنِي

وَيَرِثُ مِنْ أَهْلِ يَعْقُوبَ وَلَجْعَلَهُ رَبِّي رَضِيًّا﴾ ﴿٦﴾ يَدْرَكَرِيًّا إِنَّا نَشَرَكَ بِغُلَمٍ أَسْمُهُ يَصِيَّ لَمْ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَيِّئًا

﴿(مريم: ١ - ٧)

لقد مثل المحراب للشخصية نقطة اتصال روحي ، وصفاء نفسيا ، ومحلاً للمعجزات

(١) فخر الرازي / التفسير الكبير / ج ٨ / ص ٤٣

ز- المكان مأوى للشخصية

١- الكهف

ظهر الكهف في القصة القرآنية رمزاً للحصن الذي يلجأ إليه الإنسان بعد طول عناء ليجد فيه الراحة والأمان والسلام .

إنَّ أول ما نلاحظه في علاقة الشخصية (الفتية) بالمكان هو ارتباط اسمهم فيه فأصبح يستدل على قصتهم باسم (أصحاب الكهف) .

لقد مثل الكهف لأولئك الفتية مأوى من الظلم والكفر ولم يجدوا مكاناً يلوذون إليه فراراً بدينهم سوى هذا الكهف، لقد قدم لهم الكهف أكثر مما تصوروا لقد خلُّ ذكرهم وجعلهم آية للعالمين.

أحيط الفتية الفارون بدينهما في ذلك الكهف برحمة واسعة من الله ﷺ **فَأَوْيَ إِلَى الْكَهْفِ يَنْشِرُ لَكُمْ زِيَّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَهْبِطُ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرْفَقًا** (١٦) (الكهف: ١٦)

و اكتسب هذا الكهف جمالية خاصة بفار الفتية إليه فأصبحوا يعرفون من خلاله ويعرف من خاللهم (لبثوا في كهفهم).

ولم يغرس الفتية إلى مكان آخر أو مدينة أخرى فهم لبساطتهم اختاروا الكهف فكان أكثر حماية من قصر لو التجأوا فيه.

إنَّ فرار الفتية لم يكن إلى بلد آخر فيه متسع للحياة بل إلى كهف ضيق في جبل في صحراء وليس به مقوم من مقومات الحياة ... لذلك قال بعدها(ينشر لكم) فالضيق يقابل البسط والاسعة "لقد قالوا هذه الكلمة وهم واثقون في رحمة الله معتقدون أن الذي هاجروا إليه لن يسلّمهم ولن يخذلهم ، وسوف يوسع عليهم برحمته هذا الضيق وقد وسعه الله عليهم حين أنامهم ، ألا ترى النائم يربع في الدنيا هنا وهناك لا تتحده حدود" (١)

(١) تفسير الشعراوي/ج ١٤ / ص ٨٨٥٦

٢ قصة يوسف / بيت العزيز

إن جمالية المكان في القصة القرآنية تكمن في انسجامه مع عناصر القصة، ومرورته مع الأحداث فالمكان لم يكن مجرد حيز ضمّ الحدث وتحركت فيه الشخصيات، بل كان المكان فاعلاً ومتقاولاً مع فضاء القصة وهذا ما نجده مثلاً في قصة سيدنا يوسف -عليه السلام- الذي آواه بيت العزيز من غيابه الجب إلى أن غداً شاباً وإذ بهذا المكان يتحول من ملاذ وموئل إلى مصدر تجربة قاسية للشخصية. لقد أكّنَ يوسف لبيت عزيز مصر كل التقدير والاحترام فهو الذي آواه بعد ظلمة البئر وظلمة قلوب أخوه وهو الذي أكرم مثواه ونزله فيه.

﴿وَقَالَ الَّذِي أَشْرَكَهُ مِنْ مِصْرَ لِأَمْرَأِهِ أَكْرِمِي مَتَوَهْ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَنْجَذَهُ وَلَدًا﴾ (يوسف: ٢١)

لذا كان وفع مراودة امرأة العزيز له في هذا البيت شديداً فمن جانب فحش الأمر والمعصية التي تريدها منه، ومن جانب آخر الخيانة التي لا يرضها صاحب أصل ﴿وَرَوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ قَسْيِهِ﴾

﴿وَغَلَقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَاتَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَادَ اللَّهِ إِنَّمَا رَبِّيْ أَخْسَنَ مَتَوَاهِيْ إِنَّمَا لَا يَقْلِعُ الظَّالِمُونَ﴾ (يوسف:

٢٢) ومن جانب ثالث سيدته التي أكرمت مثواه هي التي تراوده وفي بيتها.

لقد تحول هذا البيت بعد حين من مكوثه فيه إلى سجن "وغلقت الأبواب" لا مناص منه لكنه لم يستسلم للفاحشة " واستبقا الباب وقدت قميصه من دبر" حتى "ألفيا سيدها لدى الباب".

ولم تنته محنـة يوسف فقد عاودت مراودتها لكن هذه المرة أمام جمع من النسوة اللاتي تأمـنـنـ معها عليه ... لقد فقد هذا البيت الأمان الذي كان يشعر به يوسف، فقد الحنان والرعاية التي كان قد أحاط بهما، فقد الـيدـ الحانيةـ التي رـعـتهـ وـهوـ فـتـىـ صـغـيرـ حتـىـ رـأـيـ فيـ السـجـنـ مـكـانـ أـكـثـرـ سـعـةـ وـأـكـثـرـ حـباـ منـ هذاـ الـبـيـتـ. ﴿قَالَ رَبِّيْ أَسْجَنُ أَحَبَّ إِلَيْ مَمَّا يَدْعُونِيْ إِلَيْهِ وَلَا تَصْرِفْ عَيْ كَيْدَهُنَّ أَضْبَطْ إِلَيْنَ وَكُنْ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ﴾

(يوسف: ٣٣)

إنَّ الْبَيْتَ يَوْصِفُ غَالِبًا بِأَنَّهُ مَصْدَرُ الرَّاحَةِ مِنَ الْعَنَاءِ وَالشَّقَاءِ وَالْعَمَلِ وَهُوَ مَلْجَأُ الْإِنْسَانِ وَمَكَانُ أَمْنِهِ وَطَمَانِيَّتِهِ وَذَكْرِيَّاتِ طَفُولَتِهِ^(١) لَكِنَّ الْبَيْتَ لَمْ يَكُنْ لِيُوسُفَ كَذَلِكَ فِي بَيْتِهِ الْأُولَى الَّذِي ضَمَّهُ مَعَ أَخْوَتِهِ ضَاقَ بِهِ وَلَمْ يَتَسْعُ لَهُ مَعَ أَخْوَتِهِ فَأَلْقَى بِهِ فِي غِيَابَةِ الْجَبِ، وَبَيْتِهِ الثَّانِي (بَيْتُ الْعَزِيزِ) حَضَنَهُ فَقْرَةً مِنَ الزَّمْنِ ثُمَّ أَلْقَى بِهِ فِي السُّجْنِ.

وَلَابِدَّ أَنَّ هَذَا التَّحْوُلُ فِي وَظِيفَةِ الْبَيْتِ كَانَ لَهُ أَثْرٌ فِي شَخْصِيَّةِ يَوْسُفَ -عَلَيْهِ السَّلَامُ- وَرُؤْيَاَتِهِ فَلَمْ يُخْرِجْ -عَلَيْهِ السَّلَامُ- أَوْلَى أَمْرِهِ مِنَ الْجَبِ لِيُعُودَ إِلَى بَيْتِهِ لَأَنَّهُ وَاثِقٌ أَنَّ هَذَا الْبَيْتَ غَدَّاً مَكَانًا يَتَهَدَّدُ وَيَشْكُلُ لَهُ خَطْرًا، وَكَذَلِكَ الْحَالُ فِي بَيْتِهِ الثَّانِي الَّذِي اخْتَارَ السُّجْنَ لِيُنْجِو مِنْ هَذَا الْبَيْتِ الَّذِي غَدَّاً أَيْضًا يَتَهَدَّدُ يَوْسُفَ وَيَشْكُلُ لَهُ خَطْرًا.

٣ سفينة نوح

يختلف المكان الذي تأوي إليه الشخصية باختلاف الظروف التي تحيط بها ،فالفتية كان يكفيهم كهف ليحتموا في داخله بينما لم يكن يناسب نوها و المؤمنين سوى مكان كالسفينة ليحتموا فيه .
لقد مثلت السفينة لنوح -عليه السلام - المكان الذي يحمل الأمل في الخلاص من قومه الذين طالت دعوته بينهم ،وطال عنادهم وتكتيبيهم له ،فأمر الله -عز وجل- بصنع السفينة هو إنذار بقرب الخلاص من هذا العنت وتلك السخرية بنوح -عليه السلام-.

لقد ركب نوح -عليه السلام- والمؤمنين وفي السفينة وجاء دعاء نوح لها بالحفظ من الله في حركتها وسكنونها ﴿ وَقَالَ أَرْكِبُوا فِيهِ إِسْمِهِ اللَّهِ بَغْرِبَتِهِ وَمُرْسَهُهُ إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (هود: ٤١) لقد أنجته السفينة بأمر الله من القوم الظالمين فكان آمناً فيها مستقراً ﴿ فَإِذَا أَسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفَلَكِ فَقُلِّ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي بَنَّا نَا مِنَ الْقَوَافِلِ الظَّالِمِينَ ﴾ (المؤمنون: ٢٨)

(١) أسماء شاهين/ جماليات المكان في رويات جبرا / ص ٣١ - ٣٤

لقد قدمت السفينة حماية عظيمة لم يوفرها الجبل لابن نوح ،إنّ نوح -عليه السلام- لم يفتر من دعوة ابنه للإيمان حتى في لحظة الإغراق ، فالسفينة ما زال فيها متسع لمن يؤمن .. لقد كان مشهداً مفزعاً تتلاطم السفينة بين أمواج الطوفان ، و ها هو صوت الأب من أعلى السفينة ينادي ابنه الذي يأمل أن ينجيه الجبل .. فلا يستجيب لوالده ..وكأنَّ السفينة تغلق أبوابها دونه فكان من المغرقين.

(وَهِيَ تَغْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحُ أَبْنَاهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَنْبُغِي أَرْكَبَ مَعْنَى وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكُفَّارِ)

(٦٦) قَالَ سَعَوْيٌ إِلَى جَبَلٍ يَعْصُمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا يَأْمُرُ اللَّهُ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ

مِنَ الْمُغَرَّقِينَ (هود: ٤٢ - ٤٣) .

لقد قدمت السفينة الحماية والنجاة لنوح والمؤمنين فكانت السفينة رمزاً للنجاة والانطلاق نحو حياة جديدة على أرض جديدة .

*ثالثاً: علاقة المكان بالزمان

الزمان جزء من الأحداث التي تجري في المكان ،لكن هل تفردت بعض قصص القرآن الكريم بتقديم صورة متميزة للمكان من خلال الزمان ،وهل استطاع الزمان أن يؤثر في المكان وأن يجعله يتفاعل معه بطريقة ما؟

لقد جعل بعض الدارسين كـ"باختين" الزمان بعدها رابعا من أبعاد المكان ، وهو بمصطلح "الزمان" يعبر عن مدى اتصال الزمان والمكان، فعلاقات الزمان تظهر في المكان، والمكان يدرك بالزمان^(١)

و هذا الارتباط بين الزمان والمكان ارتباط حتمي لا مفرّ منه ،فوجود المكان دليل على استمرار الزمان .

إن العلاقة بين الزمان والمكان علاقة جدلية فالزمان يطمح في تغيير المكان ، والمكان يطمح في الصمود في وجه الزمان والحفاظ على ملامحه ومعالمه التي يطبع الزمان بها^(٢) والزمن قادر على تغيير ملامح المكان وتغيير ملامح شخصه وطبائعهم وعلاقاتهم^(٣)

وهذا ما نجده ظاهرا في بعض قصص القرآن الكريم ،لقد مثل الزمان مع المكان في بعضها نموذج إعجاز كقصة أصحاب الكهف الذين ناموا في كهفهم ثلاثة وتسعة سنين ،وقصة سيدنا سليمان -عليه السلام- الذي ارتبط الزمان مع المكان فيها بطريقة عجيبة فالعرش يمثل بين يديه بلمح البصر متجاوزا منطق الزمان في ارتباطه بالمكان.

(١) باختين/ أشكال الزمان والمكان في الرواية/ ص ٦

(٢) مها عوض/ المكان في الرواية الفلسطينية/ ص ١٣

(٣) عمر خليفة/ جماليات المكان في رويات حنان الشيخ/ ص ٧٥

وستحاول الباحثة أن تقدم صوراً أخرى للمكان في ارتباطه بالزمان وتفاعلاته معه في القصة القرآنية.

علاقة الزمان بالمكان في القصة القرآنية

أ - تدمير المكان في زمان معين

إنَّ المتتبع لقصص القرآن يجد أنها تحدثت في معظمها عن الأقوام الذين أهلتهم الله -عزَّ وجلَّ- وأنزل عليهم العذاب، فغدت قراهم خراباً لا حياة فيها، لكن اللافت للنظر أنَّ جلَّ تلك الأماكن التي دمَّرت وأهلكَ أهلها ارتبط الإهلاك فيها وقت الصباح- باستثناء قوم نوح وهود وبسبأ فلم يحدد فيها وقت العذاب- وستعرض الباحثة هذه الأماكن محاولة استخلاص الحكمَة من اختيار وقت الصباح بالذات لينزل فيه العذاب على المكان.

قد تتغير ملامح المكان مع مرور الزمان فيغدو مكاناً مختلفاً للمعلمِ مما كان ذي قبل ، وقد تتدخل يد معينة في تغيير المكان في زمان معين. ويمكن أن نضرب مثلاً في هذا السياق (الجنة / البستان) في قصة أصحابِ الجنة فقد عزم هؤلاء الفتية على منع حقِّ المساكين من بستانِهم فقرروا قطف ثماره في الصباح الباكر قبل أن يستيقظ أي مسكين ويأتي لطلب الثمر .. هم أرادوا صرْم بستانِهم بأيديهم صباحاً ليتأثروا بشمره ويحرموا المساكين لكن الله - عزوجل - ابتلاهم فلم يقطفوا ثمرهم بأيديهم بل صرمت جناتهم وهم نائم .. هم أردوا أن يفاجئوا المساكين بقطفهم الجنة صباحاً وإخفاء ثمارها .. والله - عزوجل - فاجأهم بمحق بستانِهم قبل استيقاظهم صباحاً.. وهكذا جاءوا صباحاً بتخفف وهدوء كي لا يشعر بهم مسكون ولكن ماذا وجدوا جناتهم؟ لقد غدت كالصرىم !!.

﴿ إِنَّا بَلَوْنَهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَمْحَبَ الْجَنَّةَ إِذْ أَقْسَمُوا لِيَصْرِمُنَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَشْفُونَ ﴿١٨﴾ نَطَافَ عَلَيْهَا طَالِبِثَ مِنْ رَبِّكَ وَهُنْ نَاهُونَ ﴿١٩﴾ فَاصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ فَنَنَادُوا مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ اغْدُوا عَلَى حَرَبِكُوكَانُوكُمْ صَمِيمِينَ ﴿٢٢﴾ فَأَنْطَلَقُوا وَهُرَيْتَهُنُونَ ﴿٢٣﴾ أَنَّ لَا يَدْخُلُنَّا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مَسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ وَغَدُوا عَلَى حَرَبِ قَدِيرِينَ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لِضَالُونَ ﴿٢٦﴾ ﴿القلم: ١٧ - ٢٦﴾.

وقوم ثمود الذين كذبوا نبيهم وأرادوا قتلـهـ أخذـهمـ العـذـابـ مـصـبـحـينـ ﴿ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَمْحَبَ الْجَنَّةَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ ﴿٨٠﴾ وَإِنَّهُمْ مَا يَتَبَعَّنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨١﴾ وَكَانُوا يَنْجِنُونَ مِنَ الْجَنَّالِ بِمُؤْنَةِ أَمْيَنِينَ ﴿٨٢﴾ فَأَخْذَهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿الحجر: ٨٠ - ٨٤﴾ هؤلاء القوم الذين كانوا قد أنذروا بعد عقر الناقة ثلاثة أيام قبل أن يأتيهم العذاب من عند الله ﴿ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَّتُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾ (هود: ٦٥) إنـ هـذـاـ الإـمـهـاـلـ فـيـهـ الـأـلـمـ مـعـنـوـيـ قـبـلـ الـأـلـمـ الـجـسـديـ لـأـنـهـ يـتوـجـسـونـ الـخـوفـ

وـالـأـلـمـ إـلـىـ أـنـ يـاتـيـهـمـ موـعـدـ الـعـذـابـ ﴿١﴾

ويأمر الله - عزوجل - لوطا - عليه السلام - أن يخرج بأهله ليلا؛ لأنـ موعد إهلاك الكافرين في الصباح ﴿ قَالُوا يَنْلُوطُ إِنَّا رُسْلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُّ إِلَيْكَ فَأَسِرِّ يَأْهَلَكَ بِقِطْعَ مِنَ الْأَيْلَنِ وَلَا يَنْقُتَ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَنَّهُ إِنَّهُ مُصِيبَهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الْصَّبْحُ الَّذِي لَا يَرَيْبُ ﴿٨١﴾ (هود: ٨١)

وفي سياق آخر عبر عن وقت الصباح بتحديد أكثر وهو وقت الإشراق أي وقت بزوغ الشمس ﴿ لَعَنْكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكَرَبِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَخْذَهُمُ الصَّيْحَةُ مُشَرِّقِينَ ﴿٧٧﴾ (الحجر: ٧٢ - ٧٣)

ولم يكن قوم شعيب أوفر حظا فقد أخذتهم الصيحة مشرقين ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ نَبَغَتْنَا شَعِيبًا وَالَّذِينَ

ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مَنَا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَاضْبَحُوا فِي دِيْرِهِمْ جَنِشِيمِينَ ﴾١٦﴾ كَانَ لَنْ يَغْنِو فِيهَا إِلَّا بَعْدَ الْمَدِينَ كَمَا

بَعَدَتْ كَمُودٌ ﴿١٥﴾ (هود: ٩٤ - ٩٥)

أما الطاغية فرعون فقد تبع هو وجنوده موسى -عليه السلام- والمؤمنين معه ليلاً لكن لحظة غرقه وهلاكه في البحر كانت في وقت الإشراق ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاهُهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴾١٧﴾ أَنَّ أَدْوَى إِلَيْهِ عِبَادَ اللَّهِ إِلَيْكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴾١٨﴾ وَأَنَّ لَا تَعْلُوْ عَلَى اللَّهِ إِلَيْهِ مَا تِكْمِلُ مُسْلِمُونَ مُؤْمِنُونَ ﴾١٩﴾ وَلَقَدْ عَذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْمُونِ ﴾٢٠﴾ وَلَنْ تَرْمُوا لِي فَاعْتَزُّ لَكُمْ ﴾٢١﴾ فَدَعَاهُمْ وَأَنَّ هَوْلَاءَ قَوْمٌ شَجِيرُونَ ﴾٢٢﴾ فَأَسْرِي بِعِبَادِي لِيَلَّا إِنَّكُمْ مُتَّبِعُونَ ﴾٢٣﴾ وَأَنْرُكُمْ تَرْمُونِ ﴾٢٤﴾ وَلَنْ تَرْمُوا لِي فَاعْتَزُّ لَكُمْ ﴾٢٥﴾ وَلَنْ تَرْمُوا لِي فَاعْتَزُّ لَكُمْ ﴾٢٦﴾ فَأَسْرِي بِعِبَادِي لِيَلَّا إِنَّكُمْ مُتَّبِعُونَ ﴾٢٧﴾ وَلَنْ تَرْمُونِ ﴾٢٨﴾ كَمْ تَرَكُوا مِنْ حَتَّىٰ وَعِيُونِ ﴾٢٩﴾ وَذُرْعَعٌ وَمَقَارِبٌ كَرِيمٌ ﴾٣٠﴾ وَنَسْمَةٌ كَانُوا فِيهَا فَذِكْهِيَنِ ﴾٣١﴾ الْبَحْرُ رَهْوًا إِنَّهُمْ جَنْدٌ مُغْرَقُونَ ﴾٣٢﴾ كَمْ تَرَكُوا مِنْ حَتَّىٰ وَعِيُونِ ﴾٣٣﴾ وَذُرْعَعٌ وَمَقَارِبٌ كَرِيمٌ ﴾٣٤﴾ وَلَقَدْ بَعَثْنَا بَيْنِ إِسْرَئِيلَ مِنَ الْعَذَابِ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا مَخْرِيْنَ ﴾٣٥﴾ فَمَا بَكَّتْ عَنْهُمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِيْنَ ﴾٣٦﴾ وَلَقَدْ بَعَثْنَا بَيْنِ إِسْرَئِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴾٣٧﴾ مِنْ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَالِيًا مِنَ الْمُسَرِّفِينَ ﴾٣٨﴾ (الدخان: ١٧ - ٣١) وجاءت سورة الشعراء لتبين

وقت إهلاك فرعون وجنوده

﴿وَأَوْجَحَنَا إِلَىٰ مُوْسَىٰ أَنَّ أَسْرِي بِعِبَادِي إِنَّكُمْ مُتَّبِعُونَ ﴾٣٩﴾ فَاتَّبَعُوهُمْ مُشَرِّقِيْنَ ﴾٤٠﴾ فَلَمَّا تَرَءَاهُمْ جَمِيعًا قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُتَرَكُونَ ﴾٤١﴾ قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّ سَيِّدِيْنَ ﴾٤٢﴾ فَأَوْجَحَنَا إِلَىٰ مُوْسَىٰ أَنَّ أَضْرِبَ بِعَصَاكَ الْبَحْرُ فَأَفْلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالْطَّوْدِ الْعَظِيْمِ ﴾٤٣﴾ وَأَرْلَفَنَا ثَمَّ الْآخَرِيْنَ ﴾٤٤﴾ وَأَبْجَحَنَا مُوسَىٰ وَمَنْ مَعْهُ أَجْمَعِيْنَ ﴾٤٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقَنَا الْآخَرِيْنَ ﴾٤٦﴾ (الشعراء: ٥٢ - ٥٣)

(٦٦)

ولعل ارتباط الإلحاد بوقت الصباح لزيادة حدة العقوبة على المجرمين ، فلو أخذوا ليلاً وهم نائم لكن ذلك فيه شيء من الرحمة ؛ لأنهم لم يبصروا حقيقة العذاب والدمار بأم أعينهم، فالصبح يعني بداية يوم جديد ... نشاط جديد أمل بيوم مشرق ، لكنَّ هذا الإشراق يتتحول إلى خيبة وعذاب . لقد اجتمع لأولئك المكذبين المستكبرين العذاب المادي والنفسي ، وليس هنالك ألم أشد من ذلك.

إنَّ الصبح موعد الدعة والهدوء فالعذاب فيه يكون أشد نكالاً .^(١)

*- تحريم المكان في زمان معين نوعاً من الاختبار والابتلاء

قد تُختبر الشخصية بمنعها من دخول مكان معين أو الاقتراب على ما فيه، فآدم - عليه السلام - حرم عليه هو وزوجه الاقتراب من الشجرة المحرمة في الجنة " ولا تقربا هذه الشجرة " وكان هذا التحريم مطلقاً غير مقيد بزمن معين .

لكن قد يحرِّم المكان أو ممارسة فعل ما فيه بزمن معين وهذا ما ابتنى الله - عزوجل - به القرية التي كانت حاضرة البحر فقد حرم الله - عزوجل - على هذه القرية الصيد من البحر يوم السبت

فقط وكان الصيد حلالاً لها باقي أيام الأسبوع ﴿ وَسَعَاهُمْ عَنِ الْقَرَيْكَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةً أَلْجَرِ إِذْ

يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذَا أَتَيْهُمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَكَنُهُمْ شَرَعًا وَيَوْمَ لَا يَسْتَثُرُونَ لَا أَتَيْهُمْ كَذَلِكَ

بَلْوُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُدُونَ ﴾ (الأعراف: ١٦٣) . لكنهم فشلوا في هذا الاختبار واحتالوا كي

يصطادوا في ذلك اليوم .

جـ- اتحاد الزمان والمكان في خدمة الحدث أو سيطرة أحدهما على الآخر

في قصة موسى -عليه السلام- مع فرعون نجد فرعون منذ بداية محاورة موسى له ودعوته للإيمان والإيمان سبيل بنى إسرائيل نجده يستعمل الزمان والمكان وسيلة لإقامة الحجة على موسى وتنبيه عن دعوته وما جاء به من تخلص لبني إسرائيل فموسى -عليه السلام- تربى في قصر فرعون منذ أن كان وليدا حتى غدا شاباً وهذه الفترة التي قضتها في قصر فرعون يستخدمها فرعون وسيلة للضغط على موسى فقال له ﴿قَالَ الْمَرْيَكُ فِتَاوِيلِدَأَوِيَّشَ فِتَنَامِنْ عُمُرِكَسِينَ﴾ (الشعراء: ٣٧)

(١٨) لكنّ حياة القصور لم تجعل موسى يغفل عن مأساة قومه التي استمرت سنينا في ظلّ حكم فرعون فقال موسى لفرعون مستنكرة: "وتلك نعمة تمّنها علىيْ أن عبّدت بنّي إسرائيل" (الشعراء: ٢٢)، فوجود موسى بالقصر كان سببه أصلًا الظلم والتقتيل الذي ارتكبه فرعون بحق الأطفال البريءين فلولا ذلك لما ألقته أمّه في اليم ليصل بعد ذلك إلى يدي فرعون.

ثم يطلب فرعون من موسى -عليه السلام- أن يحدد له مكاناً وزماناً لا يخلفه أيٌ منها ليتحدى

موسى بسحره ﴿قَالَ أَجِئْنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا إِسْخِرِكَ يَمْوَسِي ﴾ ﴿فَلَنَا أَيْنَكَ إِسْخِرِ مَثِيلَهُ، فَاجْعَلْ يَبْنَانَا وَيَبْنَكَ مَوْعِدًا لَا مُخْلِفُهُ، بَخْنَ وَلَا آنَتْ مَكَانًا سُوَى﴾ (طه: ٥٧ - ٥٨)، لقد قبل موسى التحدي؛ لأنّه يعلم "أنّ" ما

جثتم به السحر إنَّ اللَّهَ سَيِّطِلَهُ" فحدد زماناً ومكاناً يستطيع بهما أن يرى جميع الناس المعجزة الدالة على صدقه فاختار يوم الزينة يوم عيدهم وقت الضحى حتى يكون أكبر تجمع في ذلك المكان وفي ذلك الوقت ﴿قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الْزِينَةِ وَأَنْ يُخَشَّرَ النَّاسُ صُنْحَىٰ﴾ (٥٩) (طه: ٥٩) فكانت النتيجة

فَلَقِي السَّحْرَةُ سُجَّدًا قَالُوا إِمَانًا بِرَبِّهِ هَرُونَ وَمُوسَىٰ (طه: ٧٠). لقد خدم وقت الصبح الحدث متحداً مع اجتماع القوم في مكان، فجعل معجزة موسى ظاهرة للجميع لا تعمية عليها ولا تشويش، كانت النتيجة إيمان السحرة كلهم؛ لأنهم أبصروا بأعينهم صدق موسى -عليه السلام- .

و يتعانق المكان والزمان في قصة أصحاب الكهف ليشكلا معجزة لا تخطر على قلب بشر.

لقد اكتسب الكهف جماليته من خلال الزمان فقد سيطر الزمان على المكان وبسط نفوذه وطوقه حتى أحاط به.

استيقظ الفتية من سباتهم فأخذوا يتساءلون عن مدة نومهم ﴿وَكَذَلِكَ بَعْثَتْهُمْ لِيَسْأَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ﴾

﴿قَاتِلُّهُمْ كَمْ لَيَنْتَهُمْ قَالُوا يَشَايَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَيَنْتَهُمْ ...﴾ لقد وجدوا ألا جدوى من

حوارهم الآن عن مدة نومهم وفكروا بما يحتاجونه ﴿...فَابْعَثْنَاهُمْ إِلَى الْمَدِينَةِ﴾

﴿فَيَنْظُرُ أَيْمَانًا أَزْكَى طَعَامًا فَلَيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلَا يَتَلَطَّفُ وَلَا يُشْعَرُ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٦﴾ إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ

﴿يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مَلَتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذَا أَبَدًا ﴿١٧﴾﴾ (الكهف: ١٩ - ٢٠).

لقد كشف ورقهم (الفضة) أمرهم ، بل لقد كشف الزمن أمرهم، فعملتهم هذه غدت قديمة جداً من الكنوز التي يمكن أن يعثر عليها لذا كان الزمن المتمثل بالورق سبباً في العثور عليهم

﴿وَكَذَلِكَ أَعْزَزْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّهُ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَارِبٌ فِيهَا ﴿٢١﴾﴾ (الكهف: ٢١)

لقد غير الزمن المكان وأهله -المدينة- ، كان أهل المدينة زمن الفتية كفاراً والآن هم قوم مؤمنون زاد إيمانهم عثورهم على هؤلاء الفتية فبنوا عندهم مسجداً يعبدون الله فيه ويتذكرون آية عظيمة من آياته.

وقد كشف لنا السياق القرآني عن عدد السنين التي لبثها الفتية في كهفهم ﴿وَلَيَنْتَهُ كَهْفُهُمْ ثَلَاثَ

﴿مِائَةٌ سِتِّينَ وَأَرْبَادُ وَأَقْسَعًا ﴿٢٥﴾﴾ (الكهف: ٢٥)

فكانت المدة الطويلة بمثابة الحماية الزمنية^(١) فاتحد المكان والزمان ليوفرا الحماية للفتية حين التجأوا إلى الكهف.

(١) عزة الحلبي/ الزمن في القصة القرآنية / ص ١٥

أمّا قصة سليمان - عليه السلام - مع ملكة سبا فمن أكثر القصص التي يبدو فيها ارتباط المكان بالزمان فريداً من نوعه بل معجزاً.

وبذا ذلك واضحًا من بداية القصة حين تفقد سليمان - عليه السلام - الهدى وجاء الهدى بعد زمن يسير إلى سليمان - عليه السلام - بناءً من مملكة بعيدة عنهم (سبا في اليمن) إلى الشام (الأرض المباركة) حيث يقيم سليمان - عليه السلام -.

وهنا يراودنا تساؤل كيف قطع الطائر هذه المسافة بمدة وجيزة (فمكث غير بعيد)؟
لقد سحر الله - عزوجل - سليمان - عليه السلام - المكان والزمان فاستطاع بقدرة الله أن يحضر عرش ملكة سبا بمدة لا يستطيع أن يتتجاوزها ويتحققها البشر العاديون . ﴿قَالَ رَبُّهَا لَهُ أَنْتَ أَكْبَرُ إِنَّمَا يَعْلَمُ بِأَيِّنِكُمْ يَأْتِيُنِي بِعِرْشِهَا﴾

﴿قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ (النمل: ٣٨) وهذا فتح باب المنافسة للملائكة في تحدي المكان والزمان .

﴿قَالَ عَفْرَيْتُ مِنْ لَعْنَ أَنَّا مَلِئَكَ بِهِ، قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَلِنَفِي عَلَيْهِ لَقْوِيَ أَمِينٍ﴾ (٢٩) ﴿قَالَ الَّذِي عِنْهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَّا مَلِئَكَ بِهِ، قَبْلَ أَنْ تَرْتَدِ إِلَيْكَ طَرْفَكَ فَلَمَّا رَأَاهُ مُسْتَقِرًّا عِنْهُ، قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّ لِيَلْتُوْنِي مَا شَكِّرَمْ أَكْفُرُوْنَ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَلَنَرْفَعَ عَنْهُ كِرْمَ﴾ (النمل: ٣٩ - ٤٠) .

لقد احتاج أمر كهذا من العفريت أن يثبت قدرته ويزيد ثقة سليمان به (وإنني عليه لقوى أمين) لكن صاحب العلم كان أسرع من العفريت بل من أي سرعة أخرى (قال الذي عنده علم أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك).

وهكذا قبل أن يرتد طرف سليمان إليه وقبل أن يرتد طرفاً إلينا رأينا المشهد التالي يمثل فيه العرش مستقراً بين يدي سليمان متجاوزاً قانون الزمان وحدود المكان؛ ليخدم الحدث ويكون المرحلة الأولى التي مهدت لإيمان ملكة سبا.

وهناك أماكن ارتبطت بأحداث بفترة زمنية معينة من عمر الشخصية ،كالمهد الذي ارتبط بعيسى عليه السلام- وقد خرج هذا المكان عن المألوف ؛لأنه اكتسب جمالية بكلام عيسى فيه وهي في مرحلة زمنية لا يتكلم فيها الأطفال.

أما تابوت موسى -عليه السلام- الذي وضعته فيه أمه وهو طفل صغير فكانت وظيفته أن يحمل موسى عبر أمواج البحر وهو في ذلك العمر ليضعه بين يدي عدوه ليربيه في قصره وهو لا يشعر.

وارتبط زكريا -عليه السلام- بمعجزة زمانية وهو قائم يصلي في محرابه تتعلق بإنجابه وزوجه عاقر وزكريا شيخ كبير .. لقد دعا زكريا ربه في المحراب ... وجاءته البشرى في المحراب.

جـ- الزمان سبب في ظهور المكان

*بطن الحوت

في قصة يونس - عليه السلام- يمثل التقام يونس من قبل الحوت عقبة لعدم انتظار يونس لأمر الله ، وتركه قومه قبل أن يأذن الله.

فالزمن الذي اختاره يونس للخروج من قومه لم يكن مناسباً ولا مقبولاً؛ لأن الله - عزوجلـ- لم يأذن به فكان عامل الزمن هذا الذي لم يرافقه يونس - عليه السلامـ هو السبب في دخوله إلى بطن الحوت.

ثم إن بقاء يونس في بطن الحوت كان سيطول حتى يوم القيمة لو لا تسبيحه واستغفاره ﴿فَنَّلَا أَنَّهُ

كَانَ مِنَ الْمُسَيْحَيْنَ ﴿١٤٣﴾ لِلَّتِيْهِ إِلَى يَوْمِ يَعْثُونَ ﴿١٤٤﴾ (الصافات: ١٤٣ - ١٤٤)

قصة نوح / السفينة

قال تعالى ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَّةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخْذَهُمُ الْطُوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١٥﴾ فَأَنْجَيْنَاهُ وَاصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آئِيَةً لِلنَّاسِ ﴿١٦﴾ (العنكبوت: ١٤ - ١٥) ألف سنة إلا خمسمين عاما!! إنه لزمن بعيد وأمد مدید ، إنه عامل مهم ومسبب رئيس بظهور السفينة .. لقد استحق

قوم نوح بعد هذا الزمن الطويل في محاربة الدعوة وتکذیبهم لنبيهم الملاك غرقا ﴿قَالَ رَبِّي إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي إِلَّا وَنَهَا رَاٰ فَلَمْ يَرِدْهُ دُعَاءِ إِلَّا فِرَارًا﴾ (٦) وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصْبَعَهُمْ فِي مَا ذَرَّنِيهِمْ وَأَسْتَغْشَوْا شَابَهُمْ

وَأَصْرُوا وَأَسْتَكَبَرُوا أَسْتَكَبَرَا﴾ (٧) (نوح: ٥ - ٧)

لقد أخلص نوح وصبر في دعوة قومه فوصل الليل بالنهار، فحتى الليل الذي هو سكن وراحة لم يسترح فيه نوح - عليه السلام -، لقد تعب طويلاً مع قومه ومع ذلك لم يأتهم العذاب سريعاً بل جاءهم بعد ألف سنة إلا خمسين عاماً . مكث نوح - عليه السلام - مدة طويلة في قومه يدعوهם قبل أن يأمره الله - عزوجل - بصنع السفينة، فالسفينة هي المكان الذي سيحمل نوهاً بعد طول زمان من المعاناة.

لقد ضمت السفينة نوهاً والمؤمنين طوال مدة العذاب حتى إذا ما انتهى أمره الله أن ينزل منها

﴿وَقِيلَ يَأْتِيضْ أَبْلَى مَاءٌ إِلَيْوَنَسَمَاءَ أَقْلَى وَغَيْضَ الْمَاءِ وَقُبَّنَ الْأَمْرُ وَأَسْتَوْتَ عَلَى الْجَوْدِيٍّ وَقِيلَ بَعْدَ لِتَقْوَةَ الظَّالِمِينَ﴾ (٤٤)

(هود: ٤٤) ﴿قِيلَ يَئْنُخُ أَهْيَطُ سَلَبِيٍّ مَنَّا وَرَبَكِيٍّ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمُورِ مَنَّ مَعَكَ﴾ (هود: ٤٨) لقد قادتهم السفينة

إلى مكان جديد ، مكان فيه سلام وبركة .

*هـ - الزمان يزيد من قسوة المكان

قصة يوسف / الجب

ألقى يوسف - عليه السلام - في غيابة الجب في مرحلة مبكرة من عمره، ألقى فيه وهو ما يزال فتى صغيرا حتى إن أخوته حينما طلبوه من أبيهم أن يرسله معهم قالوا له ﴿أَرْسِلْهُ مَمْنَاغَدًا يَرْتَعَ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَفِظُونَ﴾ (يوسف: ١٢) ما زال طفلا يريد اللعب ببراءة لا يستطيع أن يدافع

عن نفسه ومن هنا كان خوف أبيه عليه وتعلقه به ﴿قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذَهَّبُوا إِلَيْهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الَّذِي شَبَّ وَأَنْتُمْ عَنْهُ عَنِفْلُونَ﴾ (يوسف: ١٣) وهكذا دبروا مكيدتهم وسارعوا في تنفيذها ﴿قَالُوا إِنَّا بَانَا مَالَكَ لَأَتَأْمَثَّ أَعْلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَنَصْحُونَ﴾ (١٤) ﴿أَرْسِلْهُ مَمْنَاغَدًا يَرْتَعَ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَفِظُونَ﴾

(يوسف: ١١ - ١٢) وكأنه لا وقت عندهم ليضيغوه فهم يريدون التخلص من يوسف بأسرع وقت ممكن لذا قدموا الزمن (غدا) قبل السبب الذي سيأخذونه لأجله (يرتع ويلعب)، وكأنهم استدركوها على أنفسهم ما ليس في أنفسهم أصلا.

لقد باشروا بطلبهم من أبيهم بارسال يوسف معهم فور اتفاقهم ولم يكن هناك فاصل زمني في القصة بين المشهدتين.

إن المستقبل أمام يوسف على الرغم من إلقائه في الجب يحمل له الكثير ﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا إِلَيْهِ وَاجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيْبَتِ الْجُبِّ وَأَوْجَنَا إِلَيْهِ لَمْتَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَسْتَعْرُونَ﴾ (يوسف: ١٥) لقد أوحى له الله بذلك النبوة قبل أن يجعلوه في غيابة الجب.

ألقى الأخوة أخاهم وجاءوا أباهم ليكملاوا مكيدتهم وليخفووا آثار جريمتهم عن ناظريه ﴿وَجَاءَهُ وَأَبَاهُمْ عِشَاءَ يَبْكُونَ﴾ (١٦) ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَوْلُ وَرَكَّبْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَّعْنَا فَأَكَلَهُ الَّذِي شَبَّ﴾ (يوسف:

١٦ - ١٧) لقد وظف القرآن الكريم الزمن بصورة تخدم الحدث فإخوة يوسف - عليه السلام - جاءوا أباهم عشاء يبكون ليختفي جنح الليل كذبهم على أبيهم وما قد تشي به عيونهم من خزي الكذب ، وهذا ما جعل أباهم يشك في صدق دعواهم، فهذا خبر لا ينتظر تبليغه حتى المساء^(١) فرد عليهم ﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلْتُ لَكُمْ أَنْقُسْكُمْ أَمْرًا فَصَبَرُّ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصْنَعُونَ ﴾ (يوسف: ١٨)

قصة يوسف / السجن

و إن كان قد ألقى يوسف - عليه السلام - في الجب وهو صغير ضعيف ، فهو الآن يلوح السجن أمامه بعد أن غدا شاباً قوياً، شاباً مقبلاً على الحياة يحب العزة ويكره الذلة والهوان .. يلوح السجن أمام مستقبله إن لم يرضخ ويفعل الفاحشة مع سيدته لكن يوسف استعلى على ذلك وأشار أن يدخل السجن على الرغم من براءته مقابل لا يرتكب الفاحشة ﴿ قَالَ رَبِّ الْسِّجْنِ أَحَبُّ إِلَيَّ مَمَّا يَدْعُونِ ﴾

**إِلَيْهِ وَلَا تَقْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبَحَ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنْ لَبَّهِلَّيْنَ ﴿ ٣٣ ﴾ فَاسْتَجَابَ لِمَوْرِيْهِ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّيِّئُ
الْعَلِيُّهُ ﴿ ٣٤ ﴾ ثُمَّ بَدَأَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوْا أَلَايَتِ لِيَسْجُنَنَّهُ حَتَّىٰ حِينَ ﴿ ٣٥ ﴾ (يوسف: ٣٣ - ٣٥)**

وهكذا قررت النسوة سجنه لأجل وزمن غير معلومين ﴿ ثُمَّ بَدَأَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوْا أَلَايَتِ لِيَسْجُنَنَّهُ حَتَّىٰ حِينَ ﴿ ٣٥ ﴾ (يوسف: ٣٥) لقد دخل يوسف - عليه السلام - السجن وهو لا يعلم كم سيمكث لكنه

كان يأمل بالخروج ﴿ وَقَالَ اللَّهُ طَنَّ أَنَّهُمْ أَذْكُرُونِيْهِ عِنْدَ رَيْلَكَ ﴾ (يوسف: ٤٢) لقد حمل صاحبه في السجن رسالة إلى سيده لعله يعلم بخبره وحقيقة أمره فيمد له يد العون ويخرجه من سجنه لكن ذلك لم يكن بتلك السرعة التي تصورها يوسف - عليه السلام - لقد نسي صاحبه ذكره

(١) عبد الكريم الخطيب/ القصص القرآني / ص ٨٤

عند سيده فمكث يوسف في السجن بضع سنين ﴿فَأَنْسَهُ أَشَّيْطَانٌ ذِكْرَ رَبِّهِ، فَلَمَّا كَانَ فِي السِّجْنِ بِضَعَ سِنِينَ﴾ (يوسف: ٤٢).

لقد تحمل يوسف السجن بضع سنين حتى تذكريه صاحبه بعد مدة طويلة من الزمن "وادرر بعد أمة" ومع ذلك ومع طول هذه المدة التي قضتها في السجن أبى الخروج منه إلا بعد أن يبحث الملك في أمره ويتبيّن براءته، فلم تضعفه سنين السجن بل زادته عزيمة وإصرارا في تحدي الظلم ودفع الأذى.

و - تغير ملامح المكان مع مرور الزمان (تغير مادي أو معنوي)

قصة يوسف / البيت

لقد تغير شكل بيت العزيز مع مضي الزمن فقد كان في بداية حياة يوسف وهو ما زال فتى صغيراً ملاداً وملأى من التشرد والضياع فقد أكرم فيه ووجد فيه مالم يجده بين أخوته. لكن مع مضي الزمن وبلوغ يوسف أشدّه تحول هذا البيت إلى مكان معاد ليوسف تلاحقه الفاحشة فيه حتى آثر السجن عليه.

ولقد عبر القرآن الكريم عن حادثة المراودة بزمن الماضي "وراودته التي هو في بيتها" ثم قصّ لنا باقي الخبر أيضاً بالزمن الماضي لكنّا نسمع نسوة المدينة وهنّ يتحدثن بأمر امرأة العزيز بالزمن المضارع "تراود" ﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ أُمَرَاتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَنَاهَانَ نَفْسِهِمْ، قَدْ شَعَقَهَا حُبًا ﴾ (يوسف: ٣٠)

٣٠) وصفها وكأنّها مستمرة بهذا الفعل لا تفتر عنه (تراود) فكان حدّيثهنّ هذا دافعاً لها لأن ترسل إليهنّ وتجعلهنّ يفتنن بما فتنت به ﴿ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَاعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكِّهَاتٍ كُلَّ وَجْهٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَاتَتْ أَخْرَجَ عَيْنَهُنَّ فَلَمَّا رَأَيْتَهُمْ أَكْبَرْتَهُمْ وَقَطَعْنَ أَيْدِيهِنَّ وَقُلَّنَ حَشَنَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾ (يوسف: ٣١)

ز- الزمان عامل بقاء أو خروج من المكان

الجنة / جنة آدم

يمثل الزمن في قصة آدم - عليه السلام - محوراً هاماً بارتباطه بالمكان؛ لأنّ غواية الشيطان لآدم كانت بربط المكان (الجنة) بالزمان (الخلود) فأدم مقيم أصلاً في الجنة لكنّ قضية الخلود فيها هي التي أرقته ودفعته للاستجابة لغواية الشيطان ﴿ فَوَسَوسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَتَعَادُمُ هَلْ أَدْلُكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخَلْدِ وَمَلِكٌ لَا يَبْلَى ﴾ (طه: ١٢٠)، وكان صراعاً حدث داخل آدم فهو يحب الخلود في الجنة لكن الله نهاه عن

هذه الشجرة ، لكنَّ الشيطان قاسمهما بأئمَّةِ الناصحين ﴿ وَقَسَمَهُمَا إِنِّي لِكُلِّ أَئِمَّةِ النَّاصِحِينِ ﴾ ﴿ أَفَلَمْ يَرَهُمَا ﴾

﴿ يَغْوِي ﴾ (الأعراف: ٢١ - ٢٢).

ويمثل الزمان لإبليس عاملًا للانتقام من آدم وذراته بعد خروجه من الجنة فقد طلب من الله - عزوجل- ألا يدخله النار بعد إخراجه من الجنة وأن يمهله حتى يوم البعث ﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يَعْثُونَ ﴾

﴿ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴾ ﴿ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴾ ﴿ قَالَ فَيَعْرِزُكَ لِأَغْوَيْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ ﴿ ص: ٧٩ - ٨٢ ﴾

لقد أعطاه الله ما أراد فأنظره إلى يوم القيمة لكنه - عزوجل- بين له أنه لا سلطان له على عباد الله الصالحين أما العاصين فموعدهم مع إبليس إلى جهنم.

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَغْوَيْنِي لَأُذْنِنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ ﴿ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصُونَ ﴾ ﴿ قَالَ هَذَا ﴾

﴿ صَرَطْ عَلَىٰ مُسْتَقِيمٍ ﴾ ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَنٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْفَاسِدِينَ ﴾ ﴿ وَلَنْ جَهَنَّمَ لَمْ يَعْدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾

﴿ لَمَّا سَبَعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُنَاحٌ مَقْسُومٌ ﴾ (الحجر: ٣٩ - ٤٤)

وهكذا ظهر الزمان مرتبًا بالمكان في القصة القرآنية ، فالزمان مرتب بالدرجة الأولى بالأحداث التي جرت في المكان ، وقد امتاز الزمان في علاقته بالمكان بالمحاور السابقة التي أشرت إليها ، كتحديد زمن الصباح لإهلاك وتدمير المكان، وتحريم المكان في زمان معين ، وتسبب الزمان في ظهور المكان، وزيادة الزمان من قسوة المكان، وتغيير الزمان للامتحن المكان.

الخاتمة

وقفت الباحثة في هذه الدراسة على عنصر هام من عناصر القصة القرآنية وهو المكان، وبعد الدراسة يمكن إجمال نتائج البحث بما يأتي:

أولاً: نالت القصة القرآنية حظاً وافراً نسبة لآيات القرآن الكريم ، إذ شغل حجمها قرابة الربع من كتاب الله -عز وجل- ، وامتدت مشاهدتها على مساحات واسعة من سوره الكريمة ، ويدل ذلك على أهمية القصة القرآنية، وهيمنتها في خطاب الله -عز وجل- لما لها من كبير التأثير.

ثانياً: إنّ الدارسين الذين قالوا إنّ المكان في القصص القرآني لم يكن له حظوة ولا حضور نظروا من زاوية واحدة إلى المكان في القصة القرآنية وهي الناحية التاريخية الجغرافية ، ويضربون مثالاً على قصة أصحاب الكهف ويقولون نحن لا ندرى عن أي كهف تتحدث القصة وفي أي بلد...وهكذا. لكن هذه الدراسة نظرت إلى المكان من ناحية فنية جمالية أي بكونه عنصراً مشاركاً في أحداث القصة أو في رؤيتها أو مع شخصياتها .

ثالثاً: لقد تعددت الأماكن في القصة القرآنية، فنجد الجبل والسهل والبحر والبيت والمدينة والقرية وغيرها ، ولكن ظهورها متأثر بخصائص القصة القرآنية ومن أهمها؛ توزّع مشاهد القصص القرآني في أغلبها- على سور القرآن الكريم . والمتتبع لهذه المشاهد يجد أنّ كل مشهد حمل جانباً من جوانب القصة يكمله المشهد الآخر وبالتالي فليس بالضرورة أن يكون مشهد البحر مثلاً في قصة موسى -عليه السلام- قد ورد في كل مشاهدتها وهذا باقي الأماكن في سائر قصص القرآن الكريم.

رابعاً: لقد كشفت لنا هذه الدراسة أنّ القصة القرآنية قد وظفت المكان بما يخدم بناءها وتكونيتها ورؤيتها، فكل مكان ظهر في قصة قرآنية كان الأنسب لها والأقدر على التفاعل مع باقي عناصرها من زمان وأحداث وشخصيات.

خامساً: لقد وظف القرآن الكريم المكان لخدمة الغرض الديني أولاً لكنه خدمه مستخدماً الجمال الفني، الجمال الذي يجعل النفس قابلة للتلقى والتأثر.

سادساً: ونجد تنوعاً في تقديم القرآن الكريم للمكان فقد يقدم بشكل مباشر (من خلال السرد)، وقد يقدم من خلال الأحداث والحوار، وقد يستخدم القرآن الكريم الوصف أو الصورة (كالأنسنة) في تقديم المكان كبناء السماء والأرض وإرادة الجدار بالانقضاض. وكل هذه الصور جعلت المكان في القصة متعدد الدلالات فبالإضافة إلى الدلالة التاريخية نجد دلالات نفسية وجمالية ودينية واجتماعية فيه.

أما جمال هذا العنصر فتمثل بانسجامه في بناء القصة القرآنية وتفاعلاته مع عناصرها ليتحقق قوله -عز وجل- : "تحن نصص عليك أحسن القصص بما أو حينا إليك هذا القرآن وإن كنت من قبله من الغافلين" (يوسف: ٣)

سابعاً: اكتسبت الأحداث في علاقتها مع المكان دلالات متعددة، كمساهمة المكان في إظهار مفارقة بين الأحداث وردود فعل الشخصيات، فالسجن ليوسف كان مكاناً منفتحاً للرؤيا والدعوة والتأويل، كما عبر المكان عن قسوة الأحداث كالجح في قصة يوسف -عليه السلام-، واتخذت القصة المكان وسيلة لخدمة الأحداث كالعرش والصرح في قصة سليمان -عليه السلام-، كما اكتسب المكان بما تضمنه من أحداث إعجازاً وفرادة وقداسة، كالكهف والمحراب والوادي المقدس.

ثامناً: لقد أثر المكان في الشخصيات وشكل لها ابتلاء واختباراً كالجنة في قصة آدم -عليه السلام-، والأرض المقدسة لبني إسرائيل، كما كانت بعض الأماكن مساندة أو غير مساندة للشخصيات كالبحر في قصة موسى -عليه السلام-، ومثلت أماكن أخرى فتنة للشخصيات كقصة صاحب الجنتين، وغير ذلك من الدلالات التي ذكرتها في الفصل السابق.

تاسعاً: ارتبط الزمان بالمكان في القصة القرآنية، وأثر فيه وفي شخصه، وتمثلت علاقة المكان بالزمان ببعض المحاور، كتحديد زمن الصباح لإهلاك وتدمیر المكان، وحریم المكان في زمان معین، وتسبب الزمان في ظهور المكان، وزیادة الزمان من قسوة المكان، وتغيير الزمان لملامح المكان وغير ذلك.

إنّ القصة القرآنية بحاجة إلى مزيد من الدراسات الفنية الجمالية التي تكشف عن حسنها وروعتها، كما أنّ المتأنّل لعناصر القصة القرآنية يجدّها بحاجة إلى دراسة متخصصة فيها .

وبعد ، فهذا جهد طالبة علم ، لاتزعم أَنَّها أحاطت بالموضوع أو أَنْتَ على أَكْملِه . فانفعنا اللهم بما علمتنا وعلمنا ما ينفعنا وزدنا علما.

وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين

المصادر والمراجع:

- القرآن الكريم**
- باشلار، غاستون: **جماليات المكان**، ترجمة غالب هلسا، دار الجاحظ بغداد ١٩٨٠.
- البرراوي، حسن: **بنية الشكل الروائي**، ط١، المركز الثقافي العربي، بيروت، ١٩٩١.
- بختين، ميخائيل: **أشكال الزمان والمكان في الرواية**، ترجمة يوسف حلاق، وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٩٠.
- البعول، فاطمة: **المكان في شعر حيدر محمود** ، رسالة ماجستير، جامعة اليرموك، إربد، ٢٠٠٦.
- حافظ صبري ، **الحداثة والتجسيد المكاني** ، فصول، مج٢ / ع٤ ١٩٨٤ / ص ٦٧.
- . حسين، أحمد عطا: **البناء الفني في القصة القرآنية**، ط١، دار غريب، القاهرة، ٢٠٠٧.
- الحلبي ، عزة: **جماليات المكان في القرآن الكريم**، رسالة دكتوراه ،جامعة دمشق ٢٠٠٠.
- . الحلبي عزة، **الزمن في القصة** ،مجلة جامعة دمشق - ملحق بالرسالة الالكترونية.
- حسين، حسين: **المكان في الرواية الجديدة، الخطاب الروائي لادوارد الخراط نموذجا-** رسالة ماجستير، جامعة دمشق ، ١٩٩٩.
- خليفة عمر ،**جماليات المكان في رواية حنان الشيخ**، رسالة ماجستير ،الجامعة الأردنية ،٢٠٠٤.
- الخطيب، عبد الكريم:**القصص القرآني منطوقه ومفهومه**، ط ١ ،دار المعرفة، بيروت، ١٩٩٧.
- .أبو خليل شوقي: **أطلس القرآن**، ط١، دار الفكر المعاصر، بيروت، ٢٠٠٠.
- . درغون، ليلي ،**المكان والزمان في يوميات نائب**، مجلة الحياة/٥٨/٤٤/١٩٩٧/ص ٤٤.
- الدليمي ،منصور: **المكان في النص المسرحي**، ط١، دار الكندي، إربد، ١٩٩٩.
- الدوikات، نضال عباس: **قصة موسى - عليه السلام- مع فرعون بين القرآن والتوراة**، رسالة ماجستير ،جامعة النجاح ٢٠٠٦ ،
- الرازي، فخر الدين أبو عبدالله محمد بن عمر، ت٦٠٦هـ ، **التفسير الكبير**، ط٢، دار إحياء التراث- بيروت ، ١٩٩٧ .
- .-الربيع آمنة،**البنية السردية في القصة القصيرة**، ط١، المؤسسة العربية للدراسات بيروت، ٢٠٠٥.
- زايد ، عبد الصمد: **المكان في الرواية العربية**، ط١، دار محمد علي، صفاقس، ٢٠٠٣ .

- ذكرياء ، عبد المرضي: **الحوار ورسم الشخصية في القصص القرآني** ، ط١، زهراء الشرق، القاهرة، ١٩٩٧.
- أبو زريق ، محمد: **المكان في الفن**، ط١، وزارة الثقافة، عمان، ٢٠٠٣.
- الزمخشري، أبو القاسم جار الله محمود بن عمر ٤٦٧-٥٣٨هـ، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٥.
- السيد، محمود: **روائع الإعجاز القصصي في القرآن** ، المكتب الجامعي الحديث، الاسكندرية، ١٩٨٢.
- السقا، فاديا : **جمليات المكان في روایات هانی الراہب** ، رسالة ماجستير، جامعة البعث، دمشق، ٢٠٠٥.
- شاهين، أسماء عبد القادر: **جمليات المكان في روایات جبرا إبراهيم جبرا**، رسالة ماجستير، الجامعة الأردنية، ٢٠٠٠.
- الشعراوي، محمد متولي الشعراوي، **تفسير الشعراوي**، ت ١٩٩٨، قطاع الثقافة ، القاهرة ، ١٩٩١.
- الصابوني، محمد علي جميل ، **صفوة التفاسير**، ط٤، دار القرآن بيروت، ١٩٨١.
- صالح، صلاح: **قضايا المكان الروائي** ، ط١ ، دار شرقيات ، القاهرة، ١٩٩٧.
- طبنجة، كرم: **جمليات المكان في القصة العربية القصيرة**، رسالة ماجستير، الجامعة الأردنية، ٢٠٠٢.
- الطراونة، سليمان: **دراسة نصية أدبية في القصة القرآنية**، ط١، عمان ، ١٩٩٢.
- طنطاوي محمد ، **القصة في القرآن**، ط١ ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٩٥.
- علي، فهد حسين: **المكان في الرواية البحرينية** ، رسالة ماجستير ، جامعة القدس، بيروت، ٢٠٠٢.
- عوض الله، مها حسن: **المكان في الرواية الفلسطينية** ١٩٨٨-١٩٤٨ ، رسالة ماجستير، جامعة اليرموك، ١٩٩١.
- عباس فضل ، **قصص القرآن**، ط١ ، دار الفرقان ، عمان ، ٢٠٠٠.
- العبيدي ، محمد : **دلالة السياق في القصص القرآني** ، وزارة الثقافة والسياحة ، صنعاء ، ٢٠٠٤.
- عليان مصطفى ، **بناء الشخصية في القصة القرآنية**، ط١ ، دار البشير عمان، ١٩٩٢.
- الفطاطة، غسان إسماعيل: **الزمان والمكان والنص ، اتجاهات في الرواية المعاصرة في الأردن ،** ط١ ، دار الينابيع ، عمان ، ١٩٩٣.

- القاسم نبيه،**الفن الروائي عند عبد الرحمن منيف** ،ط١ ،دار الهدى،جنين ،٢٠٠٥ .
- قطب، سيد:**التصوير الفني في القرآن**،ط٣،دار المعرف، بيروت ،١٩٦٣ .
- قطب، سيد: **في ظلال القرآن**،ط٤،٣،دار الشروق،بيروت ،٢٠٠٤ .
- ابن كثير ، الحافظ عماد الدين إسماعيل ،٧٤٤هـ،**تفسير القرآن العظيم**،دار الجليل ،بيروت.
- الكردي، عبد الرحيم:**السرد في الرواية المعاصرة**،دار الثقافة،القاهرة،١٩٩٢ .
- المحاذين ، عبد الحميد:**جدلية المكان والزمان والإنسان**،ط١،المؤسسة العربية للدراسات،بيروت .٢٠٠١ .
- المحاذين ، عبد الحميد:**التقنيات السردية في روایات عبد الرحمن منيف**،المؤسسة العربية للدراسات،بيروت ،١٩٩٩ .
- محمود حسني،**بناء المكان في سداية الأيام** ، علامات في النقد،مجلد ٩ ،عدد ٣٤،جدة ١٩٩٩ .
- مدللاف سليماء،**تحليل الخطاب القصصي في القرآن الكريم**،رسالة ماجستير،جامعة الجزائر ،١٩٩٧ .
- مراشدة عبد الرحيم ،**الفضاء الروائي**،ط١،وزارة الثقافة ،عمان ،٢٠٠٢ .
- مرتاض ، عبد المالك:**في نظرية الرواية**،ط١،بحث في تقنيات السرد،المجلس الوطني للثقافة ،والفنون ،الكويت ،١٩٩٨ .
- مصلح عمر ،**منهج الدعوة في القصة القرآنية**،رسالة ماجستير ،الجامعة الأردنية ،٢٠٠٢ .
- ملكاوي ،بثينة:**القصة القرآنية و المناسبتها لسياق القرآني**،رسالة ماجستير،الجامعة الأردنية ،٢٠٠٠ .
- ابن منظور ،أبو الفضل جمال الدين محمد،ت ٧١١هـ ،**لسان العرب** ،دار الحديث القاهرة ،٢٠٠٣ .
- النابلسي ، شاكر:**جماليات المكان في الرواية العربية**،ط١،المؤسسة العربية للدراسات،بيروت ،١٩٩٤ .
- نجم حسن،**شعرية الفضاء السردي**،ط١،الدار البيضاء ،٢٠٠٠ .
- النصير ، ياسين:**إشكالية المكان في النص الأدبي**،ط١ ،دار الشؤون الثقافية ،العامة،بغداد ،١٩٨٦ .
- نقرة،التهامي:**سيكولوجية القصة في القرآن الكريم**،الشركة التونسية،تونس ،١٩٧١ .
- هلسا ، غالب :**المكان في الرواية لغربية**،ط١ ،دار ابن هانئ دمشق ،١٩٨٩ .
- بوري لوتمان ،**مشكلة المكان الفني**،مجلة الف ،ترجمة سوزانا القاسم،عدد ٦ ،١٩٨٦ ،ص٨٣ .

AESTHETICS OF THE PLACE IN THE QURAN'S STORY

By

Eman Mahmoud Abdel-Hamid Shawish

Supervisor

Prof. Dr. Shukri Madi

ABSTRACT

This paper presents a study on the element of place in the Quran's story, as did the uniqueness of a previous study, specific to this subject. This study tries to indicate the importance and role of place in the Quran's story, especially, that some Learners of the Quran's story marginalized the role of place in it, and said that the Quran's story doesn't mention place.

This project is an attempt to show how the place in the Quran's story has appeared, and the role it played through answering the following questions;

1 - Does the place in the Quran's story has a marginal role in shaping and moving events of the story?

2 – How does the Holy Quran employ the place in the story? Was it hired to serve the religious purpose? Was the religious aspect associated with the aesthetic purpose of art?

3 – Does the place in the Quran's story interact with other elements of the story?

4 - Does the place have many indications in the Quran's story?

I am going to show all of that through this comprehensive study of place in the Quran's story showing its statement patterns, connotations, roles and its relationship to other elements of the story, to reveal the extent of the place employment technically and

aesthetically in the Quran's story

The study has been divided into an introduction, three chapters and a conclusion. In the introduction, shown were the importance of the subject, why it has been chosen, previous studies, and the questions that it attempts to answer. The first chapter talks about the importance of the Quran's story in terms of space and size, the importance of place in the story, the most important views of who studies the Quran's story regarding it. The second chapter talks about the places in the story, their significance and the vision that it reveals and the third chapter talks about the relationship between the place and other elements of the story , its interaction with them and how it affects or be affected by them to achieve the harmony and beauty in the Quran's story.

In the conclusion, displayed are the most important findings & results of the study. Firstly, the place in the Quran's story makes it literary more aesthetic, serves its vision and contributes to its variety of indications. Secondly, the place role was not marginal, but the nature of the Quran's story distributing it to scenes on the verses of the Holy Quran had the greatest impact in the submission to the place of this nature; it is not necessary to show the place in every scene but through a full meeting of the scenes, we find that the story is not free from the place that served its events, interacted with its characters and helped to express its vision.